نظام الحكم القبلي
لدي
العرب قبل الإسلام

دكتور
فتحي ابراهيم محمد محمد
مدرس بقسم فلسفة القانون وتاريخه
كليـة الحقـوق ـ جامعة عين شـمس

مقدمـــــة

خلق المولي عز وجل الإنسان ليكون خليفته في الأرض، قال تعالي:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١)، ليحقق المعادلة المطلوبة من الخلافة وهي إعمار واستعمار الأرض، قال تعالي:﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٢)، لكن الإنسان الفرد لا يستطيع تحقيق هدف هذه الخلافة، فالاجتماع الإنساني أمر ضروري فرضه المولي عز وجل قال تعالي:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(٣)، وهدي النفوس إلي التماسه بفطرتها، وبما ركبه فيها من قدرة طبيعية علي تحصيله، فالإنسان السوي يفضل العيش في البيئة الجماعية عن العيش وحيداً معزولاً منطوياً علي نفسه، وهو ما أثبته العلامة ابن خلدون بقوله:"أن الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، فلا يصلح حال الإنسان، ولا يتم ما أراده الله من اعتمار العالم به واستخلافه فيه، إلا بالاجتماع مع أبناء جنسه"(٤).

وأعلن الفيلسوف الإغريقي أرسطو المبدأ القائل:"أن الإنسان مدني بالطبع"، بمعني أنه خُلق خلقاً لا يستقل بمعاشه ولا يستبد بمنافعه، ولا تستقيم حياته ولا تتم، دون المشاركة مع أبناء جنسه، فهو يحتاج في معيشته إلي غيره من نوعه، فلا قوام له إلا بإنس بعضهم إلي بعض، وشايعه في ذلك فلاسفة المسلمين كالفارابي القائل:"الإنسان من الأنواع التي لا يمكن أن يتم لها الضروري من أمور حياتها، ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا بالاجتماع"(٥).

---

(١) سورة البقرة، جزء من الآية رقم (٣٠).
(٢) سورة هود، جزء من الآية رقم (٦١).
(٣) سورة المائدة، جزء من الآية رقم (٤٨).
(٤) عبدالرحمن بن محمد "ابن خلدون"، مقدمة ابن خلدون، ج١، تحقيق/ عبدالله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص ١٣٧-١٣٨.
(٥) أبو نصر الفارابي، كتاب السياسة المدنية "مبادئ الموجودات"، تحقيق د/ فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١، ١٩٦٤، ص٦٩.

ولما كان التعايش في مجال مشترك مع الآخر من سنن الحياة البشرية، وكان الهدف من ذلك تبادل الحاجات وتعظيم المنافع، الذي يبدأ بالمفاوضة ثم المشاركة، ولما كان الإنسان مفطور علي الاستئثار بالخيرات والاستزادة من زينة الحياة ومباهجها، قال تعالي:﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(١)، وقال تعالي:﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(٢)، وعن الرسولρ أنه قال:"لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب"(٣)، بما يُفضي في المعاملة إلي المنازعة والمشاجرة، فتنشأ المنافرة، وتؤول الحياة إلي الحرب.

ولكي يؤتي الاجتماع البشري ثماره من عمارة الأرض وإقامة الحضارة، كان من الطبيعي السعي لتحقيق الانسجام داخله، بالتوفيق بين مقتضيات الحياة البشرية، كان تنصب رئيس للجماعة أمر فطري، إذ أن الطبيعة الإنسانية الاجتماعية هي أيضاً وفي نفس الوقت وبالقدر ذاته طبيعة سياسية، لذا تحتم وجود الوازع الضابط والذي يهدف إلي السير الحسن في المجتمع، هذا الوازع إما أن يكون ذاتياً مصدره التربية أو الأخلاق أو الاعتقاد، بحيث يكبح الإنسان نفسه عن العدوان علي الغير أو ظلمه، وإما خارجياً يصدر عن مؤثر خارجي، وهو السلطة الحاكمة للمجتمع، التي تدبر شئونه وتدير موارده، وتنسق بين إمكانياته وقدراته ومتطلباته، وتحقق العدل والأمن فيه، وتحفظ مصالح القوم وحقوقهم، بما يحقق المصلحة العامة للجماعة، فمنذ الأزمنة السحيقة برزت السلطة السياسية باعتبارها أداة طبيعية في حياة المجتمعات البشرية كافة، إذ تم النظر إلي سياسية الجماعة وإدارة شئونها كمسألة جوهرية، استجاب لها العقل والعرف والشرع، في جميع المراحل التاريخية من حياة الإنسان، وأقيم علي أساس منها النظام الاجتماعي البشري بكافة أشكاله.

(١) سورة العاديات، الآية رقم (٨).
(٢) سورة الفجر، الآية رقم (٢٠).
(٣) صحيح مسلم، رقم (١٠٤٨).

والمجتمع البشري عند انتقاله من النمط البسيط إلي نمط أكثر تعقيداً، مر بمراحل متتابعة، في البداية، كانت الأسرة، ثم العشيرة، ثم القبيلة، فالمجتمع القومي، والإنسان خلال تطوره يراعي البعد السياسي باعتباره بعداً طبيعياً وحتمياً للحياة الإنسانية، مما جعل الإنسان كائناً سياسياً بقدر ما هو اجتماعياً، وجعل كل وجود ونشاط إنساني، وجود ونشاط اجتماعي وسياسي بالقدر والوقت نفسهما، بشكل خفي أو صريح مباشر أو غير مباشر جزئي أو كلي، والبعد السياسي بوصفه بعداً طبيعياً وحتمياً ودائماً للحياة الإنسانية، كان بعداً حاكماً لهذه الحياة علي المستويين الفردي والمجتمعي، والتحكم في مكوناتها وأوجهها، والمسيطر عليها مهما كان الشكل الذي تظهر فيه الممارسة السياسية في الحياة الاجتماعية ودرجة تنظيمها واستقلالها وتطورها(١).

لذا عمل الفكر السياسي والفلسفة السياسية علي إيجاد نظم للحكم والإدارة، تتلاءم هذه البيئات والمجتمعات، مستنداً في ذلك إلي أن الحياة السياسية في أي مجتمع تقوم انقسامه إلي فئتين متمايزتين هما الحكام والمحكومين، لذلك تطورت أنظمة الحكم وتمايزت أشكالها عبر السنين، ففي كل مجتمع نشأ شكل من أشكال السلطة، ثم تتدرج من صورته البسيطة إلي صور أخري أكثر تطوراً، ففي البداية كانت السلطة علي شكل رئاسة أو مشيخة، ثم نمت واشتدت فيما بعد إلي ما يعرف بالملك أو الدولة الكاملة، التي تنظمها دساتير ويدير شئونها مؤسسات.

إلا أن الجزيرة العربية لم تحظي بنصيب وافر من التطور ولم تصل إلي النضج الكامل، إذ ظل أهلها عند المرحلة السابقة علي الدولة الكاملة ـ باستثناء بعض مناطق الجنوب والشمال، التي تكونت فيها مماليك وإمارات، خضعت للنفوذ السياسي الأجنبي ـ يعيشون الحياة البدوية البسيطة متمسكين بنظمهم القبلية التي فطروا عليها، حيث كانت العشيرة والقبيلة محور حياتهم الاجتماعية والسياسية، ولم تتداعي هذه النظم

(١) د/ علي عباس مراد، الهندسة اجتماعية صناعة الإنسان والمواطن، دار الروافد الثقافية،، بيروت، ط١، ٢٠١٧، ص٢١١.

إلا مع نشأة دولة الإسلام في الحجاز، متخذة من المدينة المنورة عاصمة لها، والتي قامت بتحرير الفكر العربي وإخراجه من ظلمات النظم القائمة علي العصبية القبلية، بما تدعو إليه من التمسك بتراث الآباء والأجداد علي غير هدي، وترسيخ القيم والمبادئ الإسلامية، التي تدعم الروابط بين أبناء الدولة علي أساس التمتع بحقوق المواطنة.

لم تكن بلاد الحجاز قبل ظهور الإسلام دولة بالمعني القانوني القائم الآن عن الدولة، وإنما كانت لديهم القبيلة، وهي كيان اجتماعي طبيعي بالغ درجة النماء عرف باسم القبيلة، يقوم فيه رؤساء العشائر والبطون برعاية شئون الجماعة، وكانت القبيلة هي الوحدة السياسية، كقريش في مكة وثقيف في الطائف علي سبيل المثال، وقد جري عرف العرب علي الانتساب إلي القبائل لا إلي المدن، فلم يُعرف الانتساب إلي المدن إلا في القرن الثاني الهجري(١).

ولما كان الإنسان كائن اجتماعي وسياسي يعيش علي التنظيم، وكانت الحضارة والنمو قد ارتبطا علي الدوام بتطور الشرائع والأجهزة القائمة علي تنفيذها، لذا كانت المجتمعات في حاجة إلي أطر تنظم شئونها، منها السلطة الحاكمة التي لا يمكن أن تنتظم حياتهم أو يستمر اجتماعهم بدونها، وأصلح نظام سياسي هو الذي ينسجم مع صفات الناس وطبائع المجتمع، وتحدد هذه الطبائع بالقيم والتقاليد والعادات السائدة فيه زمن محدد.

ومما لاشك فيه أنه برز ـ منذ الأزمنة السحيقة ـ في كل مجتمع بشري شكل من أشكال السلطة، التي تتناسب مع تكوينه وطبيعته ومدي تطوره، وغالباً ما تتدرج وتطور هذه السلطة من صورتها البدائية إلي صور أخري أكثر تطوراً وتعقيداً، ففي البداية تكون السلطة علي شكل رئاسة أو مشيخة، لها صلاحيات غير قاهرة، ثم تنمو ويشتد عودها عبر السنين، نحو الشكل الذي يعرف فيما بعد بالدولة الكاملة، ذي القوة

(١) السياسة الشرعية، جامعة المدينة المنورة العالمية، ٢٠٠٩، ص٤٧.

القاهرة والسلطان المطلق، لذلك تنوعت مؤسسات الحكم وتمايزت أشكالها من حيث عدد الأشخاص والهيئات القائمة علي السلطة والاختصاصات.

ومجتمع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام شأنه شأن سائر المجتمعات، عرف العديد من التكوينات بلغ بعضها من التطور مرحلة الإمارات والممالك، إلا أن القسم الأكبر منه والذي بُعثت منه الحضارة الإسلامية ظل علي تكوينه الأساسي، لم يتجاوز في نظمه القبيلة ككيان اجتماعي ووحدة سياسية مستقلة في آن واحد، يمارس السلطة فيها شيخ أو زعيم من أكثر أفرادها فضائل وأوفرهم حسباً ونسباً وعصبية، ومجلس ملأ يضم رموز القبيلة أشرافها وشيوخها، لا تحدد قواعد ثابتة مدي سلطات كل منهم، بل هي مرنة تتغير من وقت لآخر ومن ظرف لآخر بحسب قدرات كل منهما، لذا قرر عميد الأدب العربي الدكتور/ طه حسين أن الحياة السياسة للعرب قبل الإسلام كثيرة التعقيد وفي حاجة إلي العناية والتحليل، إذ لم يورد المؤرخون إلا لمعة خفيفة عن معاملاتهم التجارية وحروبهم، وعلي ذلك قمنا بهذا البحث لتوضيح هذا الجانب الهام في حياة العرب، وسنقسمه كالتالي:

الفصل الأول: موقع القبيلة وأساس قيامها

الفصل الثاني: شيخ القبيلة

الفصل الثالث: مجلس القبيلة

والله الموفق ،،،

دكتور/ فتحي ابراهيم محمد محمد

الفصل الأول: موقع القبيلة وأساس قيامها

تتسم الظواهر والنظم الاجتماعية بالتغيير والتطور، فنظم الأسرة، والقرابة، والدين، والملكية، والسلطة، في العصر المعاصر اختلفت كثيراً عما كانت عليه في طفولتها، كذلك ظاهرة الانتظام الاجتماعي البشري التي عرفتها جميع المجتمعات الإنسانية، هي أيضاً ظاهرة ديناميكية نشأت ونمت محدداتها وتعقدت جوانبها(١)، إلا أن هذا التحول اختلف في مداها وسرعة من نظام إلي آخر ومن مجتمع إلي آخر، ومجتمع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لم يشذ عن هذه السُنة، فمن مجتمع صغير يخضع للسلطة الأبوية إلي مجتمع القبيلة الكبير، ومن الأسرة البسيطة إلي كيانات اجتماعية أوفر عدداً وأوسع نطاقاً وأكثر تعقيداً، بحيث ساد فيه القبيلة كوحدة اجتماعية وسياسية قائمة بذاتها.

وكل تنظيم اجتماعي مهما كان حجمه أو الشكل الذي اتخذه أو درجة تطوره، لابد من رابطة تجمع بين أفراده وتوفق بينهم، وفي نفس الوقت تحدد المركز القانوني للفرد وما يتمتع به من حقوق ومايلتزم به من واجبات، سواء تجاه نفسه أو أفراد جماعته أو تجاه الكيان الاجتماعي المعنوي ذاته، ففي الدول المعاصرة تعتبر المواطنة سواء القائمة علي حق الدم أو حق الإقليم، هي الرابطة الاجتماعية والقانونية والسياسية التي تمكن الفرد من الاندماج في مجتمع ما والتفاعل معه، وهي التي تحدد المزايا التي

(١) يعتقد بعض العلماء أن تكوين الجماعات الأولي لم يرتكز علي عنصر اجتماعي بقدر ما استند إلي عنصر فطري يتمثل في القدرة علي جلب الغذاء والحصول عليه، فقد سبقت مجتمعات الصيد والقطف والتقاط الثمار المجتمعات الزراعية، والصيد علي وجه الخصوص كان يستلزم الاشتراك، سواء في مرحلة الحصول علي الفريسة والإمساك بها، أو في مرحلة استهلاكها، نظراً لضرورة استهلاك لحم الطرائد فوراً، لعدم امتلاك الإنسان الأول تقنية لتخزين اللحم، إلا أن البعض الآخر يعتقد أن التنظيم الاجتماعي الأول للإنسان كان قبلياً، ويستدل هذا الرأي بأن علماء الأناسة الأوائل، أكدوا ضرورة فهم الحياة الاجتماعية الأولي علي أساس جماعات ترتبط بينها علاقات قرابة معقدة، ويذهب آخرون إلي أن التنظيم القبلي لم يظهر حتى ظهرت مجتمعات مستقرة، فبفضل الزراعة تحولت المجتمعات القائمة علي الزمرة إلي مجتمعات قبلية، وبناء علي الربط بين معرفة الإنسان للزراعة ونشوء المجتمع القبلي، ذهب البعض إلي هذا النوع من التنظيم الاجتماعي يرجع حوالي تسعة أو عشرة آلاف عام. فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي من ما قبل الإنسان إلي الثورة الفرنسية، ج١، ترجمة مجاب الإمام، منتدى العلاقات العربية والدولية، قطر، ط١، ٢٠١٦، ص٨٨-٩١.

تكفلها الدولة لمواطنيها والالتزامات التي تفرضها عليهم، أما في المجتمع العربي الجاهلي فكان الولاء والانتماء يقوم علي رابطة العصبية المبنية علي القرابة بصلة الدم، التي جمعت الأفراد المنتسبين إلي أصل مشترك في كيان اجتماعي واحد.

وسنقسم هذا الفصل إلي مبحثين: الأول: موقع القبيلة بين التنظيمات الإجتماعية العربية، الثاني: العصبية القَبَلِيَـة.

المبحث الأول: موقع القبيلة بين التنظيمات الاجتماعية العربية

قسم علماء الأنساب العرب البشر إلي قسم أساسيين هما العرب والعجم(١)، ثم قسموا وحدات المجتمع العربي ورتبوها، بناء علي التطور الذي لحق الاجتماع البشري، وجعل أغلبهم هذه الكيانات ست مراتب متدرجة يعلوا بعضها البعض، وشبهوها بأحسن صورة مادية للخلق وهي البنيان الإنساني(٢)، فأطلقوا علي رتب الأنساب ودرجاتها أسماء مأخوذة من أعضاء هذا الجسم، اقتداءً بالنبيρ(٣)، حتى يسهل علي العقل تخيل النسق الاجتماعي وإدراكه، وهي: الفصيلة، الفخذ، البطن، العمارة، القبيلة، الشعب، وجمعها مرتبط بالنسب وصلة الرحم فهي أصول أو فروع، لكن بعضهم زاد هذه المراتب بإضافة الرهط والعشيرة قبل الفصيلة، بحيث جعل التجمعات البشرية العربية ثماني وحدات متدرجة تصاعدياً وفقاً لأقرب الأنساب، بشكل يستوعب جميع العرب حتى عدنان وقحطان(٤).

---

(١) العجم من العُجمة وهي الإبهام والغموض وعدم إفصاح الكلام، ويطلق العرب لفظ أعجمي علي كل من لاينطق بالكلام الفصيح ولو كان عربياً، والشائع إطلاقها علي من ليس بعربي حتي وإن كان فصيح بخلافها، قال تعالي:﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾. سورة الشعراء، الآية رقم (١٩٨).

(٢) قال تعالي:﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾. سورة غافر، جزء من الآية رقم (٦٤).

(٣) عندما سئل النبيρ عن مضر قال:"كنانة جمجمتها وفيها العينان، وأسد لسانها، وتميم كاهلها". محمد بن أبي بكر بن عبدالله الأنصاري، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، ج١، تحقيق د/ محمد التونجي، دار الرفاعي، الرياض، ط١، ١٩٨٣، ص٣٤٠.

(٤) أبي منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق/ السقا والإبياري وشلبي، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٣٨، ص٢٢٨؛ احمد بن عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢-٣، تحقيق د/ مفيد قمحه وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص٣٠٢-٣٠٣؛ احمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج١، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨، ص٢٩٠.

وقد أولي العرب اهتماماً بالغاً بأنسابهم حتى أنه لم تعني به أمة مثلهم، فرمقوا الرجال الذين خصصوا أنفسهم لضبطها وتسجيلها والعناية بها بعين الإكبار، وجعلوا منه علماً دونوه في مخطوطات وصحائف وكتب، واعتبروه أهم العلوم التي تميز مجتمعهم عن باقي المجتمعات(١)، ذلك أنهم كانوا يتمايزون فيما بينهم بحسبهم ونسبهم ويتفاخرون، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا(٢)، كما أن نظمهم الاجتماعية والسياسية وغيرها مرتبطة بأنسابهم، فهي بمنزلة الوطن أو الهوية بالنسبة لهم(٣).

علي أن انتساب الفرد لعشرته وقبيلته والتفاخر بذلك، ليس من ابتكار عرب الجاهلية، بل هو عادة عرفتها المجتمعات القديمة وتمسكت بها، وبصفة خاصة اليهود الذين حرصوا علي تأكيد انتسابهم لسبط من أبناء يعقوبυ، وقد ذكر ذلك رسولρ قائلاً:"انتسب رجلان علي عهد موسي، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة، فمن أنت لا أم لك؟ فقال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام، قال: فأوحي الله إلي موسي أن قُل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلي تسعة في النار، فأنت عاشرهم في النار، وأما أنت أيها المنتسب إلي اثنين في الجنة، فأنت ثالثهما في الجنة"(٤).

وقد حث الرسولε المسلمين علي معرفة أصول أنسابهم(٥)، لذلك استمر الاهتمام بعلم الأنساب قائم بعد الإسلام كما كان قبله(١)، لأنه من الأمور المطلوبة

(١) عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، الأنساب، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ب.ت، ص٣٦.
(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٣٥٣)؛ صحيح مسلم، رقم (٢٣٧٨).
(٣) د/ ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، دار الصداقة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص٨١.
(٤) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، ج١، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٨، حديث رقم (١٤٩٢).
(٥) أمر الرسول ρ حسان بن ثابت أن يأخذ ما يحتاج إليه من علم نسب قريش عن أبي بكر الصديقτ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ρ قال:"تعلموا أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، ومثراة في المال، ومنسأة في الأجل، ومرضاة للرب". احمد بن حنبل الشيباني، مسند الإمام احمد،ج٢، مؤسسة قرطبة، القاهرة، حديث رقم (٨٨٥٥).

والمعارف المندوبة، للحافظ علي الهوية، وفيه خير دنيوي[٢] وأخروي[٣]، ونهيρ عن المظاهر السلبية التي استخدم عرب الجاهلية فيها هذا العلم، ومن الصحابة الذين اهتموا بعلم الأنساب أبو بكرτ وسعيد بن المسيب، واقتفي هذا النهج عمر بن الخطابτ قائلاً:"تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سُئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا"[٤]، ذلك أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام، حتى تقع المناصرة والنعرة، وما فوق ذلك مستغني عنه[٥].

---

(١) احمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج١، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨، ص٢٩٣.

(٢) علم الأنساب له فوائد جمة في الحياة، فلهذا العلم أهمية في تحديد الشخص الذي يتولي منصب الإمامة فالشافعية اشترطوا النسب القرشي في الخليفة لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه. علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق د/ احمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ط١، ١٩٨٩، ص٥؛ ولهذا العلم أهمية في تحديد انتماء الشخص فقد كان المنافقون يطعنون في نسب أسامة بن زيد، لاختلاف لون بشرتهما، وعندما دخل مجزز المدلجي وأسامة وزيد بن الحارث عليهما وهما نائمين وقد غطيا بقطيفة ولا يظهر منهما إلا أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسُر النبيρ؛ ولهذا العلم أيضاً أهمية معتبرة في النكاح، فقد قالρ:"تنكح النساء لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها". سنن أبي داود، رقم (٢٢٦٧) و رقم(٢٠٤٧).

(٣) جاء في جمهرة أنساب العرب:"الفرض من علم النسب أن يعلم المرء أن محمداً ρ الذي بعثه الله تعالي إلي الجن والإنس بدين الإسلام، هو محمد بن عبدالله القرشي الهاشمي، الذي كان بمكة ورحل منه إلي المدينة، فمن شك في محمد ρ أهو قرشي أم يماني أم تميمي أم أعجمي، فهو كافر، غير عارف بدينه". علي بن احمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ب . ت، ص٢؛ وجاء في نهاية الأرب:"المعرفة بعلم الأنساب من الأمور المطلوبة، والمعرفة المندوبة، لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية، والمعالم الدينية، منها: العلم بنسب النبي ρ وأنه النبي القرشي الهاشمي، فإنه لابد لصحة الإيمان من معرفة ذلك، ولا يعذر مسلم في الجهل به، ومنها: التعرف بين الناس حتى لا يعتزي أحد إلي غير آبائه، ولا ينتسب إلي سوي أجداده، وعلي ذلك يترتب أحكام الورثة فيحجب بعضهم بعضاً، وأحكام الأولياء في النكاح فيقدم بعضهم علي بعض، وأحكام الوقف إذا خص الواقف بعض الأقارب، وأحكام العاقلة في الدية حتى علي بعض العصبات دون البعض". احمد بن علي القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق/ ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠، ص٦.

(٤) احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، تحقيق د/ عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٢٦٥، ٢٨٠.

(٥) عبدالرحمن بن محمد "ابن خلدون"، مقدمة ابن خلدون، ج١، تحقيق/ عبدالله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص ٢٥٦.

ومع تعدد التنظيمات الاجتماعية العربية وتنوعها، باتساع دائرة النسب وتباعدها، بقيت الأسرة علي مر الزمان اللبنة الأولي وحجر الأساس لرابطة الانتماء التي يُبني عليه أي مجتمع، وهي الأصل الذي انبثقت منه جميع الكيانات الاجتماعية، ذلك نظام الأسرة نظام طبيعي فطري منبثق من أصل التكوين الأولي للأحياء جميعاً والمخلوقات كافة، قال تعالي:﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وقد ذهب القلقشندى إلي أن الترتيب الثاني هو الأولي بالإتباع(٢)، إذ أنه ضم أشكال التجمعات البشرية علي اختلاف عددها وتكوينها، فالمجتمعات الإنسانية نشأت تتابعاً بدأ بالأسرة، التي تطورت حتى أصبحت دولاً مختلفة الأشكال والتنظيم، ولم يشذ المجتمع العربي قبل الإسلام عن ذلك، فقد عرف العديد من التنظيمات الاجتماعية الصغيرة والكبيرة، التي من خلالها يمكن تحديد موقع القبيلة من التنظيم الاجتماعي العربي القائم قبل الإسلام.

أولا: الأسرة: ذهب بعض العلماء إلي أن مصطلح الأسرة ليس له تعريف لفظي أو اصطلاحي عربي(٣)، وذهب البعض الآخر إلي أن الأسرة ليست اللبنة الأساسية ولا البذرة الأولي للمجتمع، فأصغر جماعة بشرية يتم الاتحاد حولها والالتحام فيها هي العائلة(٤)، فهي الخلية الاجتماعية الأولي والأساسية(٥)، وهي مجموعة قائمة بذاتها تعيش تحت سقف بيت جماعي كبير يدعي (maloca)، وتتكون من رجل وامرأته أو

(١) سورة الذاريات، الآية رقم (٤٩).
(٢) احمد بن علي القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٨، ص١٤.
(٣) أيد هذا الجانب رأيه بعدم العثور علي مصطلح الأسرة في موسوعة العلوم الاجتماعية والسياسية في الفكر العربي والإسلامي. د/ طاهر لبيب، الأسرة العربية، مجلة المستقبل العربي، مجلد (٢٧)، عدد (٣٠٨)، ٢٠٠٤، ص٨١.
(٤) د/ جورج حنا، من آفاتنا الاجتماعية العصبية الأسرية، مجلة الآداب، سنة (١)، عدد (١٢)، ١٩٥٣، ص٢١-٢٢.
(٥) روبرت م. ماكيفر، تكوين الدولة، ترجمة د/ حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٦، ص٤٢؛ ابراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، ص١٨٨.

نسائه في حالة التعدد[١]، وأولاده الذكور ونسائهم في حال كانت إقامتهم بعد الزواج أبوية[٢]، بالإضافة إلي بناته غير المتزوجات، وكذلك الأحفاد، فهي لا تحتوي إلا علي ثلاثة أجيال من الأقارب المتصلين بخط نسب مباشر[٣].

والشخص المنفرد في علم الانثروبولوجيا لا يمثل وحدة اجتماعية، بل الزمرة أو الجماعة هي تكون وحدة اجتماعية[٤]، لذلك كان الرأي الغالب أن الأسرة هي أول خلية يتكون منها البناء الاجتماعي السائد علي امتداد التاريخ، فهي أصغر الوحدات الاجتماعية وأقدمها، وهي أساس كل التكوينات، إذ وجدت منذ عهد آدم ﷺ، قال تعالي:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَازَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء﴾[٥].

ويرجع سبب الخلط بين المصطلحين، نجد أنه علي نقض الدراسات الأجنبية[٦]، أن الدراسات العربية حول الأسرة لم تميز بين مفهومي الأسرة والعائلة، بل جعلتهما يحملان نفس الحقل الدلالي ويستوعبان نفس الحقائق الاجتماعية[٧]، كما أن

(١) التعدد ظاهرة اجتماعية عرفت في مصر القديمة، وفي المجتمع اليهودي، وكان شائعاً في المجتمع العربي قبل الإسلام، أن يعدد الرجل نسائه من زوجات ومحظيات دون حد معين، فعندما جاء الإسلام كان لكل من غيلان بن سلمة الثقفي ومسعود بن متعب وعروة بن مسعود وسفيان بن عبدالله وأبو عقيل مسعود بن عامر ومتعب بن عمرو بن عمير، عشر نساء، وكان للحارث بن قيس ثماني نساء. د/ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٠، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣، ص٢٢٠.

(٢) قسم علماء الانثروبولوجيا الأسرة بحسب مكان إقامتها إلي أسرة أبوية أو بالمصطلح العاصر أسرة ذكرية إذا ما كان الزوج هو الذي يختار ويحدد المكان الذي تقيم فيه أسرته، وأسرة أمية أو بالمصطلح المعاصر أسرة أثينية إذا أقام الزوجان في مكان إقامة أسرة الزوجة، والأسرة ثنائية الإقامة التي تعطي الحرية للزوجين في تحديد الإقامة في أي من مكاني أسرتي الزوج أو الزوجة، بالإضافة إلي الأسرة جديدة الإقامة إذا ترك للزوجين الحرية التامة في تحديد مكان إقامتهما. د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٦٦، ص١٨٥.

(٣) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، ترجمة د/محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٩١، ص٥٤-٥٥.

(٤) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٠٠.

(٥) سورة النساء، جزء من الآية رقم (١).

(٦) روزا لوكسومبرغ، المجتمع البدائي وانحلاله، ترجمة/ ابراهيم العريس، ب.ت، ص٨.

(٧) د/ العياشي عسر، الأسرة في الوطن العربي، مجلة عالم الفكر، مجلد (٣٦)، عدد (٣)، مارس ٢٠٠٨، ص٢٨٣.

الوحدات النسبية الصغيرة لم تكن تحمل اسماً خاصاً بها، بالإضافة إلي أن الأسرة والعائلة في المجتمعات البدائية دائماً ما كانتا ضمن زمرة اجتماعية أكبر ينتسب إليها الجميع(١).

ومع ذلك فإن الواقع يدل علي أنه لم يوجد مجتمع بشري مهما كانت درجة تطوره يخلوا من النظام الأسري، فلا يمكن تصور الحياة الإنسانية إذا لم تكن منتظمة اجتماعياً في أسر(٢)، يجمع بين أفرادها مشاعر الحب والتكافل والألفة، وفي المجتمع الجاهلي كانت الأسرة تعني الصورة المصغرة للحياة الاجتماعية، التي يستطيع من خلالها الفرد تحديد شجرة نسبه حتى يصل إلي جده الأول الحقيقي(٣).

وقد عرف معجم علم الاجتماع الأسرة بأنها:"جماعة من الأفراد يرتبطون معا بروابط الزواج والدم والتبني، ويتفاعلون معاً، وقد يتم هذا التفاعل بين الزوج والزوجة، وبين الأم والأب، وبين الأم والأب والأبناء، بحيث يتكون منهم جميعاً وحدة اجتماعية تتميز بخصائص معينة"(٤)، وعرفها البعض بأنها أقارب الرجل الأدنون، وأهل بيته الأقربون، الذين يتقوي ويحتمي بهم من كل ما يهدده كما يحتمي المحارب بالدرع، وعرفها البعض الآخر بأنها مؤسسة اجتماعية تنبعث عن ظروف الحياة والطبيعة التلقائية للنظم والأوضاع الاجتماعية، وعرفها آخرون بأنها صورة مصغرة للحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي حينما كان الناس مرتبطين بالقبائل والعشائر والبطون(٥).

---

(١) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٠٨.

(٢) د/ مصطفي الخشاب، دراسات في الاجتماع العائلي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٨، ص٣١.

(٣) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٦٦، ص٢٠٩.

(٤) Josef Sumpf et Michel Hugues: Dictionnaire de Sociologie, Librairie, Larousse, Paris , ١٩٧٣ , p١٣١.

(٥) د/ زهير حطب، تطور بني الأسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٧٦، ص٤٣.

ولما كان عرب الجاهلية عرفوا أشكال متعددة للوحدة الاجتماعية الأولي[١]، إلا أنه لم يخفي عنهم أن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الصغرى وأنها أساس القبيلة، فليس هناك أسرة بلا مجتمع ولا مجتمع بدون أسرة، فقد عرف العرب الأسرة البسيطة أو الأسرة الزوجية(الأسرة بمعناها الضيق)، وهي رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما[٢]، وكان العربي يتغني بانتمائه ويعتد بأرومته، بداية من والداه وأخوته، وانتهاءً برهطه وعشيرته والقبيلة المنحدر منها ويحمل هويتها[٣].

كما عرفت المجتمعات العربية القديمة وبصفة خاصة سمحت بتعدد الزوجات، الأسرة المركبة (الأسرة بالمعني الواسع) التي يدخل في نطاقها زوجات الأبناء، والأحفاد، وأشقاء الزوج وزوجاتهم، وشقيقاته اللاتي لم يتزوجن أو اللاتي ترملن أو طُلقن، سواء أقاموا في مسكن مشترك أو في وحدات سكنية مستقلة، بشرط أن يكونوا مشتركين في معيشة واحدة، كما انتظم في هذا الشكل الاجتماعي الموالي والأدعياء من الأفراد الذين يتبناهم رئيس الأسرة ويدعي قرابتهم له وانتسابهم إليه[٤]، فالأسرة كالشخص تتحد مع غيرها فتتكون كيانات أكبر، كالعشائر ثم القبائل ثم القرى والمدن، وكل تنظيم منها كالأسرة بحاجة إلي سلطة تدير أموره، وتتناسب هذه السلطة مع حجم كل تجمع بشري ومدي تقدمه وتطوره[٥].

---

(١) في البداية كانت الأسرة عند عرب الجاهلية تضم جميع الأقارب من ناحية الذكور والموالي والأدعياء، ثم أخذ نطاق الأسرة يضيق شيئاً فشيئاً حتى وصل إلي الحد الأدنى الذي استقر عليه الآن في معظم المجتمعات المعاصرة، فأصبحت الأسرة لا تشمل إلا الزوج والزوجة وأولادهما، التي أصطلح علماء الاجتماع علي تسميتها بالأسرة الزوجية.

(٢) ذهب البعض إلي أن الأسرة لا تجمعها صلة الرحم وحسب بل تجتمع علي وجه من وجوه النسب مهما بعدت صلة الرحم بين أفرادها. د/ جورج حنا، من آفاتنا الاجتماعية العصبية الأسرية، مجلة الآداب، س(١)، عدد (١٢)، ١٩٥٣، ص٢٢.

(٣) الهوية القبلية كانت أداة لتميز أفراد القبيلة عن أفراد القبائل الأخرى، وتعصمهم عن التيه بين القبائل. د/خالد بن عبدالرحمن الجريسي، العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، مؤسسة الجريس، الرياض، ب. ت، ص٣١.

(٤) د/ مصطفي الخشاب، دراسات في الاجتماع العائلي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٨، ص٣١.

(٥) د/ علي يوسف الشكري، الوسيط في الأنظمة السياسية المقارنة، مؤسسة دار الصادق الثقافية، الكوفة، ب. ت، ص١٤.

فقد تطور شكل الأسرة في المجتمع الجاهلي، ففي الوقت التي كانت فيه المرأة محو الحياة الاجتماعية، وكان لها الدور الأساسي في الاقتصاد وفي الهيئة الاجتماعية، كانت الأسرة أمية ينتسب فيها الأولاد إلي الأم، وهذا يتضح من مسميات بعض القبائل العربية قبل الإسلام، مثل بنو خندف وبنو بآهلة، لكن هذا النظام لم يستمر أمداً طويلاً، فتدريجياً صار الأب هو رب الأسرة العربية ومحور حياتها، واعتمدت سلالة الأنساب كلياً علي النظام الأبوي(١)، وساد نظام القرابة الأبوية والانتساب لأسرة الأب(٢).

وبالرغم من المرأة في الجاهلية كانت تعاني ما يعانيه الرجل من خشونة الحياة وشظف العيش، إلا أن الأسرة العربية تميزت في الفترة السابقة علي الإسلام بإيثار العنصر الذكور علي الأنثوي، وتفضيل البنين علي البنات، وذلك لاعتماد العرب علي الذكور في الصيد والرعي والقتال، بجانب المحافظة علي النسب وتعظيم العصبية واشتداد مفعولها عما عليه في التنظيمات الأخرى، بالإضافة إلي الخشية من الفاقة والفقر والإملاق، واحتمال جلب البنات العار والمذلة والهوان، إذا كبرن وتعرضن للسبي في أيام الحروب والغزو(٣).

ثانياً: الرهط: لفظ يدل علي زمرة مكون من ثلاثة أو سبعة إلي عشرة أو ما دون العشرة(٤)، وزاد البعض العدد إلي أربعين(٥)، وزاده آخرون إلي ستين نفس(٦)، والرهط عصابة الرجل وأهله من الرجال لا يكون فيهم امرأة(٧)، قال تعالي:﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ

(١) د/ شكران خربوطلي، سطور منسية في تاريخ الحجاز، الحياة الاجتماعية في الحجاز قبيل ظهور الإسلام، دار مؤسسة رسلان للطباعة، دمشق، ٢٠١١، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) إذ في المجتمعات التي يسودها الرعي كما هو الحال في المناطق العربية تزداد سلطة الرجل وبالتالي تزداد أهمية النظام الأبوي. د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٢١.

(٣) أشار القرآن الكريم إلي موقف عرب الجاهلية من إنجاب الإناث، قال تعالي:﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ{٥٨}يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾.سورة النحل، الآيات (٥٨-٥٩).

(٤) ابراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٩٩٥، ص٢٧.

(٥) د/ بسيوني محمد الخولي، العلاقات الدولية في الإسلام، ب. ن، ٢٠٢٠، ص٢٠٥.

(٦) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٠٤.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ب. ت، ص١٧٥٣.

تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[١]، أشارت الآية رهط من قوم صالحυ أرادوا قتله غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أسرته وأقاربه أنهم لم يشهدوا ذلك ولم يعلموا شيء من أمره[٢].

ولفظ رهط يشير إلي قرابة الشخص الأدنون من الرجال كأهل الشخص من رحمه وعترته[٣]، فهو أعم من الأسرة وأكثر شمولاً منها[٤]، لذلك قيل أن رهط الرجل أقرب أهله من عشيرته وقبيلته، ممن فيهم قوته ومنعته يأوي إليهم ويحتمي بهم، من وقوع اعتداء عليه أو إلحاق أذي به، قال تعالي علي لسان قوم شعيبυ:﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[٥].

ويتميز الرهط بأنه لا يشترط اشتراك أفراده في معيشة واحدة أو الإقامة في مسكن واحد، كما أن هذا الاجتماع يقوم علي أساس الجنس، فالرهط يضم الأقارب من جهة الأب من جنس الرجال وحدهم دون جنس النساء[٦]، وقد أكد الشاعر العربي وجود فرق بين الأسرة والرهط في بيت شعر واحد، قائلاً:"وكنتم لنا دون الأقارب أسرة .. ونحن لكم من دون رهطكم رهط"[٧]، والرهط جزء من وحدة اجتماعية أكبر، ذهب البعض إلي أنه جزء من العشيرة، وذهب آخرون إلي أنه جزء من البطن[٨].

---

(١) سورة النمل، الآية رقم (٤٨).
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم ، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص١٣٩٩.
(٣) العترة هي أصل الشجرة الذي بقي بعد القطع، فنبت منه عروق متعددة، وعترة الرجل بيضته التي تفقأت عنه، قال أبو بكر رضي الله عنه:"نحن عترة رسول الله ρ التي خرج منها"، وعترة الرجل وعقبه من صلبه ولده وذريته، وعترة النبيρ ولد فاطمة البتول عليها السلام. احمد بن علي بن محمد المقريزي، إمتاع الأسماع بما للنبي صلي الله عليه من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، ج٦، تحقيق محمد عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص١٣.
(٤) قال الشاعر خالد بن نضلة: لعمري لرهط المرء خير بقية .. عليه، ولو عالوا به كل مركب.
(٥) سورة هود، جزء من الآية رقم (٩١).
(٦) قال الشاعر عدي بن ربيعة التغلبي، في قصيدة هل عرفت الغداة من أطلال:"صدق الجارُ إننا قد قتلنا.. بقبال النعال رهط الرجال".
(٧) أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني، قصيدة أجيرة قلبي إن تدانوا وإن شطوا.
(٨) احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، تحقيق د/ عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٢٦٧.

ثالثاً: العشيرة: من العشرة والمخالطة والمرافقة والاشتراك في المعيشة، والعشرة تدل علي التعامل المباشرة المستمر والتوالد والاستخلاف، والعشيرة صورة من صور التكتلات الاجتماعية التي شاعت في المجتمع العربي، تمهيداً لتطور الجماعة واتجاهها نحو تكوين مجتمع أكبر، إلا أن نطاقها أضيق من نطاق القبيلة، إذ أن عشيرة الرجل أهله رهطه ومجتمعه المتضامن من بنو أبيه الأقربون(١)، فأعضاء العشيرة يعدون بعضهم إخوة(٢)، يشد بعضه بعضا في كافة الأمور وجميع الأحوال.

واستدل صاحب المغازي علي ذلك بأن النبيε عندما أنزل عليه قول الله تعالي:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾(٣)، قام فنادي علي أجدادهم يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد(٤).

فالعشيرة زمرة تضم أقارب الرجل من مخالطيه ومصاحبيه من الرجال والنساء معاً، قال تعالي:﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾(٥)، فقد ذكر سبحانه وتعالي أولا الاجتماع المبني علي صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة، ويطلق علي هؤلاء "الصليبة"(٦)، لأنهم أصلاء من حيث النسب، ثم ذكر الاجتماع المبني علي المصاهرة بالزواج، وهو الوسيلة الشرعية للتكاثر والتناسل وزيادة عدد أفراد الجماعة، فمن اجتماع الأقارب بالنسب والزواج معاً تتكون العشيرة، فهي مزيج من علاقة الدم بالإضافة إلي روابط القربى بالزواج، لذلك كان عدد العشيرة كبير

(١) يقول محمد بن الأغلب التميمي: أظل عشيرتي بجناح عزي .. وأمنحها الكرامة والثوابا.
(٢) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٠٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية رقم (٢١٤).
(٤) علي بن سلطان محمد القاري، مرقاة المفاتيح، ج٩، تحقيق جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص٥٥٧.
(٥) سورة التوبة، جزء من الآية رقم (٢٤).
(٦) جاء في تاج العروس عربي صليب أي خالص النسب، وامرأة صلبية أي كريمة النسب عريقة الأصل. مرتضي الحسيني الزبيدي، تاج العروس، ج٣، تحقيق/ عبدالستار احمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٥، ص٢٠٩.

نسبياً فقد وصلت إلي مائتي شخص أو يزيد[١]، وبين أفرادها رابطة قوية وهو ما حدا بالبعض إلي القول بأن:"جميع أبناء العشيرة يعتقدون أنهم انحدروا جميعاً من أب واحد"[٢].

ولشدة حُب العرب لعشائرهم وتعلقهم بها وعدم رغبتهم في الانسلاخ منها، كان الفكر الجاهلي يري أن الفرد بدون عشيرته، كالبعير الذي أصيب بمرض مُعدي لذا تم إفراده وعزله وحده وتركه لذاته لا يجالسه أحد[٣]، لذلك كان يشق علي بعضهم قطيعة عشائرهم من أقاربهم وأصهارهم وزوجاته والهجرة إلي المدينة، فانزل الله تعالي آية كريمة ترشدهم إلي أن كسب الإيمان أعلي من أي كسب آخر[٤]، وأن مقياس الحب ليس صلة النسب والمصاهرة والعشيرة وإنما القرب من الله[٥].

رابعاً: الفصيلة: احدي تكوينات الامتداد السلالي، فهي قسم من أقسام الفخذ، كالقدم من الساق، أو كالركبة التي تنفصل من الفخذ[٦]، فهي ما انقسمت فيها أنساب الفخذ، الذي يجمع الفصائل[٧]، وضعها النسابة العرب قبل الفخذ في الترتيب التصاعدي لوحدات المجتمع، لأنها أقرب من الفخذ في نسب الرجل، ومثل النساب للفصيلة ببني أبي طالب، وبني العباس، وبني الزبير، وبني الحارث، وبني عبد الكعبة، وبني عبدالعزي (أبو لهب)، وغيرهم من أبناء عبد المطلب بن هاشم[٨].

---

(١) د/ حسن شحاته سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٠٤.
(٢) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، المرجع السابق، ص٢٠٩.
(٣) قال الشاعر: إلي أن تحامتني العشيرة كلها .. وأفردت إفراد البعير المُعبد. معلقة طرفة بن العبد.
(٤) قال تعالي:﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾سورة التوبة، الآية رقم (٢٤).
(٥) محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة،٢٠١٢، ص٤٩٨٨-٤٩٩١.
(٦) د/ بسيوني محمد الخولي، العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠١.
(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٢٦٨.
(٨) د/ عطية القوصي، تاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٦، ص٣٠.

وقد ذهب بعض العلماء إلي أن الفصيلة كتنظيم اجتماعي أقرب إلي البيت دون أن تكون الأسرة أو العائلة[١]، ولم تكن الفصيلة عند عرب الجاهلية علي درجة من الشهرة والتداول كالعشيرة القبيلة، فلا يسمع عنها ولا يعرفها غير المهتمين بعلم الأنساب، إذ ليس ثمة حدود فاصلة واضحة بين الفصيلة والعشيرة، بل أن الفصيل بين الفصيلة والعشيرة تقديري وموضوع خلاف شديد[٢].

وذهب البعض إلي أن المراد بالفصيلة أقرب آباء الرجل إليه من عشيرته الأدنون، التي تضمه إليها وتقربه منها وتكفل له الرعاية والعيش والسكن والأمن، وغالباً لا يضم الرجل إليه ولا يأوي ولا يتحمل عناء المعيشة والقرار إلا لأقرب عشيرته[٣]، واستدلوا علي ما ذهبوا إليه بقول الله تعالي:﴿**وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ**﴾[٤]، ويمكننا أن نؤكد هذا المفهوم للفصيلة بقول الله تعالي:﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾[٥]، الذي يفيد إلي أن الرسولε ولد يتيماً، ثم فقد أمه وهو في الصغير، قبل أن يستطيع أن تدبر شئون نفسه، فتكفل به جده عبد المطلب باعتباره أقرب آبائه، ولما مات جده كفله عمه أبا طالب، وقاما كل منهما علي أمرهε حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين[٦].

خامساً: الفخذ: رتبه بعض النسابة في الطبقة الخامسة من طبقات النسب العربي، وعزفوه بأنه تكوين إنساني أكبر من الفصيلة، فهو يجمع عدة فصائل[٧]، وفخذ الرجل: أهل الرجل ونفره من حيه الذين هم أقرب عشرته إليه[٨]، والفخذ في نفس الوقت هو أسفل البطن وأدناها، إذ تجمع الأفخاذ في البطن[٩].

---

(١) د/ طاهر لبيب، الأسرة العربية، مجلة المستقبل العربي، مجلد(٢٧)، عدد(٣٠٨)، ٢٠٠٤، ص٨١.
(٢) د/ بسيوني محمد الخولي، العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٢.
(٣) احمد بن علي القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٨، ص١٤.
(٤) سورة المعارج، الآية رقم (١٣).
(٥) سورة الضحي، الآية رقم (٦).
(٦) قال تعالي:﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة الأنفال، الآية رقم (٦٢).
(٧) علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٢٦٨.
(٨) جبران مسعود، نهاية المعجم الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٩٢، ص٥٩٥.
(٩) د/ بسيوني محمد الخولي، العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٧.

ومثل النسابة لاجتماع الأفخاذ بالنسبة للعمود النبوي، بأن أفخاذ بني هاشم وبني عبد شمس وبني المطلب وبن نوفل، تجمع في بطن واحدة هي بطن آل عبد مناف[١]، كما أن النبيε رتب أفخاذ بنو النضر بن كنانة وفاضل بينهم، فقدم فخذ بني النجار، ثم بني عبد الأشهل، ثم بني الحارث، ثم بني ساعدة[٢]، وأفخاذ البطن الواحدة قد تباين في الشرف والعدد، فعندما قيل لمعاوية أخبرنا عنكم وعن بني هاشم. قال: أما بنو هاشم أشرف واحداً ونحن أشرف عدداً[٣].

سادساً: البطن: مفرد مؤنث وجمعها أبطن وبطون، وهي في التكوين العضوي لجسم الإنسان المنطقة المحصورة ما بين العانة ونهاية عظم الصدر، وفي التنظيم الاجتماعي العربي البطن هي تنظيم اجتماعي متوسط بين الفخذ والعمارة[٤]، فهي فوق الفخذ وتعلوه[٥]، والبطن تجمع للأفخاذ، وفي نفس الوقت أدني من العمارة[٦]، فهي ما انقسمت فيه أنساب العمارة[٧].

ومثل النسابة للبطن بقريش كعمارة انقسمت إلي بطون وهي بنو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب، وبني مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وبني تيم بن مرة بن كعب، وبني عدي بن كعب[٨]، ومثل بني عبد مناف وبني مخزوم من كنانة[٩]، والبطن

(١) د/ عطية القوصي، تاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام، مرجع سابق، ص٢٩.
(٢) علي بن احمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٤.
(٣) احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٦٩.
(٤) قال عليّ بن أبن طالب:"البطن مادون القبيلة وفوق الفخذ، أي كتب عليهم ما تغرمه العاقلة من الديات، فبين ما علي قوم منها". ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث،ج١، تحقيق/ طاهر احمد الزوي وآخر، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ب . ت، ص١٣٧.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص٣٠٤.
(٦) يتجاهل البعض العمارة ويجعل البطن هي التنظيم الأدنى مباشرة من القبيلة. محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص٤٤.
(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٢٦٨.
(٨) د/ بسيوني محمد الخولي، العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٨.
(٩) علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٢٦٨.

تضم أعداد كبيرة من الأفراد، فمثلاً بني عدوان وهم بطن من بطون جديلة، عند إحصاء غلمانها فقط تبين أن منهم سبعين ألف غلام أغرل سوي من كان مختوناً(١).

سابعاً: العمارة(٢): مفرد مؤنث يجمع علي عمارات وعمائر، وهي تجمع للبطون في تنظيم اجتماعي أعلي(٣)، لكنها مرتبة أدني من القبيلة(٤)، إذ تنقسم فيها أنساب القبائل مثل قريش وكنانة(٥)، وموقعها من القبيلة لا يعني دنوها حجهما أو صغر عددها، فهي بمثابة حي عظيم يقوم بنفسه ينفرد بظعنها وإقامتها ونجعتها(٦).

وقد شبه علماء الأنساب موقع العمارة في خلق الإنسان بأعلى البطن، فهي كالصدر الذي يعلو البطن في الجسم(٧)، ومثلوا لها بالنسبة لعمود النسب النبوي بمضر فكانت مضر قبيلة عظمة انقسمت فيما بعد بين الأخوين خندف وقيس، ثم انقسم بنو خندف إلي عمائر مثل قريش وكنانة وتميم وأسد وهذيل، وذلك قبل أن تتحول قريش

(١) أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، ج٣، تحقيق د/ إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، ب.ت، ص٦٢.
(٢) قال الشاعر الأخنس بن شهاب: لكل أناس من معد عِمارة.. عروض إليها يلجؤون وجانب.
(٣) جاء في العقد الفريد:"عشرة رهط من عشرة أبطن". احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٦٧.
(٤) اختلف العلماء بشأن تحديد موقع القبيلة في التنظيم الاجتماعي العربي، فذهب ابن الكلبي وابن بري وأبو أسامة بأنها أدني من القبيلة، قائلين:"الطبقات علي ترتيب خلق الإنسان، فالشعب أعظمها، ثم القبيلة، ثم العمارة وهي الصدر". ابن منظور، لسان العرب، ج ١٥، مرجع سابق، ص٥٠٠؛ وذهب بعض النسابة إلي جعل العمارة أكبر من القبيلة، جاء في الاشتقاق:"والعمارة: القبيلة العظيمة من العرب". محمد بن الحسن بن دريد، الاشتقاق، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص١٤.
(٥) علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٢٦٨.
(٦) د/ بسيوني محمد الخولي، العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٨.
(٧) احمد بن علي القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مرجع سابق، ص١٤.

وكنانة وتمم وأسد وهذيل إلي قبائل[١]، وانقسم بنو قيس إلي عمائر سعد وخصفة وعمرو[٢].

ثامناً: القبيلة: مفرد مؤنث وجمعها قبائل[٣]، ويطلق عليها العرب أيضاً لفظ جمجمة[٤]، وهي أضخم تجمع سكاني عرفه العرب، يعيش حياة مشتركة قائمة علي رابطة النسب، لذلك قيل أنها أسرة كبيرة تتكون من أبنائها الذين يؤمنون بالانضمام إليها، ويحترمون أعرافها، ويتعصبون لها ويدافعون عنها ويبذلون في سبيلها كل نفيس[٥]، والقبيلة تنظيم اجتماعي متوسط بين الشعب والعمائر، فهي قسم من أقسام الشعب[٦]، وفي نفس الوقت هي تجمع لمن دونها من كيانات اجتماعية[٧].

ويري البعض أن القبيلة سُميت بهذا الاسم لإطباق وحداتها من العمائر وما دونها علي بعضها كقبائل الشجرة التي هي فروعها[٨]، إلا الغالب يري أنها سُميت بذلك لتقابل الأنساب فيها، كما تتقابل العظام في الرأس واتصالها أجزائها معاً، في شكل قطع معشوبة بعضها إلي بعض، فالجمجمة تتكون من أربعة عظام مشعبة كل عظمة منها تقابل أخري، تتصل بها وتتعاضد معها، كذلك القبيلة يجتمع فيها ويتعاضد

(١) العرب الخندفية أو الإلياسية عرفت باسم مضر الحمراء، وسميت خندف نسبة إلي أمهم خندف ليلي بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، زوجة إلياس بن مضر التي أنجبت له مدركة التي منها قريش وطابخة وقمعة، وسميت الإلياسية نسبة إلي إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.
(٢) العرب القيسية عرفت باسم مضر السوداء، وسميت بقيس نسبة إلي قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
(٣) قال الشاعر عدي بن ربيعة التغلبي، في قصيدة لما نعي الناعي كليباً: حتي أبيد قبيلة وقبيلة .. وقبيلة وقبيلتين جميعاً.
(٤) يقول الشاعر أبو سروة السنبسي:(نخصف بالآذان منكم نعالنا.. ونشرب كرها منكم في الجماجم)
(٥) د/ محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ب . ت، ص ٤٩.
(٦) لم تنشأ الدولة في القديم بالمعني المصطلح عليه اليوم إلا بعد نشأة المدينة كوحدة سياسية بدلا من العشيرة أو القبيلة. د/ابراهيم أبو الغار، علم الاجتماع القانوني والضبط الاجتماعي، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣٢.
(٧) ابن منظور، لسان العرب، ج ١، مرجع سابق، ص٥٠٠.
(٨) د/ بسيوني محمد الخولي، العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢١٠.

العديد ممن دونها من العمائر والبطون والأفخاذ والبطون، وكل منها يقابله نظراء له[١]، وكل وحدة منها تقوم علي العصبية، وكل منها يعتبر قوة في ذاته، لكن في نفس الوقت كل منها يشد أذر الآخر في سبيل حماية القبيلة والذود عنها، كما تحمي قبائل الرأس الدماغ وتعصمه من الأخطار التي يتعرض لها.

وقد ذكر بعض العلماء أن قبائل شبه الجزيرة العربية سُميت بقبائل الرأس[٢]، وأطلق العرب علي القبيلة الكبيرة جمجمة، لما لها من الكثرة والقوة والغلبة والشرف[٣]، وتنقسم القبيلة إلي ما دونها من كيانات، فهي ما انقسمت فيه أنساب العرب مثل ربيعة ومضر وقريش في عهودهم الأولي[٤]، إلا أنه مع تقدم الزمن تكاثر أفرد هذه الوحدات، فتحولت العمائر والبطون إلي قبائل مستقلة، ففي بادئ الأمر كانت قريش بطن من بطون كنانة، لكنها بعد ذلك أصبحت قبيلة مستقلة لها منازلها ومشاربها وقوتها وتنسب إلي جدها قريش بن كنانة، والقبيلة أيضاً دون الشعب بل هي فرع من فروعه[٥].

والمجتمعات البشرية القديمة جميعا انتظمت قبلياً في مرحلة ما من تاريخها، وعرفت جميع الحضارات القديمة هذا التنظيم في مراحلها الأولي فقد ساد في مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين ولدي اليهود الصينيون والهنود، وكان الأساس الذي قامت عليه الحضارات الغربية القديمة سواء في الإغريقية أو الرومانية، وكانت القبيلة أساس النظام الاجتماعي والسياسي عند عرب الجاهلية سواء أهل البادية أم الحضر، ولم يتطور الجاهليون أكثر من ذلك، لذا عُدت القبيلة أكبر الوحدات السياسية التي عرفها العرب، ومارسوا من خلالها أنشطتهم الاجتماعية والسياسية والإدارية والاقتصادية[٦]،

(١) الحسين بن حيدر، طبقات النسب، ب. ن، ٢٠١١، ص٣.
(٢) احمد بن علي القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مرجع سابق، ص١٤.
(٣) نُسب للحسن بن عليّ τ أنه قال:"كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت". إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، ج٨، تحقيق/ علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص ٤٦.
(٤) علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٢٦٨.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج ١، مرجع سابق، ص٥٠٠.
(٦) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧، ص٢٩.

وبناء علي ذلك لم يكن العربي يشعر بواجب الولاء والانتماء لأية جماعة أكبر من القبيلة، فارتباطه إنما يكون مع عشيرته وكل انتمائه مرتبطة بالقبيلة(١).

وكلما كثر عدد أفراد القبيلة وتباعدت أنسابهم واتسعت ديارها، كلما هش تماسكها وتداعت جوانبها وانقسمت، وتحولت إلي قبائل مستقلة تماماً عن أصلها، مكتفية بنفسها وموضعها عن غيرها(٢)، وفي بعض الأحيان إلي قبائل المتعارضة والمتناحرة، وغالباً لا تعود لسيرتها الأولي إلا بناءً علي تحالفات تعقد لأغراض محددة(٣)، إذ أن قوة ولاء العربي وانتمائه تتناسب عكسياً مع سعة الجماعة التي يدين لها بهذا الولاء(٤)، وبعد مدي معين تتلاشي الرابطة القبيلة وتنقطع، ومثل ابن عبد ربه لذلك بقبيلة قريش، فهي تنتهي إلي فهر بن مالك، فما دونه قريش وما فوقه عرب(٥).

فالقبيلة جماعة بشرية أظهرت حيوية كبيرة ومقدرة هائلة علي التكيف، استطاعت البقاء بفاعلية في مناطق كثيرة من العالم حتى العصر الحديث، إذ يربط بين أفراد مشاعر جارفة بانتسابهم إلي أصل مشترك، كما يسود بينهم ثقافة وأعراف وأدبيات ومصالح مشتركة(٦)، وتشكل كيان اجتماعي مستقل له اسم ينفرد به، ولهجة

---

(١) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، ترجمة/ محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ب.ت، ص١١.

(٢) جاء في العقد الفريد:"قيل للجماجم جماجم لأنها يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت بأسمائها دون الانتساب إليها، فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكتف باسمه معروف بموضعه". احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٨٩.

(٣) ذكر الكلبي أن قبيلة معد ظلت موحدة في اجتماع كلمتها وائتلاف أهوائها تضم أفرادها المجامع وتجمعهم المواسم، يداً واحدة علي من سواهم، حتى كانت أول حرب بين أفرادها بسبب وقوع خزيمة بن نهد في حُب فاطمة بنت يذكر بن ربيعة، فبلغ شعره ربيعه فضربوه، فانتقم خزيمة من يذكر فقتله . هاشم بن محمد الكلبي، افتراق ولد معد، تحقيق/ احمد محمد عبيد، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٠، ص٢٩-٣٠.

(٤) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١١.

(٥) احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٦٦.

(٦) يري البعض أن العلائق بين سكان البدو، لا تشترط وجود أصل مشترك أو ثقافة واحدة، بل أنها قد تنشأ بطريقة عفوية تلقائية. ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، هامش(٧) ص ٢٤٤.

خاصة، وحكومة عليا، وديار تدافع عنها، وعقيدة دينية مشتركة(١)، وهي بنية اجتماعية قابلة لتكوين تحالفات أكبر، في ذات الإطار والنظم القبلية، إذا يظل لكل منها مقوماته السياسية شعبه وديارة ورئاسته، فلم تستطع الروابط القبلية تزويد هذه الجماعات بما يمكنها من إقامة دولة موحدة تقوم علي أسس المواطنة.

تاسعاً: الشعب: مفرد مذكر والجمع شعوب، وهو مصطلح عرفه العرب والعجم علي السواء(٢)، لا فضل لأحدهما علي الآخر، فالشعوب منها العرب ومنها غير ذلك(٣)، والشعب هو التنظيم الاجتماعي الأعلى لدي العرب، فلم يعرف العرب في جاهليتهم تنظيم اجتماعي أعلي من الشعب، فالشعب هو أبعد مراتب الأنساب لديهم(٤).

والشعب عند العرب كيان اجتماعي متمايز عن القبيلة(٥)، فهو أعظم وأكبر من القبيلة في النطاق والعدد وغيرها من المقومات، فالشعب يجمع القبائل إذ متي تقادم الزمان وطالت الأنساب تحولت القبائل إلي شعوب(٦)، لذلك اعتبر العرب الشعب أبو القبائل ينتسبون إليه، إذ تشعبت وتفرعت منه القبائل(٧)، وسُمت الشعوب بهذا الاسم دلالة علي الانتشار والتُفرق والتباعد بعد الوحدة والاندماج(٨)، كما أن القبائل تشعبت

(١) Lewis Henry Morgan, Ancient Society,New York: H. Holt and Company, ١٨٧٧, P. ١٠٦.

(٢) في حديث مسروق أن رجلاً من الشعوب أسلم، فكانت تؤخذ منه الجزية، فأمر عمر أن لاتؤخذ منه.

(٣) جاء في التوراة:"ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. فَقَالَ لِشَعْبِهِ:«هُوَ ذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا". سفر الخروج، الإصحاح الأول، الآيات من ٨-٩.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج١، مرجع سابق، ص٥٠٠.

(٥) قال تعالي:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾. سورة الحجرات، جزء من الآية رقم (١٣).

(٦) في زمن النبي كانت مضر أصبحت شعب وربيعة كذلك. الحسين بن حيدر، طبقات النسب، ب.ن، ٢٠١١، ص٢.

(٧) وصف الشاعر ذو الرمة تجمع القبائل العربية في الربيع، قائلا: لا أحسب الدهر يبلي جده أبداً .. ولا تقسم شَعباً واحداً شُعبُ. ابن منظور، لسان العرب، ج ١، مرجع سابق، ص٥٠٠.

(٨) قال الطرماح: شت شعب الحي بعد التئام.. وشجاك الربع ربع المقام. ابن منظور، لسان العرب، ج ١، مرجع سابق، ص٤٩٨.

منه[١]، وفي الشعب تضعف رابطة العصبية، إذ كلما بعدت اللحمة وهنت حدة العصبية واضمحلت.

والشعب في مفهوم علماء العرب هو قمة التنظيم الاجتماعي، إذ ينتظم في إطاره كافة أشكال الوحدات الاجتماعية الأخرى، لذلك قابله العلماء في بناء الإنسان بأعلى الرأس[٢]، والشعب بالمدلول الاجتماعي يضم جميع الأفراد الذين بينهم أصل مشترك حتى لو تفرقوا في الأقاليم، وحتى لو تعدد زعمائهم، واستقلت تنظيماتهم السياسية، لذلك مُثل له عند العرب بشعب عدنان الذين سكن شمال الجزيرة[٣] وشعب قحطان الذي سكن جنوبها[٤]، باعتبارهما أصل العرب العاربة[٥]، وآباء القبائل العربية[٦]، فهما شعبان منفصلان، وكل واحد منهما كون شعباً مستقلاً، إذ تشعب من

(١) علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٢٦٨.
(٢) احمد بن علي القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مرجع سابق، ص١٤.
(٣) عدنان بن أدد بن الهميسع بن نابت بن إسماعيل، أبو القبائل العربية الشمالية، التي سكنت الحجاز ونجد وتهامة، ومنه معد التي انقسمت إلي فرعين كبيرين هما: نزار و فنص، لكن الكثرة كانت من نزار إذ جاء منها: قضاعة، ومضر، وربيعة، زياد، وأنمار. د/ محمد التونجي، ديوان الأفوه الأودي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص١١؛ وقدم العلماء عدنان علي قحطان في المرتبة لأن النبوة في شعب عدنان، ولأن ولد عدنان صرحاء ولد إسماعيلυ، ولأن محمد ρ من عدنان، كما أنهρ كان إذا انتهي في نسبه إلي عدنان أمسك، وتلي قول الله تعالي:﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾. ابراهيم (٣٧) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٢٦٨؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٦.
(٤) اختلف المؤرخون في نسب قحطان فقال البعض أنه قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، أبو القبائل العربية الجنوبية، التي سكنت اليمن، وعند انهيار سد مآرب هاجرت هذه القبائل وانتشرت في الأرض، منها قبائل الأزد التي استقرت بعمان، ولخم التي استقرت بالعراق، وقال البعض أن المقصود هو قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل عليه السلام، وإليه ينتمي الأنصار الأوس والخزرج. احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج٦، تحقيق/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز وآخر، دار الفكر، بيروت، ب.ت، ص٥٣٧.
(٥) إذا كان غالب علماء الأنساب العرب يحصر أصل العرب في عدنان وقحطان، إلا أن بعضهم جعلون أصل العرب ثلاثة، قائلاً:"جميع العرب يرجعون إلي ولد ثلاثة رجال وهم: عدنان، وقحطان، وقضاعة، وقضاعة مختلفاً فيه، فمرة ينسب إلي عدنان، ومرة ينسب إلي قحطان، وليس يرجع العرب إلي غير هؤلاء الثلاثة". ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٧، ١٤.
(٦) عدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليها السلام، ومنه جاء عك ومعد، ومن معد نزار وإياد، ومن نزار مضر وربيعة، ومن مضر خندف إلياس وقيس عيلان، ومن إلياس مدركة وطابخة وقمعة، وإلي مدركة تنتسب قريش؛ ومن قحطان جاء يعرب ويشجب وسبأ وحمير وكهلان وزيد وأدد ومرة والحارث وعدي وعفر وكندة وكل منها، وكل منها تفرق في البلاد وانقسم إلي مجموعات، فمن أشهر

كل منهما العديد من القبائل، وبالرغم من إدراك العرب لحقيقة نسبهم ووحدة أصلهم، إلا أنهم حتى مجئ الإسلام لم يتمكنوا من الاندماج وتكوين شعب واحد، ويرجع ذلك إلي عدم وجود نزعة قومية شاملة لدي عرب الجاهلية، وتفضيلهم الحرية المطلقة علي انقياد بعضهم لبعض(١)، لذا استمر الوعي السياسي لديهم في حدود ضيقة لا يتجاوز حدود القبيلة، بل النظام الملكي الوراثي في اليمن وفي أطراف الجزيرة، كان غريباً عنهم بعيداً عن طبائعهم، لأنه جاء تقليداً للأحباش أو الأكاسرة أو القياصرة(٢).

المبحث الثاني: العصبية القَبَلِيَـــة

العصبية في اللغة: مشتقة من العصب، وهو الطي والشد، وعصب الشئ يعصبه عصباً: أي طواه ولواه وشده، والتعصب: المحاماة والنصرة والمدافعة، العَصَبة: هم الأقارب من جهة الأب، وسموا عصبة لأنهم يعصبون الرجل ويعتصب بهم، أي يحيطون به ويشتد بهم(٣)، لذا يقال علي أقارب الرجل الملازمين له عصبته، وقال الأزهري: عصبة الرجل أولياءه الذكور من ورثته، سموا عصبة لأنهم عصبوا بنسبه، أي استكفوا به(٤)، والعرب تسمي قرابات الرجل: أطرافه، لأنها أحاطت به، وعصبت

ولد عدنان قريش لكون النبيρ منهم، ومن أشهر ولد قحطان الأنصار لأن الله عز وجل أظهر بأيديهم الدين. علي بن احمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٦.

(١) يقول ابن خلدون:"أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك والسبب في ذلك: أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأغني عن حاجات التلول وحبوبها، فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض، لإيلافهم ذلك". ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٢٩٠.

(٢) د/عبداللطيف الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام،ج١، دار الأندلس، بيروت، ب. ت، ص١٢.

(٣) العَصَبة من العُصبة، أي القوة والشدة، قال تعالي:﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوء بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾. سورة القصص، جزء من الآية رقم (٧٦)؛ وتحمل أيضاً معني التجمع والاستقواء علي المشكلات والمُعضلات، قال تعالي:﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾. سورة يوسف، الآية رقم (١٤)؛ كذلك تعني المدافعة والنصرة، ففي الحديث الشريف عن النبيρ أنه قال يوم بدر:"اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض". صحيح مسلم، رقم (١٧٦٣).

(٤) أقارب الرجل من أبيه سموا عصبة لالتفافهم حوله، وشدهم أزره، وتعاونهم معه، فكانوا منه موضع قوة، ودفاع عن الديار وذود عن الحريم. عمر احمد الراوي، مرجع الطلاب في المواريث علي المذهب المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠١٦، ص١٥.

بنسبه، وكل شئ استدار بشئ فقد عُصب به، كالسوار الذي يحيط باليد، والتاج والعمامة والعِصابة التي تلتف حول الرأس(١).

لذلك تواتر تعريف العصبية بما يفيد الاجتماع والترابط والتضامن والتكاتف المؤازرة بين الأقارب، بالإضافة إلي المدافعة ونصرة بعضهم البعض بالقوة والشدة سواء لحق أم لا، فعرفها البعض بأنه:"أن يدعو الرجل إلي نصرة عصبته والتألب معهم، علي من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين"(٢)، الحماية والأمن علاقة تبادلية بين الفرد وقبيلته يحميها وتحميه(٣)، وعرفها البعض بأنها:"النعرة علي ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة"(٤)، وعرفها آخرون بأنها:"التلاحم بالعصب، والالتصاق بالدم، والتكاثر بالنسل، ووفرة العدد، والتفاخر بالغلبة والقوة والتطاول"(٥)، وعرفها الأفغاني قائلاً:"التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلي العصبة، وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته، ويدفعون عنه الضيم والعداء، فالتعصب وصف للنفس الإنسانية، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه، والتعصب روح كلي، مهبطه هيئة الأمة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره، فإذا ألم بأحد المشاعر ما لا تلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي، وجاشت طبيعته لدفعه، فهو لهذا مثار الحمية العامة، ومسعر النعرة الجنسية.. والتعصب يراد منه النعرة علي الجنس، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد، بين الملتحمين بصلة، لمناصرة بعضهم بعضا"(٦).

والعصبِية مصطلح غير العَصَبَة التي هي مصطلح إسلامي، إذ استخدم الفقهاء الأخير عند تناولهم تقسيم الميراث وتوزيع ما تركه المتوفي، وتعددت آراء

(١) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، طبعة دار الجيل، بيروت، ص١٤٨.
(٢) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج١، مرجع سابق، ص٦٠٦.
(٣) احمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١٠، ١٩٦٩، ص١٠.
(٤) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٢٥٦.
(٥) د/ابراهيم سلامة، خُلق ودين "دراسات اجتماعية أخلاقية"، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٥٤، ص ٨١.
(٦) جمال الدين الأفغاني، العروة الوثقي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٧٢-٧٣.

الحنفية[١]، والمالكية[٢]، والشافعية[٣]، والحنابلة[٤]، بشأن مفهوم العَصَبة، لكن كلها تدور حول معني واحد، هو الوارث بغير تقدير، الذي إذا كان معه ذو فرض أخذ ما فضل عنه، قل أو كثر، وإذا انفرد أخذ الكل، وإذا استغرقت الفروض المال كله سقط[٥].

والقَبَلِيَة في اللغة[٦]: هي نسبة إلي القبيلة، وينسب إليها أيضاً فيقال: قبلية، والمعني العام للقبيلة، بنو أب واحد، ويشمل ذلك الأجداد الذين يعلون الأب، فيقال لكل جماعة من الناس تُنسب إلي أب أو جد واحد: قبيلة، أما القبيل فهو مصطلح أعم وأشمل، إذ يطلق علي الجماعة من الناس التي قد تكون من قوم شتي كالزنوج والروم والعرب، وقد يكون من نحو واحد، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة[٧]، التي هي بنو أب واحد، وقد يقال لبني أب واحد أيضاً قبيل، وقد يقتصر القبيل علي عريفهم وسيدهم الذي يتعرف أمورهم[٨].

---

(١) يري الحنفية أن العصبة مصطلح يطلق علي كل من يأخذ جميع المال عند انفراده، وما أبقته الفرائض عند وجود من له الفرض المقدر. عثمان بن علي الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، ج٦، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٣١٣هـ، ص٢٣٧.

(٢) يري المالكية أن التعصيب هو من إذا انفرد حاز جميع المال، أو ما بقي بعد أصحاب الفروض، والتعصيب مؤخر عن أصحاب الفروض، فقد تقرر تأخيره وضعاً. عمر احمد الراوي، مرجع الطلاب في المواريث علي المذهب المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠١٦، ص١٥.

(٣) يري الشافعية أن العصبة قد يكون بنفسه أو بغيره أو مع غيره، وهي تشمل الواحد والمتعدد والذكر والأنثى، ممن ليس له سهم مقدر، من المجمع علي توريثهم، الذي يرث المال المخلف كله إذا لم يكن معه ذو فرض، أو ما فضل بعد الفروض. احمد ابن حجر الهيتمي، تحفة المحتاج علي شرح المنهاج، ج٦، دار الفكر، بيروت، ب.ت، ص٤١٠.

(٤) يري الحنابلة أن العصبة من يرث بغير تقدير لأنه متي لم يكن معه ذو فرض أخذ المال كله، وإن كان معه ذو فرض أخذ الباقي. منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، كشاف القناع، ج١٠، وزارة العدل، الرياض، ١٤٣٠هـ، ص٣٨٢.

(٥) عبدالله بن احمد بن محمد بن قدامة، المغني، ج٦، تحقيق د/ طه محمد الزيني، مكتبة القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٦٩.

(٦) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج ١٠، مرجع سابق، ص٥٠١؛ جبران مسعود، الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٩٢، ص٦١٨.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، مرجع سابق، ص٥٤١.

(٨) قال لبيد:"وقبيل من عُقيل صادق"، وقال الشاعر: أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلي قبيلهم يتوسم. أبو الحسين احمد بن فارس زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج ٤، تحقيق/ عبدالسلام محمد، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩، ص٢٣٣.

ومما لا شك أن الرابطة القائمة علي صلة الدم أقوي الروابط البشرية وادومها، علي مر الحياة الإنسانية منذ خلق الإنسان وحتى يومنا هذا، ومما لا مراء فيه أن هذه الرابطة يكون مفعولها أقوي كلما ضاق مجال رباطها، يقول مالك بن نبي:"فالرابطة القبلية قد ظلت وحدها الوثيقة التي توحد بعض الرجال فيما يشبه وحدة الرسالة"(١).

وبالتالي يمكننا تعريف العصبية القبلية بأنها:"تضامن تلقائي بين قوم يجمع بينهم رابطة نسب حقيقية أو حكمية، علي نصرة بعضهم بعضا في مواجهة من يناوئهم من غيرهم، دون حاجة تبين حقيقة النصرة، فهي واجبة علي البعض نحو البعض حتى لو كانت علي غير حق، وقد أوضح النبيρ حقيقة العصبية القبلية المذمومة والمنهي عنها عندما سأله واثلة بن الأسقع عنها، فأجابهρ قائلاً:"أن تعين قومك علي الظلم"(٢).

والعصبية القبلية هي الصورة الأكثر غلواً واستمراراً من الصور العديدة للعصبية، والتي يصعب حصرها واستجلاءها بدقة، وإن كان يمكننا أن نضرب بعض الأمثلة لها، كعصبية الجنس، أو اللون، أو اللغة، أو المذهب، أو القوم، أو الوطن، أو الإقليم، أو الحي، أو الجنسية، أو الحزب، أو الجماعة... وهكذا(٣)، وبالرغم من تعدد مظاهر العصبية، إلا أن التعصب للدم والنسب ظل متربعاً علي رأس قائمة جميع العصبيات.

ومما ريب فيه أنه لا يوجد تاريخ محدد لنشأة العصبية القبلية، إلا أن المؤكد أنه قبل بزوغ شمس الإسلام كانت العصبية القبلية(٤)، مرضاً من الأمراض المتفشية في

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة/ عبدالصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، ص٢٠.
(٢) سنن أبي داود، رقم (٥١١٩).
(٣) كان نافع بن جبير إذا مرت به جنازة قال: من هذا؟ فإذا قالوا قرشي، قال: وا قوماه! وإذ قالو: عربي، قال: وا بلدتاه!". احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٣٦٠.
(٤) مصطلح "عصبية" شائع الاستعمال في العصر الجاهلي، وكان مدعاة لإشاعة الفتنة وإشعال نار الحرب بين القبائل، دون نظر إلي غاية هذه العصبية، فالتناصر القبلي قائم حتى لو لم يكن الهدف الحصول علي حق أو إنصاف مظلوم، وحتى لو كان معلوماً أنه يؤدي إلي مؤازرة مستغيث معتدي ظالم. د/ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون "العصبية والدولة"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦، ١٩٩٤، ص١٦٦.

المجتمع العربي[١]، إذ كان المجتمع الجاهلي يسوده الظلم ويسيطر عليه الضلال، فكان الرجل يدعي إلي نصرة عصبته والتآلب معهم علي من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين[٢]، فهو مع جماعته في كل الأحوال والأوضاع، دون أن يسأل عن سبب ذلك أو غايته، إذ لم تمنح الأعراف القبيلة هذا الحق [٣]، بل أن أطفالهم وصبيانهم كانوا ينشئون ممتزجون بالفخر بعصبيتهم آباءً وأجدادا[٤].

فقد صلت العصبية في مجتمع الجاهلية إلي درجة عالية من الشطط والغلو لم تصل إليها في مجتمع آخر، حتى أنها فرقت بين المجتمع الواحد في الشعائر الدينية[٥]، فقد رأت بيوت لنفسها فضلاً علي غيرها، وتمسك بعض الأفراد بسمو العرق وعلو الطبقة، ورفضوا مشاركة الآخرين في عادات كثيرة، ففي أداء مناسك الحج، كانوا يتقدمون علي الآخرين ويتصدرون في الإفاضة والإجازة رافضين المساواة مع من دونهم

(١) سيد نظير الحسن الجيلاني، العصبية في نظر الإسلام، مجلة ندوة الطالب، العدد(١٢)، جامعة أم القري، مكة المكرمة، ١٩٩٣، ص١٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٥مرجع سابق، ص٦٠٦.

(٣) عبر الشاعر عن العصبية القبيلة قائلاً: لا يسألون أخاهم حين يندبهم .. في النائبات علي ما قال برهانا. أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص١١.

(٤) كان شبة الحمد بن هاشم (عبدالمطلب) وهو ابن سبع سنين يرمي مع صبيان يثرب، فلما تمكن من إصابة هدفه، صاح فيهم قائلاً: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء، بالرغم من أن أباه مات قبل مولده، وبالرغم من أنه لم يري مكة قبل ذلك. احمد بن يحيي البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، تحقيق د/ محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ب . ت، ص١١٨.

(٥) يري البعض أنه لا يزال بين البدو حتى الآن بقية يدينون بدين أسلافهم. محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج١، دار خضر للطباعة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ص٨٣.

ولو في الأحكام الشرعية[١]، ولا يقفون في عرفات بسبب سمو شرفهم وعلو مكانتهم علي الآخرين[٢].

ولما كان الإسلام لم يأت لهدم كل ما كان قبله، وإنما ليحق الحق ويبطل الباطل، ولم تكن جميع عادات العرب وتقاليدهم ومعاملاتهم سيئة، لذا ظلت العصبية موجودة بعد الإسلام، لكن بعد تهذبها وكبح جماحها والتضييق منها، بإقرار جوانبها الإيجابية والنهي عن جوانبها السلبية، وبعد صرف معناه من الدلالة علي التنازع والفرقة والتفاخر بالأحساب والأنساب[٣]، إلي الدعوة إلي الوحدة الدينية والتآخي والتآلف والنصرة علي الحق دون الباطل، فقال النبيρ:"انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يارسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه"[٤].

والإسلام في سبيل التحول الفكري وتغيير المفاهيم والعقائد المستقرة في وجدان العرب، اتبع اسلوب التدرج والأناة في القضاء علي مساوئ الجاهلية ومنها العصبية القبلية، وبث القيم التي تعزيزها العقيدة الإسلامية وإهمال الروابط العرقية، ففي البداية وأعلن النبيρ أنه من قال: لا اله إلا الله وآمن بما نزل علي نبيه، دخل في أسرة واحدة

(١) من هؤلاء جبلة بن ألأيهم بن جبلة، الملك السادس والثلاثون للغساسنة، الذي كان نصرانياً تابعاً للروم، فكتب إليه رسول اللهε كتاباً يدعوه فيه للإسلام، فأسلم، وفي خلافة عمر بن الخطاب قصد الحج، فوطء رداء رجل من مزينة بدمشق، فلطمه المزني، فدفعه أصحاب جبلة إلي أبي عبيدة وقالوا هذا لطم جبلة، فقال أبو عبيدة: فيلطمه جبلة. قالوا: أو ما يقتل؟ قال:لا. قالوا: فما تقطع يده؟ قال: لا، إنما أمر الله بالقود. فقال جبلة: أترون أني جاعل وجهي بدلاً لوجه مازني؟ بئس الدين هذا. ثم ارتد نصرانيا وارتحل بأهله إلي أرض الروم. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، مرجع سابق، ص٦٩.

(٢) سيد نظير الحسن الجيلاني، العصبية في نظر الإسلام، مجلة ندوة الطالب، العدد(١٢)، جامعة أم القري، مكة المكرمة، ١٩٩٣، ص١٣.

(٣) ذلك أن الفخر بالنسب، الذي كان يؤمن به العرب إيماناً شديداً، هو ما جعل المواقف تشتد والصراع يتفاقم بينهم. د/ ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٨١؛ وقد أشار العلماء إلي حالات تفاخر بالنسب حدثت بعد الإسلام منها المفاخرة بين الأبرش الكلبي وخالد بن صفوان في مجلس هشام بن عبدالملك، قال الأبرش: لنا ربع البيت . أي الركن اليماني . ومنا حاتم طئ ومنا المهلب بن أبي صفرة، قال خالد: منا النبي المرسل، وفينا الكتاب المنزل، ولنا الخليفة المؤمل، قال الأبرش: لا فاخرت مضرياً بعدك. ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٨٤.

(٤) صحيح البخاري، رقم(٢٤٤٤).

كبيرة، هي الأسرة الإسلامية، التي تقوم علي رابطة الأخوة في الدين، لا فضل فيها لأحد علي الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، فقالρ:"يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم علي الله تعالي ورجل قاصر شقي هين علي الله تعالي"(١).

ثم أوضحρ أنه لا ينبغي التفاخر بالحسب والنسب، لأن الناس جميعاً ينتسبون إلي أب واحد هو آدمυ، وأن القبيلة مجرد وعاء اجتماعي لتنظيم التواصل والتعارف بين الناس وليس موضوعاً للافتخار، ومن أراد أن يكون له فضل فعليه تقوي الله والتمسك بشريعته، فقالρ:"إن أنسابكم هذه ليست لمنسبة علي أحد كلكم بنو آدم طف الصاع لم يمنعوه ليس لأحد علي أحد فضل إلا بدين وتقوي"(٢)، وبعد أن بين لهم وأعلمهم أن الناس جميعاً ينتسبون أصل واحد، حذرهم من أن التفاخر بالأجداد والآباء الأقربون من شأنه تدني المنزلة والخذلان وهوان المكانة عند اللهY، فقالρ:"كلكم بنو آدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون علي الله تعالي من الجعلان"(٣).

ولما كانت مبادئ الإسلام توجب التعاون علي البر والتقوى وحظر التناصر علي الباطل(٤)، رأيρ أن في العصبية القبلية امتداداً للأفكار والمعتقدات الجاهلية، التي تؤدي إلي التحيز الأعمى لفئة معينة، وبالتالي النزاع والاقتتال وتفرقة الصفوف وتفتيت الجهود(٥)، وهذا كله يخالف مبادئ الإسلامية الغراء، لذا قررρ سد كل نوافذ العصبية واقتلاعها من جذورها، فأعلن بشكل صريح وقاطع براءة الإسلام من كل

(١) سنن الترمذي، رقم(٣٢٧٠)، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث،ج١، تحقيق/ طاهر احمد الزوي وآخر، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ب. ت، ص٥٨٧.
(٢) مسند الإمام احمد، رقم (١٧٤٤).
(٣) سنن الترمذي، رقم (٣٩٥٥).
(٤) عثمان بن علي الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، ج٥، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٣١٣هـ، ص١٨٠.
(٥) قال تعالي:﴿إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. سورة الأنفال، جزء من الآية رقم (١٦).

شخص يدعوا إليها أو يتمسك بمظهر من مظاهرها، فقالρ:"ليس منا من دعا إلي عصبية وليس منا من قاتل علي عصبية وليس منا من مات علي عصبية"(١).

بذلك أبطل الإسلام العصبيات القديمة، وأحل محلها الإخوة في الدين، فأصبحت العصبية التحاماً ينصهر فيه جميع أفرد الجماعة، وتحولت عصبية النسب إلي عصبية جماعية(٢)، التي تهدف إلي تحقيق التضامن والوحدة بين جماعة المسلمين، ومناصرة المسلمين لإخوانهم المستضعفين، إذا ما تعرضوا لاعتداء أو بغي من غير مسلم، ليس بينه وبين المسلمين عهد أو ميثاق، فالإسلام لا يري في الأصل أو العرق أو اللغة أو اللون أساساً للاجتماع أو الاختلاف، وإنما يتمحور الاجتماع في مبادئه حول الإيمان بالعقيدة الغراء، قال تعالي:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٣)، وقالρ:"المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره"(٤).

وقد حاول بعض العلماء المقاربة بين مفهوم العَصَبة والعصبية، قائلاً:"واختص التعصيب بالذكور غالباً لأنهم أهل الشدة والنصرة"(٥)، وبناء علي هذا جُعلت المرأة عَصبة حكماً في مجال الإرث وحده، إذ لا تستطيع أن تنتصر لقومها وأهلها، قائلاً:"والأنثى ليست بعصبة حقيقة لأن العَصَبة إنما سُمي عصبة لقوته ولحصول التناصر به، ولا يحصل التناصر بالأنثى، وإنما صرن تبعاً أو حكماً في حق الإرث فقط"(٦).

(١) سنن أبي داود، رقم (٥١٢١).
(٢) عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة/ محمد الشريف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٨، ص١٥١.
(٣) سورة الحجرات، جزء من الآية رقم (١٠).
(٤) صحيح مسلم، رقم (٢٥٦٤).
(٥) منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، كشاف القناع، ج١٠، وزارة العدل، الرياض، ١٤٣٠هـ، ص٣٨٢.
(٦) عثمان بن علي الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، ج٦، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٣١٣هـ، ص٢٣٨.

أما علماء الاجتماع فقد انطلقوا من مفهوم التعصب في لغة العرب الذي يعني التجمع والاشتداد، والعُصبة تعني الجماعة القوية[١]، فعَصَبة الرجل بنوه وأقاربه الذين يجتمعون حوله ويلازمونه ويتعصبون له وينصرونه[٢]، وقرروا بأن مفهوم العَصَبة لا يقوم إلا إذا توافر دعامتين أساسين معاً، الأول: القرابة، والثاني: اقتران القرابة بالملازمة، فالقرابة والملازمة عنصران ضروريان لوجود العصبة[٣]، وبهذا تكون العصبة في علم الاجتماع جماعة دائمة وليست مؤقتة، تتشكل تلقائياً دون أن تعتمد في نشأتها علي عامل أو دافع خارجي، وتبقي مستمرة باستمرار وجود هؤلاء الأفراد واستمرار تناسلهم، فجميع أفراد الجماعة الذين توافر بشأنهم الأساسين معاً، يشكلون وحدة اجتماعية واحدة، سواء الحاضرين منهم أو الغائبين، الأحياء أو الأموات[٤].

فالعصبة وإن كانت رابطة تتجسد في أقارب الشخص الذي يلازمونه ويتعصبون له عندما يوجد ما يدعو للتعصب، إلا أنها لا تعني التجمع الحسي وحسب، بل تعني التجمع المعنوي أيضاً، أي شعور الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من العصبة التي ينتمي إليها، وأنه يمثل معها كيان واحد، بما يجعل الفرد علي استعداد دائم لتجسيد هذا الانتماء، بفقدان شخصيته وفرديته وفناء نفسه وماله فيها فناءً كلياً، وفي الغالب يكون

---

(١) قال تعالي:﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوء بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾. سورة القصص، جزء من الآية رقم (٧٦).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١، مرجع سابق، ص٦٠٥؛ د/ احمد مختار، اللغة العربية المعاصرة، ج١، عالم الكتب، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص١٥٠٥.

(٣) إذا فقد أحد دعائم العصبة انفضت الرابطة وقضي عليها، فقد أتي عليها من قواعدها، من ذلك قيام القبيلة بخلع أحد أفرادها وطرده، فإن هذا المخلوع تنتفي عنه صلة القرابة، وبالتالي لا يصبح عصبة مع باقي أفراد القبيلة، ولا تتناصر له إذا تعرض للاعتداء أو بغي عليه، كذلك يمكن لجانب من القبيلة الانشقاق والانفصال عنها، وتكوين جماعة جديدة مستقلة عن الجماعة الأم، فيكون للجماعة الجديدة كيانها المستقل وشخصيتها المتميزة، ولا تكون عصبة مع الجماعة الأولي، لفقدان الاجتماع الدائم.

(٤) ذلك أن الرابطة بينهم رابطة دموية سيكولوجية تتعدي المكان، فقد يكون الأفراد الذين تتكون منهم العصبة متباعدين في المكان، تفصل بينهم مسافات بعيده، وكذلك تتعدي حدود الزمان، فأفراد الجماعة الذين ماتوا والموجودين الآن والذين سيولدون في المستقل يشكلون وحدة واحدة. د/ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون "العصبية والدولة"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦، ١٩٩٤، ص١٦٧-١٦٨.

هذا الشعور في الأحوال العادية كامناً، يطغي عليه الفردية والاستقلالية، بحيث يمارس حياته وحقوقه كاملة بالمساواة مع أقرانه داخل الجماعة، لكن ذلك لا يعني انعدام الشعور الجمعي أو فقدانه في هذه الحالة، لأنه شعور فطري لصيق بأفراد المجتمع القبلي، لكنه في هذا الوضع غير مستثار وغير نشط، إذ أن المحفز للشعور الجمعي غير موجود.

لكن إذا توافر المستثير كحدوث اعتداء أو تهديد بخطر خارجي، من شأنه تهديد العصبة أو النيل من كيانها المادي أو المعنوي، عم الشعور العصبي كل أفراد الجماعة واستشاط، وظهر في أوضح صورة وأجلاها، وتحول فوراً بلا تفكير أو تدبير أو تخطيط من الحالة الكامنة إلي الحالة الحادة، فيشد أفراد الجماعة بعضهم بعضا ويتعاضدون، بحيث يتكون منهم جميعاً كائناً واحداً، تفني فيه ذوات جميع الأفراد، وهو العصبية(١).

فقد ذهب علماء الاجتماع إلي أن العصبة تقوم داخل الجماعة وخارجها علي "الأنانة"، فكل فرد له "أناه الخاصة" وشخصيته المتميزة المستقلة عن باقي أفراد الجماعة، وهي الشعور الذي يتقمص الفرد عندما يُصاب بأذى أو يلحقه مكروه، سواء كان مصدره داخل الجماعة أو خارجها، فإذا كان مصدر الأذى خارجي فأن الأنا الخاصة تندمج مع أنا الجماعة، وتتكون"أنا" واحدة هي "الأنا العامة" للجماعة كلها، التي تضم مجموع "الأنا" لكل أفراد الجماعة(٢)، ونشاط "الأنا" العصبي سواء باعتباره يمثل شخصية أحد أفراد الجماعة أو باعتباره يمثل شخصية الجماعة ككل، هو الذي يطلق عليه مصطلح "العصبية"(٣)، أي أن تناصر الفرد لنفسه داخل جماعته للحصول علي الحقوق والمزايا يكون بالعصبة، بينما تناصر الفرد خارج الجماعة سواء لنفسه أو

(١) د/ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون "العصبية والدولة"، المرجع السابق، ص١٦٧-١٦٨.
(٢) يصفها ابن خلدون، قائلاً:"عصبية غالبة لعصبياتهم". ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٦١.
(٣) د/ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون "العصبية والدولة"، مرجع سابق، ص١٧٠.

لجماعته محركه العصبية، فالعصبية هي روح الحيوي للعصبة ومحركها الخارجي[١]، لذا قرن ابن خلدون العصبية بكلمات تدل علي القوة والقدرة علي المواجهة مثل الغلب، والتناصر، والتعاضد، والالتحام، سواء حالة المطالبة أو المدافعة[٢].

فالعصبية إذن تعني رابطة اجتماعية وسيكولوجية، شعورية ولا شعورية معاً، تربط أفراد جماعة، بينهم صلة قرابة، رابطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد الأفراد، كأفراد أو كجماعة[٣]، ولما كانت العصبية نشاط يتمثل في سلوك وممارسة، وكانت العصبية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقبيلة، لذلك نسب إليها ونعتت به، فأطلق عليها العصبية القبلية.

وقد نتج عن العصبية أمران حددا شكل العلاقات الخارجية لهذه الجماعة، الأول قيام هذا النوع من المجتمعات علي تواصل ضيق ومحدود، غالباً لا يتجاوز النطاق الجغرافي والبشري للجماعة ـ ذلك أن المجتمع البدوي مكتفي بذاته عن غيره، ولا يعرف وسيلة للتواصل غير التواصل المباشر وجها لوجه ـ مما جعل نظرة سلبية وعدائية تجاه ما هو أجنبي عنه، فأعضاء القبيلة ينظرون إلي كل فرد غريب عنها علي أنه مجهول يجب الحذر منه، وفي المقابل التعاون والتلاحم بين أفراد الجماعة الواحدة، فيتضامن الفرد مع أفراد عصبته، ويولع بأن يضيف إلي اسمه سلسلة نسبة[٤].

الثاني عدم معرفة العرب الولاء لسلطان أو الانتساب لمدينة إلا في القرن الثاني الهجري[٥]، فكانت هوية العربي بالنسبة لخارج قبيلته، لا تتحدد بمن أنت؟ وإنما بإبن من أنت؟ أو إلي أي مدينة تنتمي؟ وباختصار شديد انتسب؟ ففي المجتمع القبلي لا يعرف الفرد بصفاته المميزة أو شخصيته الذاتية، بقدر ما يعرف بذويه قبيلته

(١) بوزياني الدارجي، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط١، ٢٠٠٣، ص١٨.
(٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٥٤-٢٦١.
(٣) د/ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون "العصبية والدولة"، مرجع سابق، ص١٦٨.
(٤) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٣.
(٥) السياسة الشرعية، جامعة المدينة المنورة العالمية، ٢٠٠٩، ص٥٠.

وعشيرته[١]، فيُعرف بانتسابه إلي عصبة أو قبيلة معينة[٢]، لذا حالت العصبية دون تفرق القبيلة وتشتتها، وكانت العلاقات الخارجية القبلية بين الجماعات، حتى لو قام بها فرد واحد من الجماعة بدافع من قناعته الخاصة الذاتية.

تتميز العصبية القبلية بأنها لا تسمح بقيام فوارق كبيرة داخل الجماعة، إذ قلما يستطيع الفرد تحصيل مصالح شخصية ذاتية داخل العصبة، فأي خير يناله الفرد وأي منفعة يحققها تضاف إلي رصيد القبيلة، التي تعتبره ملكاً لها، تستغله وتتصرف فيه كما لو كان الجميع شارك في الحصول عليه، في المقابل المتاعب التي يتعرض لها الفرد والأذى الذي يلحقه والخطر الذي يهدده، تعتبره القبيلة ضرراً لها واعتداء عليها، تنهض لمنعه وتتضامن في درأه، فالحقوق والالتزامات الخارجية جماعية، وخير دليل علي ذلك أنه عندما قتل أحد أفراد قبيلة مُرة فرد قبيلة بني تغلب، عرضت الثانية علي الأولي، الاختيار بين أحد ثلاث ليتجنبوا الثأر الحرب بينهم، هي إما أن يسلموا القاتل لهم ليقتلوه، وإما أن يُسلموهم شخصاً آخر يكافئ القتيل في المكانة ليقتصوا منه، كوالد القاتل أو أخيه متي كانوا في نفس المنزلة الاجتماعية القاتل، ولما رفضت مرة هذا

(١) من ذلك أن ورد بن حابس التغلبي العبسي قتل هرم بن ضمضم المزني، فحلف أخوه حصين بن ضمضم ألا يغتسل حتى يقتل رجلاً من بني تغلب من عبس، فأقبل رجل من بني عبس حتى نزل بحصين بن ضمضم، فقال له: ممن أنت انتسب أيها الرجل؟ فقال: عبسي، قال: من أي عبس؟ فلم يزل ينتسب حتى انتسب إلي بني غالب، فقتله حصين. محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهلية، دار المعارف، القاهرة، ب.ت، ص٢٣٦.

(٢) من ذلك أن أنه لما أمر الله تعالي رسولهρ أن يعرض نفسه علي قبائل العرب خرج ومعه أبو بكرτ إلي مجلس من مجالس العربي، فتقدم أبو بكر وكان رجلاً نسابة، فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: وأي ربيعة أنتم أمن هامتها أم من لهازمها؟ قالوا من الهامة العظمي، ثم قام فتي منهم، وقال يا هذا انك سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئاً، فممن الرجل؟ قال أبو بكر: من قريش، فقال: بخ بخ أهل الشرف والرئاسة! فمن أي القرشين أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة، ثم انتقلا إلي مجلس آخر عليه السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة، فقال أبو بكر للرسول ρ بأب وأمي! هؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ بين قبيصة والمثني بن حارثة والنعمان بن شريك، ثم قال: قد بلغكم أنه رسولρ ألا هو ذا، فقال مفروق إلي ما تدعو يا أخا قريش، فقال ρ: أدعوكم إلي شهادة أن لا اله إلا الله وحده وأن محمداً عبد ورسوله وإلي أن تؤوني وتنصروني فإن قريش قد ظاهرت علي أمر الله وكذبت رسله". السمعاني، الأنساب، مرجع سابق، ص٦٤-٦٦.

العرض نشبت حرب دروس بين القبيلتين عرفت بحرب البسوس، استمرت حوالي أربعون عاماً[١].

والعصبية القبلية تعادل بل تجاوز عند العرب قديماً، مضمون الشعور القومي عند شعب من الشعوب في وقتنا الحاضر[٢]، ولما كانت العصبية في القبيلة تحمل معني الشعب في الدول الحديثة، لذا كانت العصبية المصدر الأساسي للقوة السياسية، وهي التي تقود شخص ما إلي نفوذ أدبي ومادي عظيم، وتمنحه الزعامة والتربع علي عرش الرئاسة، ذلك أن أصحاب الأنساب الخاصة المتسلسلين للأصل دون انقطاع، أقرب للزعامة من أصحاب الأنساب العامة، إذ كلما قرب النسب كلما اشتدت العصبة وقويت لقرب اللحمة، يقول ابن خلدون:"لما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوي من سائر العصائب، ليقع الغلب منها وتتم الرئاسة لأهلها، ذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية، فلابد في الرئاسة علي القوم، أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم"[٣].

والعصبية ظاهرة عامة لازمة لجميع الأنشطة، التي يُحمل جمهور الناس عليها سواء الدينية والدنيوية، فالدعوة إلي شرع الله لا يتمكن المكلف بها من الاستمرار في نشرها، إلا إذا كان القائم عليها ذا حسب في قومه، مؤيداً بقوة مادية تشد عضده وتمنعه، حتى يتم مراد الله من اكتمال دينه ونشر ملته، يقول ابن خلدون:"إن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، وهذا ما قدمناه من أن كل تحمل عليه الكافة فلابد له من العصبية، وفي الحديث الصحيح ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه[٤]، وهكذا

(١) ابراهيم شمس الدين، مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ٢٠٠٢، ص٢٥.
(٢) د/السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة،١٩٩٩، ص ٣٥٩.
(٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٦٠-٢٦١.
(٤) عن أبي هريرة أن النبيρ قال:"ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه"، وفي قول آخر:"إلا في ذروة من قومه". سنن الترمذي، رقم (٥١٢٠)؛ المستدرك علي الصحيحين، رقم (٤١٠٨)؛ سنن الترمذي، رقم (٥١١٩).

كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلي الله بالعشائر و العصائب وهم المؤيدون من الله، وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أول الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية"(١).

وأيد البعض ما ذهب إليه ابن خلدون من أن المناصب العليا لا يمكن أن يتقلدها أو يرتقيها إلا شخص ذا عصبية قاهرة، وقوة نسبية تعضده وتنصره علي أمره، يقول ابن الأزرق:"حصول الملك أولاً متوقف علي التغلب عليه بقهر من ينافس فيه، والتغلب من حيث هو كذلك، متوقف علي العصبية لما فيها من النعرة الحاملة علي التعاضد"(٢)، والتعاضد الموصل إلي الرئاسة في بدء الأمر، لا يكون إلا بعصبة الشخص وقوة ذويه، فصاحب الدولة إنما يتم أمره بقومه، فهم عصابته وظهراؤه علي شأنه"(٣).

كذلك جميع الكيانات الاجتماعية والأنظمة السياسية مهما كان شكها أو صورتها، يلازمها نوع من العصبية في تكوينها، إذ بدأت العصبية عند الناس في الأسرة، ثم العشيرة، ثم القبيلة، ثم القوم والشعب، ثم العنصر، ثم الجنس، ثم الدين، إذ يتوقف مدي تغلغل العصبية علي مدي تقدم وتطور الجماعة، فالدولة تعتمد في نشأتها وقيامها وتثبيت أركانها علي العصبية، يقول ابن خلدون:"أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية"(٤)، لأنه لا يمكن إرغام الناس علي الانصياع لأوامر السلطة، والاعتياد علي نظم مختلفة لم يألفوها، والتحول من الحرية المطلقة إلي السلوك المنظم، ومن تحكيم العقل الفردي إلي الانقياد للرأي الأغلبية، إلا بقوة جبر تتمثل في العصبية، يقول ابن خلدون:"أن الدولة العامة في أولها يصعب علي النفوس

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٣١٩.
(٢) أبي عبدالله ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، تحقيق د/ علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨، ص ١٠٦.
(٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٣٠٩، ٣٥٣.
(٤) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للقرابة، وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه"[١]، وشايع ابن الأزرق ضرورة توافر القوة المادية لحمل الناس علي طاعة الرؤساء، قائلاً:"شأن كل أمر لا يتم حمل الناس عليه إلا بالسيف والسنان، لما في طباعهم من استعصاء وصعوبة الانقياد"[٢].

والعصبية ضرورية في المراحل التالية علي الحصول علي الزعامة، فهي لأزمة لاستقرار الحكم واستمرار العرش في فصيل معين، وضمان الطاعة والولاء له دون معارضة أو مناوأة، يقول ابن خلدون:"إذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر، نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم علي أمرهم قتالهم علي العقائد الإيمانية"[٣]، وبرر صاحب بدائع السلك الانقياد والطاعة للحاكم اختياراً أو جبراً، بأن صاحب العصبية إذا بلغ الرئاسة والسلطان صار متبوعاً تجب طاعته اختياراً، وإلا لجأ إلي القهر والتغلب تحصيلاً لغايته[٤].

والعصبية لا تقتصر أهميتها علي مرحلة تأسيس الدولة، وإنما هي دعامة أساسية في ارتفاع شأنها واتساع الرقعة التي تسيطر عليها، يقول ابن خلدون:"أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها يعتمد علي نسبة القائمين بها في القلة والكثرة، والسبب في ذلك أن المُلك إنما يكون بالعصبية، فأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها، فمتي كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصبتها أكثر، كانت أقوي وأكثر ممالك وأوطاناً، وكان ملكها أوسع، ومنهم يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أمواله لأنهم أعوانه علي الغلبة شركاؤه في الأمر، ومساهموه في سائر مهماته.. لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة واجتماع الأيدي علي العمل بالتعاون فيه، فإذا

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، المرجع السابق، ص٣٠٩، ٣٥٣.
(٢) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص١٠٧.
(٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٣٠٩، ٣٥٣.
(٤) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص ١٠٧.

كانت الدولة عظيمة فسيحة وكان الفعلة كثيرين، وحشروا في آفاق الدولة وأقطارها، تم العمل علي أعظم هياكله"[١]، فإن لم يكن لدي الدولة العصبية الكافية للسيطرة علي ثغورها وإدارة شئونها، كان ذلك سبباً يهدد بقاء الدولة وانهيار نظمها، يقول ابن الأزرق:"كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها، فإن تكلفت بعد ذلك زيادة عليه بقي دون حامية، وعاد وبال ذلك علي الدولة، لأن الملك لما كان بالعصبية، وأهلها هم الحامية النازلون بأقطارها، كان أكثر في أهل العصبية أعداداً"[٢].

فقد ربط علماء العرب بين بقاء أي تنظيم اجتماعي أو سياسي وبين بقاء رابطة العصبية قوية متينة، فهما عنصران متلازمان بينهما علاقة طردية[٣]، فإذا قوية العصبية استقرت السلطة وثبتت، وإذا وهن هذا الشعور في أي جماعة تفككت واندثرت، يقول جمال الدين الأفغاني:"كلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم، استرخت الأعصاب، ورثت الأطناب، ورقت الأوتار، وتداعي بناء الأمة إلي الانحلال كما يتداعي بناء البنية البدنية إلي الفناء، بعد هذا يموت الروح الكلي، وتبطل هيئة الأمة، وإن بقيت آحادها، فما هي إلا أجزاء متناثرة، إما أن تتصل بأبدان أخري وإما أن تبقي في قبضة الموت، سنة الله في خلقه، إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم الله بالفشل"[٤]، ويقول ابن خلدون:"العصبية التي بها التغلب، وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة، والتهمتهم

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٣٢٤-٣٥٣.
(٢) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص ١٠٨، ١٢١.
(٣) ذكر البعض حالتين استثنائيتين يتم فيهم الملك دون العصبية القبلية، أولها: أهل النصاب الملكي قد تحدث لهم دولة بغير عصبية استغناءً عنها، بشرطين: أن يكون لعصبيته غلب كثير علي الأمم والأجيال وأن يكون في نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية إذعان إليه وانقياد، فمتي نزع إليهم هذا الخارج، مستبداً عن مقر ملكه ومستتب عزه، اشتملوا عليه وقاموا بأمره رجاء استقراره في منصبه، لما استحكم له ولقومه من صبغة الملك الظاهر في الأرض والمستقر لهم من عقيدة الإيمان بوجوب الطاعة لهم، ثانيها: أول ملك وضع في الأرض وهو "كيومرث" ابن آدمU، ساروا إليه الناس وعرفوه حاجتهم إلي ملك قيم، وقالوا له: أنت أكبرنا وأشرفنا وبقية أبينا وليس في العصر من يوازيك، فأضم أمرنا إليك وكن القائم فينا، فإننا سمعك وطاعتك، والقائلون بما تراه فأجابهم إلي ما دعوه إليه. ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص١٠٦،١٠٩.
(٤) جمال الدين الأفغاني، العروة الوثقي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٧٣.

الأمم سواهم"[١]، وساق ابن الأزرق عدد من الأمثلة العملية علي ذلك، قائلاً:"دولة بني العباس لما فسدت عصبيتها تغلب العجم علي النواحي إلي أن جاء التتار فمحوا رسوم الدولة ونسخوها، ودولة صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو قبلها، فجاء الموحدون أولو العصبية القوية في المصامدة فمحوا آثارهم، ودولة الأموية الأندلس لما فسدت عصبيتها استولي عليها ملوك الطوائف واقتسموا خطتها، إلي أن دخل إليهم المرابطون ذوو العصبية القوية فاستنزلوهم ومحو آثارهم، ولم يقدروا علي مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم"[٢].

وإذا كانت الدولة وهي قمة تطور التنظيم السياسي، والذي لم يحبذه معظم أهل الجزيرة العربية حتى شروق شمس الإسلام ـ إذ كان العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك، بسبب عمق بداوتهم من سائر الأمم[٣]ـ فقد فضلوا التجمع السياسي في شكل قبائل مستقلة، وحل النظام القبلي في نفوسهم محل الدولة، وحلت رابطة العصبية محل رابطة الوطنية والقومية معاً، والعصبية في الفكر العربي عصبية عددية[٤]، قائمة علي كثرة عدد أفراد الجماعة ووفرتهم، يقول غيلان بن سلمه الثقفي:"لابد للسؤدد من عديد"، وهو ما أكده ابن خلدون قائلاً:"العصبية إنما هي بكثرة العدد ووفوره"[٥]، ابن عبد البر بقوله:"لا سؤدد إلا بالعدد"[٦].

ولما كانت العصبية القبلية هي أساس النظام الاجتماعي العربي في حقبة الجاهلية، فهي الرابط الجامع بين جميع عرب الجاهلية[٧]، وكان النظام السياسي وليد

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٧٤.
(٢) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص ١٠٨.
(٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٢٩٠.
(٤) يقول الشاعر قريط بن أنيف العنبري: لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد.. ليسوا من الشر في شئ وإن هانا؛ ويقول عمرو بن كلثوم: ملأنا البر حتى ضاق عنا .. ونحن البحر نملؤه سفينا.
(٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، المرجع السابق، ص ٣٢٥.
(٦) يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ج١، تحقيق/ محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت، ص٦١٢.
(٧) د/ ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٨١.

رحم النظام الاجتماعي، وكانت العصبية هي البروتوبلازم[١] الذي يبني حوله كل الأبنية الاجتماعية والسياسية[٢]، وبدون العصبية تفقد القبيلة حيويتها وتأثيراتها، وفي نفس الوقت كانت الغاية التي تجري إليها العصبية هي الوصول لعظم المنزلة ومنتهي الجاه والشرف[٣]، بالحصول علي المُلك والتربع علي العرش، فالعصبية تجري نحو الملك، لأنه غاية لها، فهذا لا يتحقق إلا بواسطة القوة والغلبة[٤]، لذا كان ناخبي هذا المجتمع لا يصوتون لبرنامج سياسي، بل يدعمون رجلهم الكبير، لما يعود علي عشيرته من منافع مالية وعوائد أدبية من توليه مشيخة القبيلة.

لذا لعبت العصبية الدور الرئيسي في النظام السياسي القبلي، ويظهر هذا الدور جلياً في تحديد الشخص الذي يتولي الإشراف عليها وإدارة شئونها، فجرت عادة العرب علي اختيار رئيس القبيلة من بين رؤساء العشائر ذات العصبيات الكبرى، يقول ابن خلدون:"الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية، فلابد في الرئاسة علي القوم، أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلبة عصبية الرئيس لهم، أقروا بالإذعان والإتباع، ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبية النصاب أقوي من سائر العصائب، ليقع الغلب منها، وتتم الرئاسة لأهلها"[٥]، والعصبية لا يقتصر دورها علي رئاسة

(١) البروتوبلازم هو مادة الحياة الموجودة في الخلية، التي تقوم بجميع متطلبات الكائن الحي وتمنحه القدرة علي البقاء والاستمرار .

(٢) Arnold Toynbee, A study of History, V١١١- Oxford University Press, London, ١٩٤٨, p٢٤١.

(٣) كان الأفراد في المجتمع الجاهلي يصنفون علي أساس الجاه، والمنصب، والنسب، والحسب، والسيادة، والريادة، والقدرة، والمنزلة، دون أي وزن حقيقي لإنسانيته، وصلاحه، وخُلقه الحسن، وتعامله السوي مع الآخرين. د/خالد بن عبدالرحمن الجريسي، العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، مرجع سابق، ص١٩.

(٤) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

(٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٢٦٠-٢٦١.

القبيلة، بل تشمل كل من يساهم في إدارة شئونها سواء رئيسها أو مجلسها، لذا قيل أن الحكومة القبلية كانت رئاسة بالعصبية[١].

(١) د/عمر فروخ، العرب تاريخ الأدب العربي، ج١، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١، ص٦٦.

الفصل الثاني: شـيخ القبيـلة

اعتادت الكتابات القديمة والحديثة الإشارة إلي الأدوار السياسية البارزة التي تؤديها الأجهزة والأشخاص الذين ينشئون ويفسرون ويطبقون القواعد والأحكام الملزمة لأعضاء المجتمع، إذ أن الحياة السياسية في أي مجتمع إنساني تسند إلي ظاهرة انقسام المجتمع إلي حكام ومحكومين، ولا يشترك لذلك وجود هيئات حكومية في المجتمع، ذلك أن هذه المؤسسات لا تظهر في المجتمع إلا بعد تطور طويل، أما في مراحله الأولي فتتجسد السلطة السياسية في وجود شخص يحظي بالاحترام من أفراد الجماعة يكون له عليهم حث الاحترام والطاعة، هذا الشخص هو الحاكم الذي قد يكون زعيماً أو رئيساً أو شيخاً.

لذلك تناول الكتاب والمؤرخين شيخ القبيلة وسيدها باعتباره محور النظام القبلي، إذ كانت الحياة السياسية كلها قائمة علي القبيلة وسلطة رئيسها(١)، يلعب فيها الزعيم الدور الأساسي، فهو رمز القبيلة ومظهرها في علاقاتها الداخلية والخارجية، فهو يسوس أمورها الداخلية بين أفرادها، ويدبر شئونها الخارجية مع غيرها من القبائل، لذلك يلزم أن يتوافر فيه بعض العناصر الشخصية والموضوعية التي تجعله قادراً علي القيام بهذا الدور.

وتشريفاً لرؤساء القبيلة وتعظيماً لمنزلتهم ومكانتهم، حمل بعض هؤلاء القادة وبصفة خاصة العظام منهم، ألقاب التبجيل والتفخيم كالسيد أو الشيخ، وفي أحيان أخري أُطلق عليهم الألقاب الخاصة بحكام المدن والممالك، فحمل بعض زعماء القبائل العربية العريقة لقب أمير أو ملك، وبصفة خاصة إذ قام هذا الزعيم بأعمال جليلة لقبيلته، ارتقت بمركزها الاجتماعي أو المالي أو السياسي(٢)، فإنه يكون جديراً بهذا

(١) د/عبداللطيف الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام،ج١، مرجع سابق، ص١٢.
(٢) من ذلك أن القبائل العدنانية كانت كلما اشتدت الحرب بينها، أذعنوا لملك حمير وتقربوا منه، لكن كُليب بن ربيعة التغلبي، استنكر ذلك وقرر تحرير قبيلته من هذه التبعية، ورفض دفع الأتاوة لحمير، فسودته قبيلة ربيعة ملكاً عليها. د/ محمد التونجي، ديوان الأفوه الأودي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص١٢.

اللقب وأهلاً له[١]، وأحيانا أخري كان يُطلق عليه لفظ "القَبُ" الذي يجمع كل مظاهر الرئاسة السابقة[٢]، لكن ظل لقب "الشيخ" هو الأشهر والأكثر شيوعاً عند العرب[٣]، وكان الطريق الممهد للحصول علي كل جميع هذه الألقاب الوصول لزعامة قبيلة قريش[٤].

فمنصب شيخ القبيلة أرفع المناصب شأناً في المجتمع الجاهلي، لذا اشترطت الأعراف القبلية توافر العديد من المزايا والخصال فيمن يتم تسويده علي الجماعة، فإذا توافرت الشروط اتبعت وسائل محددة لشغل المنصب، وكان له العديد من الاختصاصات وعليه الكثير من الواجبات، يجب عليه القيام بها سواء داخل القبيلة أو خارجها.

وسنقسم هذا الفصل إلي ثلاث مباحث: الأول: صفات رئيس القبيلة وخصاله، الثاني: تولية رئيس القبيلة، الثالث: سلطات رئيس القبيلة وواجباته.

(١) جاء في أخبار مكة:"حالت خزاعة بينه . أي قصي . وبين ولاية البيت.. وقصي مُجمع علي ما أجمع عليه من قتالهم.. فاقتتلوا بمفضي مأزمي مني قتالاً شديداً حتى كثرت القتلي.. فسلمت خزاعة لقصي فولي قصي بن كلاب حجابة الكعبة وأمر مكة وجمع قومه من قريش من منازلهم إلي مكة وتملك علي قومه فملكوه". محمد بن عبدالله ألأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، عبدالمقصود محمد سعيد خوجه، جده، ط١، ١٣٥٢هـ، ص٨٤.

(٢) القبُ: هو رئيس القوم وسيدهم، وقيل: الملك، وقيل: الخليفة، وقيل: هو الرأس الأكبر للجماعة والمراد الرئيس، يقال فلان قب بني فلان أي رئيسهم. ابن منظور، لسان العرب، ج ١، مرجع سابق، ص٦٥٨.

(٣) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، مرجع سابق، ص٢٩.

(٤) كان عقلاء قريش وسادتها يحلمون بأن يكون ملوكاً عليها وأصحاب الكلمة النافذة فيها. د/ جبور عبدالنور، نظرات في فلسفة العرب، دار المكشوف، بيروت، ط١، ١٩٤٥، ص١٩.

المبحث الأول: صفات رئيس القبيلة وخصاله

كان المجتمع العربي قبل الإسلام قائم علي فكرة الطبقية، وسيادة مبدأ اللامساواة في الحقوق والواجبات(١)، ولما كانت زعامة القبيلة منصب رفيع الشأن عالي القدر ذا شرف وعزة بالغة، لذلك دائماً ما حصر الجاهليين هذا المنصب في صرحاء القبيلة الأحرار(٢)، من أبنائها الذين يجري في عروقهم الدم النقي للقبيلة(٣)، فقد جرت عادة العرب علي ألا يسود القبيلة إلا رجل كبير السن(٤)، من اصلائها(٥)، أي من الذين يجمعهم نسب واحد ودم مشترك لم يلحقه هجنة أو خسة في النسب(٦)، فالأصلاء أنقياء الدم وحدهم هم الذين يسودون القبيلة ويؤلفون بيوتات الشرف فيها(٧)، فمن تمتع منهم بمواهب شخصية وخصال ذاتية محمودة، وسجايا طيبة، رأي قومه أنها تميزه عن غيره،

(١) القبيلة العربية كانت تتألف من عناصر متعددة، فبالإضافة إلي أبنائها الصرحاء، ضمت أيضاً أبناء القبيلة بالنقلة، فقد كان جائزاً أن ينقل الرجل نسبه من قبيلة إلي قبيلة أخري، بالإضافة إلي أبناء قبيلة بالإستلحاق، وهم الناتجين من زواج بين امرأة من القبيلة وأحد عبيد القبيلة، وكذلك العبيد الذين يتم الحصول عليهم من الشراء وأسري الحروب. د/ توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٩٦، ص ٢٥٧.

(٢) تمتع الصرحاء من أبناء القبيلة الأحرار بكل الحقوق المدنية والسياسية، وفي المقابل تحملوا الكثير من الواجبات الاجتماعية والمالية والحربية.

(٣) يرجع ذلك إلي الأحوال الجغرافية والظروف المعيشة جعلت شبة جزيرة العرب منطقة غير جاذبة للقوة البشرية، لذلك قل فيها الغرباء والأجانب، وهو ما أدي إلي احتفاظ أهلها مدة طويلة بنقاوة دم عالية. د/ صالح احمد العلي، الإدارة في العهود الإسلامية الأولي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص٦٠.

(٤) ذهب البعض إلي أن السن لم يكن شرطاً جوهرياً في زعامة القبيلة، إذ يمكن أن يكون شيخ القبيلة صغير السن متي اجتمعت فيه الحكمة والغني والعدل والوجاهة. د/عمر فروخ، العرب تاريخ الأدب العربي، ج١، مرجع سابق، ص٦٦.

(٥) الزبيدي، تاج العروس، ج٤، مرجع سابق، ص١١٣٩.

(٦) د/ احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، بيروت، ب. ت، ص ٤٣.

(٧) اعتبر العرب نقاء الدم القبلي ميزة هامة، يزهو بها العربي، ويفتخر علي غيره من الخلطاء. ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٣.

وتمكنه من إدارة القبيلة وقت الحرب والسلم، سودوه عليهم لأجلها[١]، أما غيرهم من الأتباع والأحلاف غير الأصلاء، لم يتمتعوا بكل ما يتمتع به الصرحاء[٢].

بالإضافة إلي ذلك كان من الواجب أن يتحلي رئيس القبيلة بمجموعة كبيرة من الخصال، وأن يتميز ببعض الصفات الذاتية المحمودة[٣]، وأن يكون مؤمناً بجملة من الضوابط الفكرية والخلال الطيبة الموروثة، التي هي عادة من قبل الطبع لا التطبع، لأن ذلك يمنحه نفوذاً كبيراً ومكانة عالية ومنزلة رفيعة، وتنتزع احترام الناس له وإعجابهم به، وتجعله أقوي في التغلب وأسرع في الوصول إلي السلطة، وتدعم ثقة الجماعة في قدرته وقيادتهم، ويتعين أن تتلاءم هذه المزايا مع شيم القبيلة وتقاليد المجتمع وطبائعه، وما ألفته القبيلة من سُنن ومعتقدات، وفي المقام الأول مع طبيعة البيئة التي عاش فيها العرب[٤].

ومن أهم هذه الصفات الحنكة وكمال التجربة، الحكمة وسداد الرأي، الشجاعة والجسارة والإقدام والمواجهة[٥]، يخوض غمار المعارك دون جُبن أو إحجام[٦]، مقاتلاً في مقدمة الصفوف لا يبالي الموت[٧]، الصبر عند الشدائد والنوازل دون اضطراب أو

---

(١) عبدالقادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٣، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانكي، القاهرة، ب. ت، ص٩٠.

(٢) د/محمد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط١، ١٩٨٢، ص١٢٣.

(٣) د/ عبدالعزيز الدوري، النظم الإسلامية، مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٥٠، ص١٦.

(٤) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، مرجع سابق، ص٣٠.

(٥) كان العرب يرغبُون في الشجاعة وينفرون من الجبن، فمن أقوالهم المأثورة:"الشجاعة وقاية والجبن مقتلة"،"الشجاع موقى والجبان مُلقي". ابن عبدربه، العقد الفريد، ج١، مرجع سابق، ص٩١.

(٦) كان قدماء العرب يعدون الإقدام في تهور شجاعة صادقة والإحجام في تبصر حجة الجبان، وقد عبر عن ذلك الحارث بن عباد البكري . أحد سادت العرب وفرسانهم الأشداء وأمير بني ضبيعة . قائلاً:"والعرب تعلم أني أبعث الحرب قدماً وأحسبها، حتى إذا جاشت نارها، وسُعرت لظاها، وكشفت عن ساقها، جعلت مقادها رمحي، وبرقها سيفي، ورعدها زئيري، ولم أقصر عن خوض خضاخضها، حتى أنغمس في غمرات لُججها، وأكون فُلكا لفرنساني إلي بحبوحة كبشها، فأستمطرها دماً، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم". ابن عبدربه، العقد الفريد، ج١، المرجع السابق، ص٢٨٢.

(٧) وصف الشاعر إقدام العربي علي القتال وعدم الفرار منها كانت كثافة الدماء وعدد القتلي قائلاً:

رأتني كأشـــلاء اللجام ولن تـــــــري .. أخا الحرب إلا ســـاهم الوجه اغبرا
أخا الحرب أن عضت به الحرب عضها .. وأن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

تهور أو تلكؤ(١)، الحلم فلا يدع للغضب سبيلاً(٢)، يتحمل كثير من أذاهم واعتدائهم(٣)، القوة مع الحق(٤)، التواضع والإنصاف(٥)، المروءة(٦)، إجارة المطرود(٧)، نجدة الملهوف(٨)، البعد عن الضيم والعدوان(٩)، كثرة المال والثروة(١)، الكرم والجود والسخاء

(١) من سمات العربي أنه سريع الغضب شديد النقمة، لا يتردد أو يتلكأ، ولا يتروي في لحظة الغضب. علي حسين حطيم، التنظيم الاجتماعي لنظم القبيلة البدوية، جامعة النهرين، مجلة الأدب، العدد(١١١)، ٢٠١٥، ص ٥٢٨.

(٢) يقول المرار بن سعد الفقعسي:

إذا شئت يوماً أن تســـود قبيلة .. فبالحلم سُد لا بالسفاهة والشـــــتم

(٣) من ذلك أن سالم بن نوفل سيد بني كنانة في زمانه، فوثب رجل علي ابنه وابن أخيه فجرحهما، فأتي به سالم، وقال له: ما أمنك من انتقامي؟ قال: فلم سودناك إذاً؟ إلا لتكظم الغيظ وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه. يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ج١، تحقيق/ محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت، ص٦٠٥.

(٤) قال ابن قيم:"أن كثير من الناس يخلط بين الشجاعة والقوة، وهما مختلفان فالشجاعة هي ثبات القلب عند النوازل وان كان ضعيف البطش". محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، الفروسية المحمدية، تحقيق/ زائد بن احمد النشيري، دار عالم الفوائد، جدة، ب . ت، ص٤٦٦.

(٥) أجمل حكيم العرب ذي الإصبع العدواني هذه السمات في وصية خالدة، وجهها لابنه عندما أحسن باقتراب منيته، قائلاً:"يا بني إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته، فأحفظ عني: ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وأبسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشئ يسودك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر علي مودتك صغارهم، واسمح بمالك، واحم حريمك، وأعزز جارك، وأكرم ضيفك، وأعن من استعان بك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أجلاً لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتم سؤددك. الأصفهاني، الأغاني، ج٣، مرجع سابق، ص٦٨-٦٩

(٦) من الصعب وضع مفهوم محدد للمروءة إذ هي في العرف الجاهلي تستغرق معظم نواحي الحياة وخاصة حماية الجار بالمال والروح، إذ وصف الشاعر سلامة بن جندل كرم العرب ومروءتهم قائلاً:

قد يسعد الجار والضيف الغريب بنا .. والسائلون ونغلي ميسر النيب

(٧) كان العرب يمتدحون بالإجارة والحماية، حتى كان فيهم من يحمي الجراد إذا نزل في جواره، حتى قيل فيهم: هم يمنعون الجار حتى كأنه.. كثيبة زور بين خافيتي نسر. ابن عبدربه، العقد الفريد، ج١، مرجع سابق، ص١٢٢.

(٨) من شيم العرب نجدة الملهوف، وكان لهذا السلوك أهمية بالغة في حياتهم، حتى أنهم اعتبروا احترام مقتضياته واجباً يكاد يكون مقدساً، يفخرون به، ويوصي سادتهم ذويهم بضرورة مراعاته، تنفيذاً لتوصية يعرب بن قحطان بنيه قائلاً:"والجار الدخيل علي أنفسكم، فلن يسوء حاله، ولئن يسوء حال أحدكم خير له من أن يسوء حال جاره"، وقد مدح الشاعر يزيد السكوني بني شيبان لقيامهم به قائلاً:

ومن تكرمهم في المحـل أنهم .. لا يعلم الجار فيهم أنه الجــار
حتى يكون عزيزا من نفوسهم .. أو أن يبين جميعا وهو مختار
كأنه صرح في رأس شــاهقة .. من دونــه لعتاق الطير أوكار

(٩) كان للعربي يرفض حدوث أي اعتداء عليه، أو الانتقاص من حقوقه، وخشية من أي يؤدي إلي الاقتتال، كان لديهم حكاماً يرجعون إليهم في منازعاتهم وخصوماتهم، ويتحاكمون إليهم في مناظرتها

في البذل والعطاء[٢]، عدم الإسراف علي مظاهر الترف[٣]، حسن الضيافة[٤]، خاصة للغرباء المسافرين[٥]، العفة والكف عن القبيح[١]، ومعاملة أفراد القبيلة بجميل

ومواريثها ومياهها ودمائها، وفي بعض الأحيان كانوا يحتكمون إلي الكهان والعراف، فالعربي لايتحمل الظلم ولا يرضخ للضيم، لأن تحمل الظلم في نظرهم ضعف وعار، وكان إقامة العدل بينهم مدعاة للتفاخر، يقول الربيع بن أبي الحقيق:"أنا إذا نحكم في ديننا نرضي بحكم العادل الفاضل، لا نجعل الباطل حقاً ولا نلظ دون الحق بالباطل". محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج١، تحقيق/ محمود شاكر، دار المدني، جدة، ب. ت، ص٢٨١.

(١) في المجتمع الجاهلي تجتمع الثروة لدي عدد قليل من الأفراد، استطاعوا الاستفادة منها في تعزيز مكانتهم الاجتماعية، والسيطرة علي العامة، والتأثير في شئون الجماعة. محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج١، تحقيق د/ محمد احمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٧، ص١٦٦.

(٢) كان البُخل صفة مذمومة عند العرب، وكان فيض الكرم وسخاء النفوس أبرز صفات الجاهليين، اشتهر بعضهم به حتى صار مضرب المثل، منهم عبدالله بن جدعان، وحاتم الطائي الذي أطلق الرسولε صراح ابنته سفانة بسبب كرم أبيها، بعد أن سباها المسلمون أثناء حملتهم علي قبيلة طئ لهدم صنمها، قائلاً لأصحابه خلوا عنها فإن أبها كان يحب مكارم الأخلاق، لذا قال رسول اللهρ:"إذا سألتم الحوائج فسألوا العرب، فإنها تعطي لثلاث خصال: كرم أحسابها، واستحياء بعضها من بعض، والمواساة لله". احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٧٨.

(٣) وصفت المقدمة حال العرب كالتالي:"هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام علي الأنعام، وأنهم مقتصرون علي الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي .. هؤلاء هم العرب". عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٤٦.

(٤) كان القعقاع بن شور بن شيبان إذا جالسه جليس فعرفه بالقصد إليه جعل له نصيباً في ماله، وأعانه علي عدوه، وشفع له في حاجته، وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً له. محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج١، مرجع سابق، ص١٤٣.

(٥) قري الضيف المسافر من أعظم المآثر والمفاخر القبيلة، لذلك احتل إكرام الغريب مكانة عالية في حياة المجتمع العربي، وأخذت هذه الفضيلة لديهم شكل القواعد الرسمية التي يجب إتباعها، فقد واجه العرب جدب الصحراء بالسخاء والبذل وعدوهما واجباً أخلاقياً، بلغ بهم إلي اعتبار أي إخلال بهما جريمة أخلاقية، لذا كان لهم فيه ضروب شتي، فمن عادتهم إشعال النار علي الربوات العالية ليهتدي إليها السائرون في الصحراء ويتوجهون إلي المضارب المستعدة لاستضافتهم، حتى أصبح بعض العرب مضرب المثل في معاملة الغرباء، ككعب بن مامة الإيادي، وأوس بن حارثة الطائي، وهرم بن سنان. علي حسين حطيم، التنظيم الاجتماعي لنظم القبيلة البدوية، مرجع سابق، ص٥٢٨؛ ساعد علي قيام العرب بحق الضايفة، أن هذا الحق كان يستند إلي عرف عام هو "حق الملح" الذي يعني الجلوس معاً علي مائدة واحدة وتقديم الخبز والملح للضيف، ولا يشترط إقامة وليمة كبري دائماً للضيف، بل يكفي تقديم بضع حبات من التمر مع كسرة خبر جافة ليحرك حق الملح والخبز. يوسف سلحد، القانون في المجتمع البدوي، مجلة الاجتهاد، مجلد(٤)، عدد(١٧)، ١٩٩٢، ص ٢٣٥؛ العجيب في الأمر أن البدوي الذي كان ينتهز كل سانحة للغزو والسلب حتى لو تعرضت حياته للقتل، كان إذا نزل به ضيف انقلب إلي رجل مسالم مضياف ودود، لا يفكر في الاعتداء علي ضيفه أو مد يد الأذى إليه، بل يرعاه ويخفف عنه وعثاء السفر، يقول عمرو بن الأهتم:

الأخلاق[٢]، طليق اللسان بليغ الكلام فصيح مفوه[٣]، فطن جيد القريحة[٤]، يتحمل تكاليف الجماعة ومغارم جناياتها[٥]، يعمل جاهداً علي تحقيق مصالح القبيلة[٦]، وتنفيذ تطلعات أفرادها[٧]، توافر هذه المواصفات ضروري للحصول علي السيادة، وقد حاول أحد فحول الشعر الجاهلي، جمع الصفات التي يجب أن يتحلي بها شيخ القبيلة في أبيات من الشعر، كي ينشدوها أبناء القبيلة دوماً، حتى تصير عرفاً قبلياً متبعاً، يحفظه الآباء ويتمسك به الخلف عند تولية رئيس لهم[٨].

أضاحك ضيفي قبل إنزاله رحله .. ويخصب عندي والزمان جديبُ
وما الخصبُ للأضياف أن تكثر القري .. ولكنما وجه الكريم خصيب

(١) العفة: تعني المحافظة علي الأعراض، يقول الضبعي:"من كان ذا عرض كريم فلم يصن له حسبا كان اللئيم المذمما"، وقال عنترة:"أغشي فتاة الحي عند حليلها وإذ غزا في الجيش لا أغشاها"، يقول أبو العباس:"ألا أخبركم بادوأ الداء؟ الخلق الدنيء واللسان البذيء". محمد بن يزيد المبرد، الكامل، ج١، مرجع سابق، ص١٦٥.

(٢) اتصف عرب الجاهلية بجملة من الأخلاق، لذا أوصي حصن بن حذيفة بنيه بالتمسك بها، قائلاً:"اسمعوا مني ما أوصيكم به، اصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم". احمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج١، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ١٩٢٣، ص٢٩٣.

(٣) يقول كلاستر:"وحده الخطيب المفوه يستطيع احتلال سدة الزعامة.. إن الموهبة الخطابية هي في الوقت نفسه شرط ووسيلة السلطة السياسية .. ما نستطيع قوله أن الزعيم ليس الرجل الذي يتكلم فقط، لكن ذلك الذي يتكلم هو الزعيم". بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٢،٤٤.

(٤) كان يضرب المثل بفطنة العرب لصفاء أذهانهم وجودة قرائحهم، يقو الشاعر :
لا دِقة الخصر الرقيق غذتهم .. وتباعدوا عن فطنة الأعرابِ

(٥) يقول معاوية بن مالك الكلابي سيد قبيلة عامر وشاعرها:
نعطي العشيرة حقها وحقيقها .. فيها ونغفر ذنبها ونسود
وإذا تُحملنا العشـــيرة ثقلها .. قمنا به وإذ تعود نعـود

(٦) قيل لبعض العرب: من السيد فيكم؟ قال: الأحمق في ماله، المعتني بأمر عامته. ابن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ج١، مرجع سابق، ص٦٠٣.

(٧) حاول بعض الكتاب إجمال الخصال التي يجب توافرها في زعيم القبيلة، قائلاً:"كان أهل الجاهلية لايسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والتواضع، والبيان". البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٣، مرجع سابق، ص٩٠.

(٨) يقول لقيط بن يعمر الإيادي، شاعر قبيلة بني إياد في القرن الرابع الميلادي:
فقلدوا أمركـــم . لله دركـــــم .. رحَب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده .. ولا إذا عض مكروه به خَشعَا
ما انفك يحلبُ در الدهر أشطره .. يكون مُتبَعاً طـــــوراً ومُتبِعا
ليس يشـــــــــــــغله مال .. عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا
حتى استمرت علي شزر مريرته .. مستحكم السن لاقمحاً ولاضرعا

فكل رجل(١) استجمع هذه الفضائل أمكنه أن يكون سيد قبيلته(٢)، وقد أقر ذلك بعض من وصل إلي رئاسة القبيلة وتقلد مشيختها بالفعل، عندما طُلب منه توضيح أسباب زعامته، منهم قيس بن عاصم(٣)، عندما سئل:"بم سدت قومك؟ قال: ببذل الندي، وكف الأذى، ونصرة المولي، وتعجيل القرى"(٤)، وعرابة بن أوس الأنصاري(٥)، عندما سئل:"بأي شئ سدت قومك يا عرابة؟ قال: إني والله لأعفو عن سفيههم، وأحلم عن جاهلهم، وأسعي في حوائجهم وأعطي سائلهم"(٦)، وهو ما جعل جانب من العلماء المعاصرين يربط بين مقدرة الحاكم علي البذل والعطاء وبين استمراره في ممارسة السلطة واحتفاظه بالرئاسة(٧)، يقول كلاستر:"يجب عليه أن يكون معطاءً من خيراته، ولا يمكن أن يسمح لنفسه رفض الطلبات العديدة من قبل محكوميه دون أن يؤدي ذلك إلي تخليه عن حكمه"(٨)، ويقول فوكوياما:"فبدون موارد يوزعها علي أتباعه يخسر الرجل الكبير مكانته كزعيم للقبيلة"(٩)

(١) نظر العرب في الجاهلية إلي المرأة نظرة دونية وضعف وهوان، لذا تم قصر وظيفة الحماية والمدافعة علي الرجال وحدهم، ولما كان توفير الأمن والسكنية للقبيلة هو المهمة الأولي لزعيمها، لذلك لم يؤثر طوال العصر الجاهلي السماح للنساء تولي هذا المنصب الرفيع.

(٢) جاء في الكامل:"فمن فعل منهم مثل فعلي فهو مثلي". محمد بن يزيد المبرد، الكامل، ج١، مرجع سابق، ص١٦٦.

(٣) قيس بن عاصم التميمي، أدرك الجاهلية وساد فيها، وفد إلي النبيρ سنة تسع من الهجرة علي رأس وفد بني تميم، فأسلم وساد في الإسلام، وقال عنه النبيρ:"هذا سيد أهل الوبر" أي سيد الذين يعيشون في الخيام.

(٤) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ج١، تحقيق/ منذر محمد سعيد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص٣٢٧.

(٥) عرابة بن أوس بن قيظي الأوسي، كان أبوه من رؤوس منافقي المدينة القائلين:"إن بيوتنا عورة"، أسلم وهو صغير وخرج إلي غزوة أحد، فاستصغره النبيρ ورده مع بعض النفر، قال له معاوية: بأي شئ سدت قومك يا عرابة؟ قال: أخبرك يا معاوية بأني كنت لهم كما كان حاتم لقومه.

(٦) السيد محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩، ص١٨٧.

(٧) يري البعض أنه لا خشية من البذل والكرم إذ أن من صفات العربي القناعة والرضي باليسير. محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج١، مرجع سابق، ص٨٣.

(٨) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٢.

(٩) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي ، مرجع سابق، ص١٤.

بالإضافة إلي كثرة العصبة والأشياع، فمتي كان الفرد صريح نسب بالقبيلة، من أقوي عمائرها، وأكثرها عصبية وأنصاراً[١]، أمكنه تقلد رئاستها وقيادة أمرها وكانت قراراته نافذة مُطاعة، إذ كان النظام السياسي القبلي قائم علي السلطة الأبوية المقيدة، لذلك كانت العصبية القائمة علي رابطة الدم ضرورة قصوى، لأنها المحددة لجميع العلاقات داخل القبيلة وخارجها، فهي بمثابة دافة السفينة وعجلة القيادة، وبصفة خاصة في إطار سياسة الاختيار المباشر، التي هدفها اختيار ألمع شخص في القبيلة، ممن يحملون الصفات التي تؤمن بها الجماعة، وتكون سياسته وتصرفاته متوافقة مع تطلعاتها، ذلك أن جوهر السلطة السياسية علاقة اجتماعية تقوم علي القيادة والخضوع، وانتفاء هذه العلاقة يستتبع انتفاء السلطة السياسية نفسها[٢]، فشرعية النظام متوقفة علي قناعة الأفراد بزعيمهم وشعورهم بأن الرئيس يستحق الطاعة والتأييد[٣].

فضلاً عن ذلك أن تقسيم المجتمع إلي طبقات ومنازل من مسلمات النظم الاجتماعية القديمة، ولم يكن ذلك غريباً في المجتمع العربي قبل الإسلام، إذ كان للمادة أهمية كبيرة في حياتهم، فحب المال وسعيهم الحميم لجمعه، وطلب السلطة لم يغادرا أهواء العرب، فهما وجهان لعملة واحدة هي الشرف والعزة، ذلك أن مبلغ سعيهم الفخر بالشرف والعزة، وهما عندهم علي منازل ودرجات، تقدر بناء علي كثرة العصبية والقدرة المالية[٤].

---

(١) برر ابن خلدون تطلب العصبية في الزعامة قائلاً:"ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشي جانبهم، إذ نعرة كل أحد علي نسبه وعصبيته.. والمعني أنه لا يتوهم العدوان علي أحد مع وجود العُصبة له". ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٢) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص١٧.

(٣) محسن رمضان جابر، الثقافة السياسية وأثرها علي النظام السياسي، مجلة العلوم الاقتصادية والسياسية، العدد(٧)، يونيو ٢٠١٦، ص٣٢٥.

(٤) يقول الشاعر طرفة بن العبد:"فأصبحت ذا مال كثير وزارني .. بنون كرام سادة لمسود". المال عند العرب نوعان الصمت والناطق، الصامت هو الذهب والفضة والجواهر، أما الناطق فهو البعير والبقر والشاة، والنوع الأول هو المقصود بالمال لدي أهل الحضر، أما الثاني فهو المتعارف عليه عند البدو. محمد علي طه الدرة، فتح الكبير المتعال في إعراب المعلقات العشر الطوال،ج١، مكتبة السوادي، جدة، ط٢، ١٤٠٩، ص٢٨٢.

وهذا بطبيعة الحال كان ذلك مستمد من فكرة السيادة في المجتمعات القديمة، التي دائماً ما ربطت السلطان بكثرة المال والثراء[١]، فكان من الصفات الواجب توافرها في سيد القوم كثرة المال ووفرته[٢]، بأن يكون السيد من أغنيائهم وأكثرهم مالاً، لأن المال الكثير يساعد شيخ القبيلة علي القيام بالواجبات المالية الملقاة علي عاتقه، فبالرغم من أن المبدأ هو المساواة بين أفراد القبيلة، وأن سلطان المال لا قيمة له عند البدوي[٣]، إلا أن هناك استثناءين علي هذا المبدأ القبلي، أحدهما أن الفقر يحول بين الفرد وبين الحكم والسؤدد[٤]، فقد فضل عرب الجاهلية الارستقراطية الغنية علي من هم أقل مالاً[٥]، في مجالي الزواج ورئاسة القبيلة[٦].

غير أن توافر الخصال الطيبة والصفات الحميدة في سيد القبيلة، وتفوقه علي غيره في العصبية والمال، لم تتوافر لرؤساء بعض القبائل العربية، ففي أوقات محددة وظروف خاصة، سودت بعض القبائل زعماء لا تتوافر فيهم بعض فضائل الرئاسة[٧]، بل أنهم جمعوا الكثير من ألوان المعايب الذميمة والأخلاق الدنية، فساد أبو جهل بن هشام وما طرّ شاربه، ودخل دار الندوة وما استوت لحيته، ولا سؤدد مع العُهر، وساد عامر بن الطفيل وكان عاهراً، ومع ذلك كان ساد بني جعفر، وكان البخل يمنع

(١) أشار القرآن الكريم إلي ربط القدماء بين تولي السلطة والتمتع بوفرة المال، قال تعالي:﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾. سورة البقرة، جزء من الآية رقم (٢٤٧).

(٢) اشتهرت بعض بيوت مكة بالثراء والسعة في المال، منها بنو أمية وبنو مخزوم، واشتهر بعض الأفراد باقتناء الأموال وتنميتها كالوليد بن المغيرة وعبدالعزي وأبو أحيحة بن سعد وأبو سفيان وعبد بن أبي ربيعة وعبدالله بن جدعان والعباس بن عبدالمطلب. أبو الحسن علي الندوي، السيرة النبوية، دار الشروق، مكة، ط٨، ١٤١٠هـ، ص٩٣.

(٣) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، دار الأفاق العربية، الطائف، ط١، ١٣٤٣هـ، ص٩.

(٤) البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٣، مرجع سابق، ص٩٠-٩١.

(٥) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٩.

(٦) جاء في المفصل:"هذه الروح الارستقراطية التي تتجلي فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم، فإنه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى". د/ جواد علي، المفصل، ج١، مرجع سابق، ص٢٧٦؛ حافظ وهبة، جزيرة العرب ، مرجع سابق، ص١٢.

(٧) قال الشاعر:"يسود أقوام وليسوا بسادة .. بل السيد المعروف سلم بن نوفل". محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مرجع سابق، ص١٠٧.

السؤدد، وكان أبو سفيان بن حرب سيد مكة وكان بخيلاً[١]، وكان الجد بن قيس سيد الأنصار وكان بخيلاً[٢]، والظلم يمنع السؤدد وكان كليب بن وائل ظالماً، وكان سيد ربيعة، وكان حذيفة بن بدر الفزاري ظالماً، وكان رب معد وسيد غطفان وعدنان كلها، والحمق يمنع السؤدد، وكان عيينة بن حصن أحمق وكان سيداً لقومه، وقلة العدد تمنع السؤدد، وكان السيل ابن معبد سيداً ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلان، والفقر يمنع السؤدد وكان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس مملقاً إلي أن مات وكان سيد قبيلته، والحداثة تمنع من السؤدد، وساد شبل بن معبد البجلي[٣]، وقد برر البعض ذلك بعدم وجود ضمانة مؤسسية تكفل أن النظام كما صمم سوف يستطيع دائماً ضبط السلطة[٤].

وعدم توافر بعض الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، في بعض الأفراد الذين تولوا رئاسة بعض القبائل العربية في بعض الأزمنة، جعل جانب من المؤرخين يذهب إلي أن الشرطين الأساسيين اللازم توفرهما للحصول علي رئاسة القبيلة هما العصبية والنسب الصريح دون أي خلط، يقول ابن خلدون:"العصبية مرهوبة، والمنبت فيها زكي محمي، تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوي، وتعديد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها، فيكون الحسب والشرف أصليين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب"[٥].

---

(١) عن عائشةτ أن هند بنت عتبة دخلت علي النبيρ فقالت:"يارسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت من مال وهو لا يعلم، فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف". صحيح مسلم، حديث رقم "١٧١٤".

(٢) قال رسول اللهρ للأنصار يوماً: من سيدكم؟ قالوا: الجد بن قيس علي بُخل فيه، فقالρ:"أي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح، فقال شاعرهم:

وقال رسـول الله والحق قوله .. لمن قال منا من تسمون سيدا
فقالوا له الجد بن قيس علي التي .. نبخله فيها وإن كان أسودا
فسود عمر بن الجموح بجوده .. وحق لعمرو بالندي أن يسودا

(٣) البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٣، مرجع سابق، ص ٩٠-٩١، ابن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ج١، مرجع سابق، ص٦١٢-٦١٣.

(٤) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، مرجع سابق، ص٢٧.

(٥) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٦٣.

يتضح أن مدي توافر صفات معينة مسألة نسبية، فهذه الشيم يختلف التمسك بها من قبيلة إلي أخري، ومن سيد إلي آخر، ومن وقت إلي آخر، ومن ظروف معينة إلي تقلبها إلي غيرها، فقد تندثر احدي هذه الصفات بالنسبة لأحد الزعماء ويستعاض عنها بصفة أخري، تكون موضع اهتمام وإعجاب وأكثر ملاءمة لظروف القبيلة، فالصفات التي ينبغي توافرها لم يكن لازماً توافرها جميعاً في شخص واحد وفي توقيت واحد، فيمكن أن يفقد الشخص بعضها ويتوافر فيه نقيضها، وبالرغم من ذلك تسوده القبيلة وتمنحه مشيختها، لذلك قال أبي عمرو بن العلاء:"ما رأيت شيئاً يمنع من السؤود إلا وقد رأيناه في سيد"(١).

إلا أنه يمكننا القول بأن الثابت أن الرجل الذي يسوده قومه لا يسودونه إلا لخصال رأي قومه أنها تمثل ميزة حقيقية فاعلة في شخصيته، وغالباً ما يكون لهذه الخلال انعكاس إيجابي علي القبيلة، لكن القاعدة العامة أن العرب كانوا يسودون أهل الفضل والسلوك القويم والسيرة المحمودة، إلا أن ذلك لا يمنع وجود بعض الاستثناءات، فقد قبلت بعض القبائل تسويد بعض رجالها ممن لم يجمعوا الفضائل، لمجابهة ظروف معينة داخلية أو خارجية، اقتصادية أو اجتماعية أو حربية ألمت بالقبيلة، كما أن العرف القبلي هو مصدر هذه الشروط، ولكل قبيلة الأعرف الخاصة بها، التي قد تتفق أو تختلف مع أعراف القبائل الأخرى ـ لأن كل قبيلة كيان اجتماعي وسياسي مستقل ـ فما يشترطه عرف قبيلة في سيدها قد لا يستلزمه عرف قبيلة أخري، كما أن ما تعتبره قبيلة من المعايب والمسالب الشائنة قد لا تعتبره الأخرى كذلك(٢).

(١) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، مرجع سابق، ص١٨٨.

(٢) من ذلك أن بعض القبائل العربية كانت تطوفون بالكعبة عراة، مبررين ذلك بأنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، بينما كانت قريش تطوف مرتدية ثيابها، وبعض القبائل كربيعة وكنده وطئ وأسد وخزاعة وتميم كانت وأد البنات عرفاً مستقراً فيها، بينما كان بعضهم يحي الموؤدات صعصعة بن ناجية العقيلي قيل أنه عندما جاء الإسلام كان قد فدي ٤٠٠ موؤدة، كذلك زيد بن عمرو النفيلي الذي قيل أنه كان قد أحيا ٩٦ موؤدة.

وإذا كانت الصفات الذاتية التي تحلي بها بعض الأفراد، تعتبر في نظر جماعته مُثل عليا وقيم نبيلة ومن فضائل الأخلاق، أهلتهم للتربع علي عرش رئاسة القبيلة، وكان هذا المنصب يُلقي علي عاتق شاغله العديد من الواجبات والكثير من الالتزامات ـ ذلك أن النظام القبلي صورة متطور للنظام الأبوي ـ فإنه في المقابل كان لسيد القبيلة الكثير من الحقوق سواء الأدبية أو المادية، باعتباره الشخصية الرئيسية ومحور السلطة في هذا التنظيم، وتطبيقاً لمبدأ الحقوق بقدر المسئوليات والواجبات(١).

ومن أهم الحقوق الأدبية التي تمتع بها شيخ القبيلة، أنه يجب علي الجمع احترامه وتبجيله، باعتباره أكبرهم سناً وأكثرهم عصبية وأفضلهم حسباً ونسباً(٢)، فمما لاشك فيه أن رؤساء القبائل مُنحوا المكانة الأدبية اللائقة التي يستحقونها، ويظهر ذلك جلياً في إطلاق القبائل الألقاب الخاصة بالملوك والأمراء علي زعمائها، وكان أول من مُنح هذه الألقاب زعماء قبيلة جرهم، بعد اختصوا أنفسهم بسدانة البيت وزعامة مكة(٣)، ثم حصل عليها قصي بن كلاب، وبعد أن أخرج خزاعة وبني بكر من مكة، وأسكن قريش بطحائها، كرمته قريش ومكة بتمليكه عليها، فكان أول من أصاب المُلك من بني كنانة(٤).

ولم تكتفي بعض القبائل بنعت زعمائها بألقاب الشرف العليا ذات الصبغة الزمنية، بل بالغت في تكريمهم بمنحتهم أيضاً ألقاب ذات صبغة دينية، تنقلهم من مصاف البشر العاديين إلي منزلة الأنبياء المقربين، ومنهم عبد المطلب بن هاشم، إذ

---

(١) Edward Adamson Hoebel: The Law of Primitive man, Harvard University Press, ١٩٥٤, P ٤٨.

(٢) كان جميع المرشحين للرئاسة في المجتمع الإغريقي ممن بلغ سن الستين أو جاوزها. عباس محمود العقاد، الديمقراطية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ب. ت، ص١٤.

(٣) د/ محمد مبروك نافع، تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام، مطبعة السعادة، مصر، ط٢، ١٩٥٢، ص١٣٦.

(٤) ألأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من آثار، مرجع سابق، ص٨٤-٨٥؛ عبدالرحمن عبدالله السهيلي، الروض الأنف، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ب.ت، ص٢٣٣.

بقريش بعد موقفه السديد في مواجهة أبرهة الحبشي، تُطلق عليه "ابراهيم الثاني"، إذ اختصه الله بالقيام علي بئر زمزم، كما أن نصره وتأييده جاء من عند الله العزيز الحكيم الذي قضي بعزته وجلاله علي الجيش الحبشي(١).

وكانت شمائل العرب قبل الإسلام تدعو إلي احترام شيخ القبيلة وتوقيره وتجعله سيداً مطاعاً، وبلغت درجة تبجيله إلي السجود تحية له(٢)، واعتبار طاعة قراراته وتنفيذها ضمن الأوامر الدينية التي يستحيل مخالفتها، يقول البلاذري:"كان أمر قصي عند قريش ديناً يعملون به ولا يخالفونه قط"(٣)، بالإضافة إلي والنزول علي حكمه وقضائه، والامتثال لأوامره ونهيه(٤)، نزولاً علي سمعته وفضائله ونزاهة كلمته، لسمو منزلته وعلو شأنه، أكثر من كونه قاضياً يعاقب(٥).

ومن أهم الحقوق المادية حصول شيخ القبيلة علي العديد من المزايا المالية، فإذا حارب الشيخ مع القبيلة وتحقق النصر، اختص لنفسه من الغنيمة دون أصحابه بعدة أمور هي: المرباع وهو ربع كامل الغنيمة يأخذه الشيخ لنفسه أولاً، ثم يقسم ما تبقي بينهم(٦)، والصفي وهو أحسن الشئ وأفضله، وهو ما يصطفيه الحكام والقادة لنفسهم من الغنائم الحسنة النفيسة قبل القسمة مثل السيف أو الفرس أو الجارية(٧)، بالإضافة إلي النشيطة وهي ما انتشط من الغنائم مطلق للتنقل دون قيد، فأصابه الغزاة

(١) د/ محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، مرجع سابق، ص١٥٠.
(٢) يقول الأعشى بن ثعلبة:"فلما أتانا بعيد الكري .. سجدنا له ورفعنا عمارا".
(٣) احمد بن يحيي البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، مرجع سابق، ص١٠٦.
(٤) يقول أشجع بن عمرو السلمي:
لا يصلح السلطان إلا شدة .. تغشي البرئ بفضل ذنب المُجرمِ
(٥) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٢.
(٦) في الحديث الشريف عن أبو عبيدة بن حذيفة أن عدي بن حاتم أتي الرسولρ يعرض إسلامه قائلاً:"إني من دين، فقال له النبيρ: إنك تأكل المرباع وهو لا يحل لك". ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص١٨٦.
(٧) نظام الصفايا من النظم التي سمح بها الإسلام، فقد اصطفي الرسول ρ لنفسه سيف ذا الفقار يوم بدر من منبه بن الحجاج من بني سهم، واصطفي جويرية بنت الحرث من بني المصطلق من خزاعة يوم المريسيع، وجعل صداقها عتقها، كما اصطفي صفية بنت حيي بعد مقتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق يوم خيبر وفعل بها مثل سابقتها.

وهم في طريقهم إلي الغزو قبل أن يصلوا إلي الموضع الذي قصدوه، دون أن يعمد إليه ودون أن يجفوا عليه بخيل أو ركاب، كذلك كان له الفضول وهو الزيادة التي تبقت من القسمة، بسبب أنها لا تصلح للقسمة علي عدد من الغزاة(١)، كالبعير والفرس والمرأة ونحو ذلك، وقد أجمل ابن عنمة الاستحقاقات المالية لرئيس القبيلة من متحصلات الحرب والغزو، قائلاً:"لك المرباع فينا والصفايا.. وحكمك والنشيطة والفضول"(٢).

رئيس القبيلة يحصل علي هذه المزايا لنفسه في مقابل قيامه بمواجهة ما قد يطرأ للقبيلة من التزامات، وما يتحمله من نفقات في سبيل مجدها وعلو شأنها(٣)، فمسئولياته شيخ القبيلة المالية ضخمة ومتنوعة، فهو مسئول عن استقبال الضيوف وإكرامهم، وتهيئة المجالس وتجهيزها، وإجارة المستجير، وقري الوافدين وعابري السبيل، وإغاثة المحتاجين من أبناء القبيلة، وفي الظروف الاستثنائية كالقحط وشح الموارد الغذائية تلجا إليه الجماعة بكاملها، لتعيش علي نفقته وفي كفالته لحين تحسن الظروف(٤)، كما أن رئيس القبيلة بعد قسمة الغنائم لا ينظر إلي الأموال التي في أيدي أتباعه وذويه، وإنما يعف عما مهم من النعم والملذات، بل ويواسيهم في الضراء ويفضل عليهم في السراء(٥).

المبحث الثاني: تولية رئيس القبيلة

لا توجد روايات واضحة قاطعة عند أهل الأخبار عن إتباع الجاهليين طريقة محددة في تولي رئاسة القبيلة، ولا توجد قواعد ثابتة أو نظم دائمة لانتقال الزعامة، من رئيس قبيلة متوفي أو مخلوع إلي رئيس جديد، ولم يستقر الرواة والمؤرخين علي أسلوب

(١) يري البعض أنه ليس أعدل من البدو في تقسيم الغنية حتى أنهم في بعض الأحيان يتلفون الشئ الغير قابل للقسمة تحرياً للعدل. حافظ وهبة، جزيرة العرب، مرجع سابق، ص١١.
(٢) الشاعر/ عبد الله بن عنمة الضبي، قصيدة "لأم الأرض ويل ما أجنت"، قالها في رثاء حليفه بسطام بن قيس سيد قبيلة شيبان.
(٣) يقول ابراهيم بن المهدي:"لا خير في الدنيا بلا دين ولا .. في المال إلا منه فيما يبذل".
(٤) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٤٨.
(٥) عبدالمتعال الصعيدي، تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة العلوم، القاهرة، ١٩٣٣، ص٢٤.

محدد لاعتلاء عرش القبيلة وتولي سدة الحكم فيها، ولم تحدد الكتابات علي وجه الدقة المراسيم والطقوس والإجراءات الشكلية التي كانت تصاحب عملية انتقال السلطة وتداولها واعتلاء المشيخة.

ومع ذلك يمكننا الكشف عن بعض التدابير التي اتبعها العرب للوصول إلي رئاسة القبيلة، فالذي يتولي هذا المنصب الرفيع أحد أصلاء سادتها، تنتخبه القبيلة، لكنه لم يكن انتخاباً بالمعني المعروف الآن، ولا بالمعني الذي طبق في الديمقراطية الأثينية المباشرة(١)، كما أنه لم يكن وراثياً. بحسب الأصل ـ ذلك أن العرب لم تكن تفضل أن يخلف الابن أباه في المشيخة، لما يستتبع ذلك من تقرير مبدأ الوراثة في الرئاسة، وإذا حدث وانتخب رجل بعد أبيه، فإن ذلك غالباً ما يكون بسبب ما اتصف به الابن من مميزات تؤهله لشغل المنصب، لا بسبب بنوته للرئيس السابق، فلا أفضلية للخلف علي غيره في الزعامة(٢).

وإنما كان اختيار تلقائي يتولاه مجلس القبيلة رؤساء العشائر والأعيان(٣)، والاختيار لا يستبعد ابن شيخ القبيلة السابق لمجرد توافر هذه الصفة فيه، بل أنه إذا استجمع الصفات فإنه يكون ضمن البوتقة التي يجري الاختيار منها(٤)، فمتي توافقت الآراء بينهم فإنه يتم إضفاء الزعامة علي أحد كبراء القبيلة ومشايخها، والمتتبع لأخبار العرب يلحظ أنهم لم يقتصروا علي طريقة واحده ثابتة لشغل هذا المنصب، فقد ساروا في علي سنة الإرث، كما اتبعوا طريقة الاختبار التي كانت تأتي بمشايخ من خارج الأسرة الحاكمة، بل وتنقل المشيخة إلي أسرة عريقة أخري.

---

(١) الديمقراطية المباشرة أول صور الديمقراطية في العالم، طبقت في مدينة أثينا، كانت تمارس من خلال قيام المواطنون الذين لهم الحق في ممارسة الحياة السياسية والإدارية، التصويت علي القوانين وانتخاب الحكام، بحيث يطمئن الشعب إليهما ويرتضيهما.

(٢) د/ صالح احمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج١، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨١، ص١٥٧.

(٣) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١١.

(٤) يري البعض أن المجتمعات البدائية عرفت سلطة غير رسمية للرأي العام سميت بالرقابة الاجتماعية المباشرة. بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٢٢.

ولما كانت الخلال الشخصية فطرية وليست مكتسبة، ولم يكن من المؤكد انتقالها الخصال الحسنة من الآباء إلي الأبناء[١]، فقد تكون في الأب لكنها لا تنتقل إلي ابنه[٢]، لذا لم يكن حكم القبيلة وسيادتها ـ بحسب الأصل ـ وراثياً أو حكراً علي بعض أسرها[٣]، ولم تكن القبائل تحبذ مبدأ الوراثة، لذلك لم يسود هذا المبدأ في زعامة القبيلة[٤]، لأن الظروف البيئة والحياة القبلية تتطلب أن تقدم القبيلة ألمع أفرادها وأظهر أبنائها لرئاستها وقيادتها[٥]، وقد أشار سلم بن نوفل إلي تداول زعامة القبيلة بين أفرادها قائلاً:"أما نحن فلا نسود إلا من بذل لنا ماله وأوطأنا عرضه وامتهن في حاجاتنا نفسه"[٦]، وبرر ابن خلدون ذلك قائلاً:"ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبية التي بها المدافعة، فكان مضطراً إلي إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه"[٧].

وعلي الرغم من أن المبدأ عدم توارث المشيخة، الذي يهدف في المقام الأول إلي الاعتراف بحق التقدم لأقدر أعضاء القبيلة وأفضلهم[٨]، وتأكيداً لمبدأ المساواة التامة

(١) د/عبدالحميد العبادي، صور من التاريخ الإسلامي"العصر العربي"، مكتبة الآداب للطباعة والنشر، الاسكندرية، ١٩٤٨، ص٧.

(٢) قالت عائشة رضي الله عنها:"خلال المكارم عشر، تكون في الرجل ولا تكون في أبيه ولا في ابنه، وقد تكون في العبد ولا تكون في سيده". ابن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ج١، مرجع سابق، ص٤٧.

(٣) برر البعض مبدأ عدم توريث منصب رئيس القبيلة بأن هذا النوع من المجتمعات تكون القيادة فيه بناء إجماع أفراد الجماعة، وبالتالي ليس لهم الحق في منصبهم ولا يستطيعون توريثه لأبنائهم، إذ قد لا يحصلون علي هذا الإجماع. فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٩٠.

(٤) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، مرجع سابق، ص١٨.

(٥) يقول محمد بن الأغلب:"وقدمني الخلائف واصطفوني .. فمن مثلي قديماً وانتسابا" ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق د/ حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥، ص٩٩.

(٦) محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج١ مرجع سابق، ص١٠٧.

(٧) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٩٠.

(٨) قال عرابة بن أوس الأنصاري: فمن فعل منهم مثل فعلي فهو مثلي، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه، ومن تجاوزه فهو أفضل مني. محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج١، مرجع سابق، ص١٠٨.

بين أفرادها[١]، فالجميع ضمن إطار القبيلة متساوون في الحقوق والواجبات، وبصفة خاصة التي تنبثق عن العصبية الدموية[٢]، غير أن هذه المساواة ليس لها جذور دينية أو أخلاقية[٣]، وإنما هي وليدة تطور التنظيم الاجتماعي والأعراف والتقاليد، التي استصحبتها القبائل العربية من التنظيمات البدائية السابقة عليها، إذ كانت مجتمعات الصيد والرعي عالية التكافؤ والمساواة[٤].

وبالرغم من وجود العديد من التطبيقات لمبدأ عدم توارث رئاسة القبيلة، إلا أن مثل هذه التطبيقات لا تعني الانتفاء الكلي لتوريث هذا المنصب الرفيع أو الاستخلاف فيه، وانتقاله من السلف إلي الخلف المباشر، فهذا المنصب رئاسة مثل سائر الرئاسات عند العرب[٥]، كرئاسة الكربين والملوك والأقيال والأذواء والأقيان وكل الرئاسات الجاهلية الأخرى، وكانت هذه الرئاسات رئاسات وراثية في الأغلب[٦]، لذا أمكن شغل رئاسة القبيلة عن طريق الوراثة والاستخلاف أيضا[٧].

(١) تقي الدين المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، الهدف للإعلام والنشر، ب. ت، ص٢٤-٢٥.
(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، ترجمة/ نبيه أمين وآخر، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٦٨، ص١٨.
(٣) يري البعض أن مصدر هذه المساواة هي الحرية الواقعية وهي غير الحرية الديمقراطية. عباس محمود العقاد، الديمقراطية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٧.
(٤) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٩٠.
(٥) يقول محمد بن الأغلب:
أليس أبي وجـــــدي أوطأني .. وجد أبي وعماي الرقـــــابا
ورثت الملك والســلطان عنهم .. فصرت أعز من وطئ الترابا
(٦) يقول عمرو بن كلثوم التغلبي:
ورثنا مجد علقمة بن سيف .. أباح لنا حصون المجد دينا
ومنا قبله الساعي كُليب .. فأي المجـــــد إلا قد ولينا
ونحن الحاكمون إذا أُطعنا .. ونحن الآخذون لما رضينا
(٧) د/ جواد علي، المفصل، ج١، مرجع سابق، ص٨٣٣.

فكثيراً ما انتقلت رئاسة القبيلة من الأب إلي الابن الأكبر، إذ جري عرف أغلب القبائل العربية علي أن الزعامة وراثية تدعمها ارستقراطية الدم(١)، ويتبع خط الحسب الأبوي في توارثها(٢)، ومع ذلك كان الشيوخ الذين توالت رئاسة القبيلة في نسلهم ثلاثة أجيال متعاقبة نادراً(٣)، وبرر ابن خلدون تحول الرئاسة عنهم باضمحلال روح العصبية، فالجيل الأول يكون علي خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال صورة العصبية محفوظة فيهم، والجيل الثاني يتحول حالهم بالملك من الشظف إلي الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلي انفراد الواحد به، فتنكسر سورة العصبية بعض الشئ، أما الجيل الثالث فينسون البداوة والخشونة، ويفقدون حلاوة العز والعصبية، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعم وغضارة العيش، فيصيرون عيالاً من جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة"(٤).

والأصل أن يبقي شيخ القبيلة متربعاً علي عرشها مدبراً لشئونها قائداً لمسيراتها حتى يلقي نحبه أو يعجز عن النهوض بشئونها، لا ينازعه في ذلك أحد من قومه، فمتي استمر الشيخ متمتعاً بأهلية الرئاسة ظل محتفظاً بمنصبه مباشراً لمهامه، مهما بلغ من العمر أرذله، فهو من هذه الوجهة أشبه بالنظام الملكي، الذي يستمر فيه الحاكم قابعاً علي العرش قابضاً علي الحكم، حتى تُسلب منه الحياة ميتاً أو مقتولاً، مما ترتب عليه استمرار بعضهم أزمنة طويلة في سيادة قبيلته(٥).

---

(١) يظهر ذلك جلياً في قول مشايخ قبيلة طئ لعدي بن حاتم الطائي:" أنت شيخنا وسيدنا وابن سيدنا، وما فينا أحد يكره ذلك ولا يدفعه". أبو حاتم سهل بن عثمان السجستاني، المعمرون والوصايا، مرجع سابق، ص٢٨.

(٢) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٤٣.

(٣) د/ عبدالعزيز الدوري، النظم الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٦.

(٤) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٣٣٥-٣٣٦.

(٥) من ذلك زهير بن جناب عاش أربعمائة سنة وكان سيد قومه وخطيبهم وشاعرهم ووافدهم إلي الملوك، ولم يستخلف في الرئاسة إلا بعد أن أحسن بدو أجله .. وعاش أنس بن مدرك الخشعمي بن كعيب مائة وأربعا وخمسين سنة وكان سيد خشعم في الجاهلية وفارسها.. وعاش عدي بن حاتم

ففي الغالب كان سيد القبيلة عندما يتوفي تنتقل رئاستها إلي أكبر أولاده الذكور سناً، طالما كان هذا الابن كفئاً لها مستجمعاً شرائطها متمتعاً بخصال الزعامة(١)، وفي هذه الحالة يتعين علي الابن أن يثبت جدارته بها واستحقاقه لها، بأن يقيم الأدلة علي حسن إدارته وشدة بأسه وقوة مراسه(٢)، والحصول علي الرضا برئاسته لتثبيت زعامته، إذ أن بقائه منوطاً بحسن ظن أفراد قبيلته فيه ورضاهم عن سياسته واطمئنانهم لإدارته(٣).

وبالرغم من مشاركة المرأة للرجل في الأعمال المدنية الاجتماعية، وتحملها من المعانة والشدائد الاقتصادية ما يتحمله الرجل، وأن عقليتها أقرب إلي عقلية الرجل، إلا أنه من الناحية السياسية احتفظ الرجال دائماً بمناصب الحكم والزعامة حتى في القبائل القائمة علي النسب الأمي(٤)، فلم يؤثر أن المرأة مهما بلغت حكمتها وحنكتها وحزمها وارتفاع شأنها وقوة تدبيرها للأمور، أنها تقلدت رئاسة القبيلة وتولت تدبير شئونها، وقد برر البعض ذلك بأن قوة القبيلة وبقائها وضعفها وفنائها مرتبط بشكل مباشر برموزها سيدها ومجلسها، فالقبيلة تذبل وتنهار وتتصدع وينتهي أمرها متي ضعفت شخصية زعيمها أو وهنت(٥)، وبرره آخر بأن الحرب كانت أساس الحياة القبلية، والمرأة لا تغني غناء الرجل في الحرب(٦).

الطائي بن عبدالله مائة وثمانين سنة وكان سيد قومه وشيخهم. أبو حاتم سهل بن عثمان السجستاني، المعمرون والوصايا، مرجع سابق، ص٢١، ٢٥، ٢٨.

(١) يدل علي أن العرب كانوا يفضلون خلافة الابن الأكبر سناً أبيه في رئاسة القبيلة، ما ورد في وصية قيس بن عاصم المنقري عندما قربت منيته، إذ جاء فيها:"يا بني خذوا عني، فلا أحد أصلح لكم مني، إذا دفنتموني فانصرفوا إلي رحالكم، فسودوا أكبركم، فإن القوم إذا سودوا أكبرهم خلفوا أباهم، وإذا سودوا أصغرهم، أزري ذلك بهم في أكفائهم، وتمسكوا بطاعة أمرائكم، فإنهم من رفعوا ارتفع، ومن وضعوا أتضع". احمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، مرجع سابق، ص١٧١-١٧٢.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، مرجع سابق، ص١٨.

(٣) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٥، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٠٢، ص٢٩.

(٤) في القبائل التي اعتادت علي توارث الزعامة، إذا كان الوارث للمنصب امرأة تكون الرئاسة لأخ المرأة الأولي أو الأم. د/حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٧.

(٥) د/ محمود عرفة، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية، مرجع سابق، ص٥١.

(٦) احمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص٤٦.

وفي بعض الأحيان كان شيخ القبيلة وهو مازال علي قيد الحياة يعين من سيخلفه في رئاستها بعد موته، وعادة ما كان اختياره ينحصر في أقرب أفراد أسرته(١)، فيعهد بها إلي أبنائه أو إخوته أو أحفاده، ممن يتوسم فيهم المقدرة والجدارة بها، وكانت القبيلة تحترم رأي سيدها ووصيته في هذا الاختيار، علي أساس أنه الأكثر تجربة وعلماً بما يحقق مصلحة القبيلة، وأنه قد اختار الأصلح والأنسب للمنصب(٢)، وأن المُستخلف سوف يستكمل المسيرة التي كان عليها سلفه، خاصة إذا كان السلف قام بانجازات علي المستوي الخارجي أو الداخلي رفعت شأن القبيلة بين نظرائها(٣)، أو كان السلف قد وضع خطط وسياسات من شأن الاستمرار في تنفيذها، سمو القبيلة وارتفاع منزلتها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية(٤)، بالإضافة إلي أن المجتمعات القبلية تُبني حول أسرة نووية تكون هي الغالبة علي الكل(٥)، وهي الجذر والأصل(٦)، يجتمع حولها الكل فتصيرهم عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب، ويكون واحد منها رئيساً لها غالباً عليها ورئيساً للعصبيات كلها(٧).

(١) اجتمعت قبيلة هوزان علي جعل الرئاسة في بني جعفر بن كلاب، فولوا عليهم خالد بن جعفر بن كلاب، ثم عروة الرجال بن عتبة بن جعفر، ثم الأحوص بن جعفر، ثم عامر بن مالك بن جعفر. د/ جواد علي، المفصل، ج٧، مرجع سابق، ص٨٣٢.

(٢) د/ السيد عبدالحميد فوده، القانون العربي القديم، دار النهضة العربية، القاهرة، ب. ت، ص٤٢.

(٣) من ذلك أن قصي بن كلاب قد طرد كل القبائل من مكة، وأختص قريش وحدها دون غيرها بها، وقسم أرضها بينهم، قال الشاعر حذافة بن جمح:"هموا ملؤوا البطحاء مجاً وسؤدداً.. وهم طردوا عنا غواة بني بكر".

(٤) تزعم قصي بن كلاب قريش لما قدمه لها من خدمات جليلة، أهمها أنه أوجد لها وطن موحد غير متنازع عليه في أشرف بقاع الأرض، بعد أن كانت مشتته في مناطق متفرقة، وخلفه في قيادة قريش ابنه عبد مناف الذي استمر في المحافظة علي وحدة قريش وتأكيد سيادتها علي إقليمها، واستمال الناس إليها بتقديم الرفادة والسقاية لهم، وتيسير مناسك الحج عليهم، ثم خلفه ابنه هاشم في الزعامة، إذ استمر في تنفيذ سياسة أبيه بإشباع الناس بالطعام وسقايتهم في كل موسم حتى في وجود النوازل والمجاعات، ولم يزل ملتزم بسياسة أبائه وأجداده حتى توفي، فخلفه عبدالمطلب في ذلك كله إذ كان له إبل كثيرة يخلط لبنها بالعسل ويسقيه الحجيج حتى توفي، فقام بذلك أبوطالب في كل موسم ـ بالرغم من قلة ماله وكثرة أولاده ـ حتى جاء الإسلام وهو علي ذلك. ألأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ص٨٨–٩٠.

(٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

(٦) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٩٠.

(٧) عبدالرحمن بن محمد "ابن خلدون"، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

من ذلك أن حصن بن حذيفة بن بدر ـ سيد قبائل عدنان كلها ـ اختار أثناء حياته، إبنه "عيينة" لرئاسة قومه "بني بدر"، بعد أن اختبر طاعته لأوامره، واستوثق من استمراره علي نهجه(١)، فعندما اشتد المرض علي حصن وشعر بدو أجله استدعي أولاده ومشايخ قبيلته، ثم توجه لعيينة قائلاً: أنت خليفتي ورئيس قومك من بعدي، ثم وجه كلامه لأعضاء قبيلته، قائلاً:"لوائي ورياستي لعيينة، فأخذ عيينة الرياسة وقال: أطعت أبا عيينة في هواه"(٢)، فسمع الجميع له وأطاع أمره ومارس عيينة الرئاسة الفعلية عليهم(٣)، وعندما حضرت المنية الأوس بن الحارث بن معاذ ـ زعيم قبيلة الأوس ـ ولم يكن له ولد غير مالك، جميع قومه إليه فقالوا له كنا نأمرك بالزواج في شبابك فلم تتزوج حتي حضرك الموت، فقال لهم قولاً يفيد استخلافه الضمني لإبنه مالك عليهم:"لم يهلك هالك ترك مثل مالك"(٤).

وفي حالة عدم وجود أبناء لرئيس القبيلة، أو رأي الرئيس أن ابنه لا يملك القدرة علي قيادة القبيلة، أو أنه ليس لديه الاستعداد للقيام بهذه المهمة، فإنه كان يمكنه استخلاف أقرب أقاربه فيها، كأن يستخلف أخيه أو ابن أخيه، الذي يصبح الزعيم الجديد للجماعة، ويتمتع بامتيازات هذا المنصب واختصاصاته(٥)، ومن ذلك أنه لما

(١) حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو الفزاري، زعيم قبيلة بدر من ذبيان، شاعر جاهلي، قاد قبيلتي أسد وغطفان معاً في حرب الفجار الثانية، وكان ابنه عيينة في الجاهلية من الجرارين يقود عشرة الآف رجل، أسلم بين يدي الرسول ρ قبل فتح مكة، كان من المؤلفة قلوبهم الذين أجزل لهم الرسولρ العطاء، عندما أحسن حصن بدنو أجله أراد اختيار أطوع أولاده لأوامره اتبعه لسياسته، ليعهد إليه برئاسة القبيلة من بعده، فجمع أولاده وقال لهم: إن الموت أهون مما أجد فأيكم يطيعني فقالوا كلنا نطيعك فبدأ بأكبرهم فقال: قم وخذ سيفي واطعني به حيث أمرك، فقال: يا أبتاه أيقتل المرء أباه، فأتي علي أولاده جميعاً فأجابوه نفس جواب الأول، فلما انتهي إلي عيينة أجابه قائلاً: أليس لك فيما تأمرني به راحة ولي بذلك طاعة وهو هواك، قال: بلي فأخذ سيفه ليقتله، فقال حصن: ألق السيف إنما أردت أن أعلم أيكم أمضي إلي ما آمر به، فأنت خليفتي في قومك من بعدي. محمد بن عمران بن موسي المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق/ عبدالستار احمد فراج، جامعة نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٨، ص١١٧٦.

(٢) المرتضي علي بن الحسين الموسوي، أمالي المرتضي، ج٢، تحقيق/ محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، دمشق، ط١، ١٩٥٤، ص١٦٨.

(٣) د/ جواد علي، المفصل، ج٧، مرجع سابق، ص٣٤٩.

(٤) إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت، ص١٠٢.

(٥) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٤٣.

كبر زهير بن جناب الكلبي ـ زعيم قبيلة قضاعة ـ وبلغ من العمر أرذله[١]، اجتمع له سادة قبيلته وشيوخها، فأعلمهم أنه استخلف عليهم ابن أخيه عبدالله بن عُليم بن جناب، وفي أحد الأيام قال زهير:"ألا إن الحي ظاعن، فقال عبدالله: ألا إن الحي أقام، فقال زهير: من هذا المخالف عليّ؟ فقالوا: ابن أخيك عبدالله بن عليم. فقال: شر الناس للعم ابن الأخ، إلا لا يدع قاتل عمه"[٢][٣].

وقد يتوفي رئيس القبيلة دون أن يختار أحد من أسرته لخلافته، فإذا لم يكن بين رجال الأسرة الحاكمة من هو كفء لتولي هذا المنصب الرفيع، خرجت الزعامة من أيدي الأسرة الحاكمة، إذ يقوم مجلس القبيلة باختيار زعيم جديد[٤]، من احدي الأسر النبيلة الأخرى[٥]، ترضي القبيلة برئاستها[٦]، بشرط أن تكون جديرة بقيادة القبيلة، قادرة علي القيام بمهام الرئاسة وأعباء الزعامة[٧].

---

(١) جاء في المعمرون والوصايا:"عاش ابن جناب أربعمائة سنة". أبو حاتم سهل بن عثمان السجستاني، المعمرون والوصايا، مرجع سابق، ص٢١.

(٢) ابراهيم شمس الدين، مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام، ج١، مرجع سابق، ص١٤.

(٣) بعد أن استخلف زهير ابن أخيه عبد الله أنشأ يقول:

وكيف بمن لا أستطيع فراقه .. ومن هو إن لاتجمع الدار لاهف
أمير خلاف إن أقم لايقيم معي .. ويرحل وإن أرحل يُقم ويخالف

(٤) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٨.

(٥) برر البعض انتقال السلطة بين الأسر داخل القبيلة، بأن العصبية وإن كان هدفها الأسمى في مجال السلطة هو تحقيق المُلك، لكنها تعجز عن الاحتفاظ به، بسبب ما يكمن فيها من سلبيات، وبسبب الظهور الحتمي لعصبية أخري منافسة لها، وهذا كله يتحقق بواسطة القوة الغلبة، فالملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلابد من عوده إلي شعب آخر منها، مادامت لهم العصبية، فإذا انقرضت دولة فإنما تنتقل إلي من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي أونس منها الغلب لجميع العصبيات. بوزياني الدارجي، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط١، ٢٠٠٣، ص١٧؛ ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص ١١٥-١١٦.

(٦) د/خالد العسلي، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكرة، ج١، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ٢٠٠٨، ص٦٣.

(٧) برر ابن خلدون تولي أسرة معينة زعامة القبيلة قائلاً:"الملك بالعصبية والعصبية متآلفة من عصبيات كثيرة وتكون واحدة منها أقوي من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها، وبذلك يكون الاجتماع والغلب علي الناس.. ذلك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغبل منهم، وكان لهم علي سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك، ويستكينون لغلبهم". ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٣٧١،٣٢٩.

وإذا لم لا ترضي الأسرة الحاكمة بتسليم الزعامة للأسرة الأخرى، ففي هذه الحالة كانت العصبية والشرف والخصال التي لكل منها المحدد لزعامة القبيلة، فجميعهم يكون موضعاً للتفاخر والتنافر بين رجالات القبيلة لتحديد الشخص الجدير بتولي الرئاسة(١)، فالبرغم من أن المجتمعات البدائية يغيب عنها الصراع والتمايز والاختلافات، إلا أن ذلك يظهر بوضوح علي صعيد محدد وبصفة خاصة في مجال السلطة والنفوذ السياسي(٢).

فبالرغم من إقرار حق القبيلة في اختيار زعيمها، إلا أن الأعرف القبلية قيدت هذا الحق، بعدم وجود شخص في الأسرة الحاكمة استجمع صفات الزعامة، فإن توافر في هذه الأسرة مثل هذا الشخص، كان له التقدم والأولية في تولي المنصب، لا لكونه وارثاً له بل لكونه الأجدر به(٣)، فالقيادة والريادة تمنح للأفراد اعتماداً علي سماتهم الذاتية ومكانتهم الاجتماعية، وهو ما جعل الرئاسة غير وراثية بالضرورة، وإنما يمكن انتقالها من فرد إلي آخر شريطة أن يكون من أصلاء القبيلة(٤)، نظراً لنفور طباع العرب من أن يحكم القبلية أحد من غيرها(٥).

كما يمكن أن يفقد الزعيم القائم السيادة أثناء حياته دون حدوث ظروف اضطرارية، وذلك إذا فقد سيد القبيلة بعض الصفات الجوهرية لتولي الزعامة، أو قصر في حق قبيلته أو القبائل التي تقع في حمايتها، في هذه الحالات يُعفي من منصبه،

---

(١) محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج١، المكتبة التجارية، القاهرة، ط٤، ١٣٥٤ هـ، ص٢٣.

(٢) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٦١.

(٣) أنشد عامر بن الطفيل شعراً أكد فيه علي أنه لم يتزعم قبيلة عامر باعتباره وارثاً لأبيه الذي كان سيد قومه ولا لامه التي كانت أفضلهم، ولا عمه أبو البراء الذي سبق أبيه عامر في الزعامة، وإنما لخصاله الشخصية الذاتية، قائلاً:

وإني وإن كنتُ ابن سيد عامر.. وفارسها المشهور في كل موكبٍ
فما سودتني عامر عن وراثةٍ .. أبي اللهُ أن أسـمو بأم ولا أبٍ
ولكنني أحمي حماها وأتقـي .. أذاها وأرمـي من رماها بمنكـبِ

(٤) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٩٠.

(٥) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، مرجع سابق، ص٣٠-٣١.

وتنتقل المشيخة إلي شخص آخر تجتمع فيه الشرائط والصفات، وفي هذا دليل كافي علي أن شروط رئاسة القبيلة ليست شروط تولية فقط، بل هي شروط تقليد واستمرار، فالمنصب يدور وجوداً وعدماً مع استجماع الشخص هذه الصفات، وفي ذلك تطبيق للمبدأ العربي حكم الأفضل والألمع وأن القبيلة تختار سيدها(١)، فلا يوجد ما يمنع القبائل من أن تولي زعامتها، رجال استطاعوا بسجاياهم وكفاءاتهم أن ينتزعوا اعتراف الناس بفضائلهم وتقدمهم، عن قناعة ورضاء وطيب نفس(٢).

المبحث الثالث: سلطات رئيس القبيلة وواجباته

العصبية القائمة علي قرابة النسب كانت أساس زعامة القبيلة، لكن ليس هذا هو الوجه الوحيد للعصبية في السلطة، ذلك أن العصبية لها وجه آخر، فهي مبعث قوة حاكم القبيلة ومصدر سلطاته، فالشيخ في النظام القبلي يتعامل مع أفراد جماعته بناءً علي أنهم جميعاً ينتمون إلي نسب وقرابة واحدة، وهو ما سمح له بممارسة مظاهر السلطة الأبوية عليهم، وهو ما دعي بعض الفقه إلي القول بأن كل قبيلة كانت تطيع رئيسها في كل ما يأمرها به ولا تراجعه فيه، فلا يوردون إلا عن أمره ولا يصدرون إلا عن رأيه(٣).

غير أن سيد القبيلة ليس وحده المتصرف في شئون القبيلة، إذا وجد كيان قوي يعبر عن الرأي العام لها، موكل إليه اختيار الرئيس ومشاركة الحكم والإدارة، لذا كان العصبية دور أيضاً في تحديد مدي سلطات الشيخ واختصاصاته، فكلما كثير الأتباع وزاد موفور الأنصار، كانت الطاعة له أكثر والمعونة له أقوي، وكان قيامه بالمسئولية الملقاة علي عاتقه سهل ميسور(٤).

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ص٣٧.
(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، مرجع سابق، ص١٨.
(٣) عبدالمتعال الصعيدي، تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤.
(٤) أشار إلي ذلك معاوية بن مالك سيد بني كلاب قائلاً:
إني امرؤُ من عُصبة مشهورة .. حُشد لهم مجد أشم تليد
ألفوا أباهم ســـــيد وأعانهم .. كرم وأعمام لهم وجدود

فزعيم القبيلة هو يدبر أمورها ويدير شئونها، فهو المسئول الأول عن تنفيذ السياسات والخطط المرسومة، لذا كانت اختصاصاته تتسع لجميع شئون القبيلة الداخلية والخارجية، يعاونه في القيام بذلك جميع من مشايخ القبيلة وسادتها، فالتضامن يفرض عليهم جميعاً أن يضعوا أنفسهم في خدمتها، بالقيام بواجباتها والحفاظ علي حقوقها(١)، وبصفة خاصة شيخ القبيلة، ويدل علي ذلك القول العربي المأثور:"سيد القوم خادمهم"(٢)، فالقادة العظام لا يرغبون في القيادة لذاتها بقدر رغبتهم في خدمة شعوبهم وتحقيق مصالحها.

وعلي ذلك سنقسم هذا المبحث إلي مطلبين، المطلب الأول: إدارة شئون القبيلة الداخلية، المطلب الثاني: إدارة شئون القبيلة الخارجية.

المطلب الأول: إدارة شئون القبيلة الداخليـة

شيخ القبيلة هو المسئول عن تدبير معايش القبيلة واحتياجاتها، وإدارة أموالها وتنظيم استغلال مواردها، وتخطيط أنشطتها الاقتصادية وتنوعها(٣)، لذلك نجده يعمل علي توفير مصادر مختلفة للإيرادات، فيتولي فرض ضريبة الخوة جمعها، التي يقدمها أشباه البدو والفلاحون والتجار والقوافل المارة بإقليم القبيلة، ضماناً لحياتهم وحفظاً علي ثرواتهم وممتلكاتهم(٤)، وهو الذي يُعين مواضع الرعي، ويحدد مساحة الأرض المزروعة والمحاصيل(٥)، وهو الذي يوحد جهود القبيلة، وينسق بين أنشطة أفردها، ويوجه القوة

إذ تُحملنا العشـــــيرة ثقلها .. قمنا بـه وإذا تعود نعود

(١) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط ١١، ب . ت، ص٦١.

(٢) د/ عبدالحميد العبادي، صور من التاريخ الإسلامي"العصر العربي"، مرجع سابق، ص٨.

(٣) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، مرجع سابق، ص٣١.

(٤) كان البدو يشنون غارات مستمرة علي جيرانهم، من القبائل شبه الرحل وسكان الوحدات الصغيرة والقوافل العبارة لديارهم وحماهم، حتى أرغمت هذه القوافل علي أن تفتدي نفسها وتحفظ أموالها من هذه الاغارات، مقابل دفع إتاوة تسمي (خوة)، وبعد أخذ الإتاوة يطلق علي أخذها ودافعها(اخوين)، وغالباً ما كان يتوفر للحامي الأخذ قوة وعصبية، وعلي الدوام كان الشخص الحامي أحد الشيوخ أو العقداء أو قادة القبيلة، وفي الوقت المعاصر يفرض بعض المتنفذين ضريبة الخوة علي مواقف السيارات وعلي نقل البضائع وما إلي ذلك. معجم المعاني الجامع، مادة (خوة).

(٥) علي حسين حطيم، التنظيم الاجتماعي لنظم القبيلة البدوية، مرجع سابق، ص ٥٢٩.

البشرية والأيدي العاملة[١]، من الرجال والنساء والغلمان، مراعياً في ذلك قدراتهم العقلية والعضلية والفنية، بما يضمن مشاركة منسوبي القبيلة ومن دونهم من الموالي والرقيق في الأنشطة الاقتصادية والإنتاجية والخدمية المختلفة[٢].

ولما كانت البيئة الصحراوية البدائية قد منعت البدو من بناء بيوت ثابتة من الطين أو الحجر[٣]، يأوون إليها لحماية أنفسهم من أشعة الشمس وقيظ الحر أو زمهرير البرد، إذ كانت القبيلة لا تستقر في موضع ثابت بصفة دائمة[٤]، بل تتنقل في نطاق إقليمها وجنبات حماها بين الحين والآخر، بحثاً عن مناطق أغني قوتاً أوفر مياهاً، وبالرغم من ذلك فقد وفرت لهم هذه البيئة في نفس الوقت مواد طبيعية متعددة أكثر مناسبة مع طبيعة حياتهم[٥]، يصنعون منها خيامهم وخبائهم، كشعر الماعز، وأصواف الخراف، وأوبار الإبل، وجلود الأنعام، أو من الطين والحجارة غير المنجدة وغير المنمقة[٦]، بالإضافة إلي بعض أغصان الأشجار وسعف الخيل[١]، وذلك لتكون

---

(١) Richard Thurnwald: Economics in Primitive Communities, Oxford University Press, ١٩٣٢, P ٧٣.

(٢) حاول علماء الاجتماع دراسة العلاقة بين نظام الرق والمستوي المعيشي والنظام الاقتصادي في المجتمعات البدائية والقديمة من جهة أخري، واستخلص أن الرق يزداد في المجتمعات كلما تطورت اقتصادياً، أ وجود علاقة طرية بين عدد الرقيق وتطور النظام الاقتصادي، ففي النظام الاقتصادي القائم علي الصيد نسبة الرقيق ٢٪، وفي نظام الرعي ٧١٪، وحقق نظام الزراعة الراقية أعلي نسبة وهي ٧٨٪ . د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٧.

(٣) اعتبر البعض ذلك من عيوب البدو وليس البيئية، قائلاً:"البدو لا يفهمون الحياة حق الفهم، لا يفهمون البيوت وهندستها، ولا يفهمون فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية". حافظ وهبة، جزيرة العرب، مرجع سابق، ص١١.

(٤) لم تكن حياة القبائل ارتحالاً مستمراً أو ضرباً في الأرض علي غير هدي وإنما كان لكل قبيلة منازلها ومراعيها التي ترتادها في كل عام، بحسب توافر الماء والكلأ والظروف الجوية.

(٥) قال الرسولρ:"لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطراً، لا يكنّ منه بيوت المدر، ولا يكنّ منه إلا بيوت الشعر". محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٧، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ٢٠٠٢، رقم (٣٢٦٦).

(٦) يقول ابن المقفع:"إن العرب أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم". ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٧٩.

ملائمة لطريقة حياتهم، سريعة الإعداد والفك، خفيفة الحمل، سهلة الطي[٢]، قليلة التكاليف، ميسورة الصيانة، وفي بعض الأحوال كانوا يأوون إلي الغِيران والكهوف[٣].

كان تميز زعيم القبيلة يظهر في مواجهة المعضلات الجسام، وابتداع الحلول الجذرية للمشكلات المتوارثة التي تواجه القبيلة، بهدف عدم تعرض الجماعة لها مرة أخري في المستقبل، وكانت المعضلة الدائمة تتمثل في الظروف الطبيعية الصعبة، التي تواجه سكان الصحاري والفيافي القفار وتهدد حياتهم وتدمر اقتصادهم، وأهمها الجفاف وقلة المرعي وندرة مصادر المياه العذبة[٤]، بحيث أن أي ظروف تؤثر عليها سلباً يترجم تلقائياً إلي استحالة تأمين الغذاء الكافي للقبيلة أفراداً وقطعاناً، كما أن توفيرها يحقق الجزء الأكبر من عملية الاستقرار وبالتالي التطور والتنمية والتحضر[٥].

فالجماعات الصحراوية في معركة لانهائية ضد العطش والجوع[٦]، خاصة في شبه الجزيرة العربية، التي تعتبر من أكثر المناطق جفافاً وتعرضاً لخطر الإجهاد المالي في العالم، وتجنباً للظروف السيئة وتحسيناً للنظام الاقتصادي، كان علي رئيس القبيلة أن يستطلع موارد المياه العذبة ويبحث عنها، فيترقب نزول المطر وهطول الغيث[٧]، باعتبار المصدر الرئيس للري والسقي، وينقب عن المياه في أرجاء الديار[١]،

---

(١) أورد القرآن الكريم وصفاً دقيقاً لبيوت العرب، قال تعالي:﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾. سورة النحل، الآية رقم (٨٠).

(٢) وصف البعض بيوت عرب البدو قائلاً:"ذاهبين ببيوتهم علي ظهور مطاياهم ينصبونها حيث اعتمدوا الإقامة". الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج١، مرجع سابق، ص٨٢.

(٣) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٤٦.

(٤) جاء في قصة الحضارة:"إن نساء البدو يغسلن أطفالهن ببول الجمال.. ويمشط الرجال والنساء شعرهم الطويل بهذا الماء". ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، حاشية ص١٢.

(٥) عبر البعض عن جسامة مشكلة المياه لدي القبائل العربية وتأثيرها علي حياتهم، قائلاً:"إن البدوي في الصحراء لا يهمه إلا المطر والمرعي، فالأزمة الحقيقية للبدوي انحباس المطر وقلة المرعي، وهو لا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة". حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، مرجع سابق، ص٨.

(٦) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص١٤.

(٧) المطر هو الماء النازل من السماء ويأتي بالخير والنفع والضرر، وما ورد لفظ المطر في القرآن إلا بدلالة العذاب، أما الغيث فهو المطر الغزير، يأتي بالخير، ويغيث الناس من الجدب، وينجدهم

ليوفر آبار وعيون خاصة بالقبيلة دون غيرها، كحلول مستدامة وضرورة تحتمها النزعة الاستقلالية التي تسود النظام القبلي، إذ كانت معظم مياه الآبار والعيون آنذاك ملكية خاصة لأفراد أو قبائل(٢)، يتاجرون بمياهها أو يوقفها الخيرون من الأغنياء كعمل من أعمال البر(٣)، فإذا لم يتمكن من الوصول إليها داخل إقليم القبيلة، خاض المعارك من أجلها أو لجأ للهجرة لمنطقة تتوفر فيها، إن كان هناك سبيل لذلك(٤)، أو عقد أحلاف مع أقرب القبائل للحصول عليها(٥).

كما كان من واجب الشيخ استشراف الظروف البيئة والمعيشية المستقبلية، لتطويع المواتي منها وتحقيق أقصي استفادة من توافرها، وتجنب الهلاك والخراب الذي يسببه المدمر منها وحسر خسائرها في أدني مستوي، كل هذا منح شيخ القبيلة حق

من المرض وينصرهم من الهلاك، والعرب لا يفرقون بين المطر والغيث. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة(غيث)، ص٣٣٢٣.

(١) كان من الأسباب التي جعلت بعض القبائل تمنح زعمائها شرف الإمارة ومكانة الملوك، قيام هؤلاء الزعماء بحل مشكلة ندرة مصادر المياه العذبة، ومن هؤلاء قصي بني كلاب الذي احتفر في بطحاء مكة بئر العجول وجعله سُقيا لقريش والعرب إذا حضروا لزيادة الحرم، وكذلك حفيده عبدالمطلب الذي احتفر بئر زمزم خير ماء علي وجه الأرض، وما لبث أن أقام سقاية زمزم لحجاج البيت الحرام، ولفضل مياها علي سواها انصرف الناس كلهم إليها لفضائلها، وقد أكد ذلك ما ورد عن الرسولρ في فضلها، منها:"ماء زمزم لما شربت له"، "خير ماء علي وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعامٌ من الطُعم وشفاءً من السقم". محمد بن يزيد بن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ، رقم(٣٠٦٢)؛ محمد بن أبي بكر الزرعي "ابن قيم الجوزية"، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٤، تحقيق/شعيب الأرنؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٨هـ، ص٣٦٠؛ سليمان بن احمد الطبراني، المعجم الكبير، ج١١، تحقيق/ حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ص٩٨؛ عبدالرؤف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٣، المكتبة التجارية الكبري، القاهرة، ط١، ١٣٥٦هـ، ص٤٨٩.

(٢) د/ صالح احمد العلي، الإدارة في العهود الإسلامية الأولي، مرجع سابق، ص٦٤.

(٣) من ذلك أن النبيρ عندما قدم المدينة وجد مشكلة الماء العذب، فليس بالمدينة غير بئر رومة وكانت لرجل يهودي وكان يبيع القربة للمسلمين بمد، فقالρ:"من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له في الجنة" فاشتراها عثمانτ وجعلها للمسلمين الغني والفقير وابن السبيل. احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج٥، تحقيق/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز وآخر، دار الفكر، بيروت، ب. ت، ص٤٠٨.

(٤) حافظ وهبة، جزيرة العرب، مرجع سابق، ص٨.

(٥) د/عبدالحميد سلامة، قضايا الماء عند العرب قديماً، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٤، ص١٠٠.

الإشراف علي تنفذ الخطط المرسومة للحل والترحال[١]، في المواعيد المقررة والأماكن المحددة[٢]، ذلك أن الظروف البيئة في الصحراء سريعة التغير شديدة التقلب، الأمر الذي يستلزم الاحتياط لها، واتخاذ قرارات سريعة وحازمة لمواجهتها.

أيضاً تولي زعيم القبيلة بمعاونة جميع أفرادها، مهمة الأمن الداخلي والعمل علي استتباب الأمن، وحفظ النظام، وتقديس الآداب والعادات والتقاليد العربية السائدة[٣]، وإلزام الجميع التمسك بها[٤]، وصيانة تراث القبيلة وأمجادها[٥]، والعمل علي شيوع حالة الهدوء والطمأنينة فيها، بعقد مجالس الصلح وإنهاء الخصومات، وملاحقة مثيري الفوضى والقلاقل، والتخلص من جرائرهم وجناياتهم، بطردهم أو خلعهم، أو تسليمهم للمجني عليهم أو ذويهم، بما له من سلطة الأمر والنهي[٦]، بالإضافة إلي تحمل تبعة القتل، بدفع الدية في حالة عجز القاتل وذويه عن دفعها[٧].

(١) محمد بن عبد الله بن احمد ألأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من آثار، مرجع سابق، ص٨٤.
(٢) علي حسين حطيم، التنظيم الاجتماعي لنظم القبيلة البدوية، مرجع سابق، ص٥٢٩.
(٣) يري البعض أن أهل العارض يفضلون علي غيرهم بالمحافظة علي الشمائل العربية الأصيلة. حافظ وهبة، جزيرة العرب، مرجع سابق، ص٧.
(٤) ذلك أن المجتمع المغلق غير المتمدن يرفض الغرباء وعاداتهم الغريبة باستعلاء، ويحرص بقوة تعريف الإنسانية كلها من خلال سمات جماعته المحلية. أشيلي مونتاغيو، البدائية، ترجمة د/محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٢، ص٢٣.
(٥) أدي تمسك عرب الجاهلية الشديد بعاداتهم وتقاليدهم إلي جعلهم يعدون من استحسن قبيحاً شريكا في الجرم. احمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، ج١، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ، ص٢٤١.
(٦) د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٥٦.
(٧) أقر الإسلام نظام تحمل أقارب الجاني الدية، كاستثناء من مبدأ شخصية العقوبة، تحت مسمي العاقلة، ففي حالة القتل الخطأ وعدم قدرة الجاني دفع دية القتيل، لا يهد دم القتيل بل تتحمل عاقلته ـ أقارب الجاني وعصبته من قبل الأب وإن بعدت درجة قرابتهم به كلهم يعقلون، ويتقدم الأقربون كشأن الميراث، بحيث يبدأ بالأقربون فإن عجزوا ضم إليهم الأقرب فالأقرب من عصبة النسب ـ دية القتيل، لمجرد كونهم عصبة، سواء كانوا وارثين بالفعل أو بالقوة، لأن ذلك يحقق مصلحة عامة ويزيد من عري التعاون والتماسك بين أفراد المجتمع، وفيه تناصر بين الناس، فلولا استنصار الجاني باسرته وعصبته لتثبت وتريث في الأمر وصدرت أفعاله عن وعي تام، لذلك عد الشارع الجناية منسوبة ضمناً إلي كل فرد من أفراد العاقلة، لتقصيرها في القيام بدورها في التربية والتوجيه والإرشاد.

وقد حاول البعض تبرير قيام شيخ القبيلة بدفع دية القتيل بالرغم من أنه ليس القاتل، بالربط بين الدية وبين الواجبات الملقاة علي عاتق الشيخ، وبصفة خاصة إذكاء روح الألفة والتعاضد(١)، قائلاً:"إن الزعيم هو صانع السلم، وإنه الأداة التي تعمل علي نشر الاستقرار والاعتدال بين الجماعة.. وفي حال فشل الزعيم عن إقامة الصلح بين الفئات المتنازعة، تراه عاجزاً أن يحول دون انقلاب هذا النزاع إلي فتنة"، وقد أكد ذلك كلاستر قائلاً:"هنا تحديداً ـ أي في حل لمنازعات ـ تتدخل وظيفة الزعيم الكبرى، إنه المهدئ أو الناظم للاختلافات"(٢).

وللدلالة علي سلطة شيخ القبيلة واختصاصه بتحقيق الطمأنينة والسكينة، كان يتخذاً لحقه في الأمر والطاعة والسيطرة علي الأفراد وجبرهم، رمزاً يدل علي قيامه بإنفاذ الأعراف والتقاليد القائمة، هو حمل سيد القبيلة قضيباً أو عصا متميزة، يعرفها أفراد القبيلة والقبائل الأخرى بها، وذلك بصفة دائمة حتى أنها لا تكاد تفارق يده إذا خرج أو انتقل أو رأس مجالساً أو وفداً(٣)، فهي من علامات السلطة وشارات الرئاسة ورمزاً للقوة والنفوذ(٤)، يستخدمها الشيخ أيضاً في مجال الحكم والصلح، للإشارة إلي المتخاصمين وتحديد المخطئ، والتخطيط بها علي التراب في نزاعات الأراضي والمراعي ورسم حدود الديار والحمى، وهي أيضاً سوطاً للعقاب وسلاحاً للجزر، يؤدب

(١) قال الشاعر عبدة بن الطبيب:

ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم .. إن الضغائن للقرابة توضع

واعصوا الذي يزجي النمائم بينكم .. متنصحاً ذاك السمام المنقع

(٢) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، المرجع السابق، ص٦٢، ٣١.

(٣) إمساك شيخ القبيلة بالعصا بصفة مستمرة جعل البعض يصفها بأنها مكوناً أساسياً له وكأنها يد أو رجل إضافية لا يمكن الاستغناء عنها.

(٤) كان من شارات السلطة والحكم في الجمهورية الرومانية، حمل القنصل في يده دائماً عصا الملك (الصولجان)، لا يتخلى عنها إلا أثناء الحداد العام وأمام كبار الشخصيات العامة وأثناء دعوته لحضور اجتماعات المجالس الشعبية، بالإضافة إلي إحاطته بمجموعة من الحراس يحمل كل منهم مجموعة من العصي علي كتفه الأيسر، كرمز علي خضوع سلطة القناصل للقانون، واستمرت هذه المظاهر في العصر الإمبراطوري، فكان أغسطس يصحبه دائماً اثني عشر حارساً حاملاً للعصي، بناءً عليه لا نستبعد أن يكون هناك جذوراً غربية لظاهرة حمل شيوخ القبائل العربية عصاً ف يدهم بصفة دائمة.

بها الخارجين علي القيم المارقين عن آداب الجماعة[١]، باعتباره المسئول الأول عن صيانة قيم الجماعة وعادتها الأساسية[٢].

وعلي الرغم من أن غالبية القبائل العربية لم تكن تُلقي بالاً للتنازع وتحسب حساباً للحرب والاقتتال، وترد الصاع صاعين[٣]، إلا أن بعضهم ـ بصفة خاصة التي كانت تمارس التجارة ـ قدمت أمن القبيلة واستقرارها علي الثأر والانتقام العشوائي، وأحلت محله بدائل تقلل أو تمنع رغبة الانتقام والتشفي لدي جماعة القتيل، فلجأت بعض القبائل التي ينتمي إليها الجاني، إلي حصر الجريمة في نطاق ضيق، من خلال تسليم القاتل أو أحد أفراد قرابته الأقربين إلي جماعة القتيل لتقتص منه، فتقتله بقتيلها، وغالباً ما يحدث ذلك إذا كان هناك ثمة علاقة تربط بين القاتل والقتيل، كأن يكون الاثنان أعضاء في ذات القبيلة، أو كانا من قبيلتين مختلفتين لكن بينهما علاقات ودية وأرادتا المحافظة عليها والحيلولة دون تدهورها.

ولما كان للنظام الطبقي السائد في المجتمع الجاهلي، تأثر كبير علي النظام العقابي، بحيث ترك لكل قبيلة أن تقدر قيمة مقتولها بما تراه مكافئاً له من القتلى[٤]، ولها أن تطلب من جماعة القاتل تسليمها القاتل أو من تراه يكافئ القتيل في المكانة الاجتماعية لتقتص منه[٥]، ولها أن تنشد القتال حتى تُفني جماعة القتيل، وما تري أن ذلك يعدل قتيلها[٦]، تطبيقياً لذلك أن جساس بن مُرة الشيباني عندما قتل كُليب بن ربيعة سيد قبائل تغلب وبكر، عرضت قبيلة تغلب علي قبيلة مُرة الاختيار بين أحد

---

(١) لمزيد من استخدامات العصا عند العرب يرجع إلي: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ب. ت.

(٢) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٥٠.

(٣) عبر عن ذلك بجلاء عمرو بن كلثوم التغلبي ـ سيد تغلب وفارسها وشاعرها، قائلاً:
ألا لا يجهلن أحد عليان .. فنجهل فوق جهل الجاهلينا.

(٤) أوضح أبي الخطار انتقامه لأحد أقاربه، قائلاً:
فليت ابن جواس يُخبر أنني .. سعيت به سعي امرئ غير غافل
قتلت به تسعين تحسب أنهم .. جذوع نخـــــل صُرعت بالمسايل

(٥) يقول عمرو بن كلثوم التغلبي:ونحن الحاكمون إذا أُطعنا .. ونحن الآخذون لما رضينا.

(٦) يقول الشاعر سوار بن حمدون:"قد قتلنا منكم ألوفا فما .. يعدل قتل الكريم قتل العبيد".

ثلاث ليتجنبوا الثأر واستعارة الحرب بينهم، هي إما أن يسلموا جساس لهم ليقتلوه، باعتبار أنه القاتل والقصاص منه أولي وأوفي، وتطبيق عملي لمبدأ المعاملة بالمثل السائد بين القبائل، وفي نفس الوقت هو زعيم القبيلة ومكانته تكافئ مكانة القتيل، وإما أن يُسلم مرة والد جساس نفسه لهم ليقتصوا منه، وأما تسلم همام أخو جساس إليهم، إذ أن قتل أياً منهم فيه وفاء بدم كُليب(١).

والملاحظ علي طبيعة الجرائم في المجتمع القبلي، ندرة جرائم الأموال العقارية والمنقولة، في مقابل ذيوع جرائم النفس، والتي كان الثأر هو الوسيلة الجابرة للضرر، لكن بعض القبائل حاولت الإبقاء علي قدرتها البشرية، بتجنب رغبة الانتقام فاستبدلتها بدفع الدية، وهي قدر من المال يدفعه أقارب القاتل وأهل نصرته الذكور(العاقلة) إلي أهل القتيل(٢)، ففي غالب وقائع القتل الخطأ، وبصفة خاصة التي تقع بين الأهل والأقارب داخل القبيلة، كانت الدية بديل يرضاه ذوي القتيل(٣)، وكانت الدية تتمثل في عدد رؤوس الإبل، علي أن عدد إبل الدية يختلف باختلاف ثروة القاتل، والمكانة الاجتماعية للقتيل ومدي أصالته بالنسبة للقبيلة(٤)، وأحياناً تكون الدية مال آخر غير الإبل، كحائط نخل أو أطم أو كمية من التمر(٥)، أو طائفة من ديار قبيلة القاتل(٦)، وإذ

(١) محمد جاد المولي، أيام العرب في الجاهلية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٢، ص١٥٣.

(٢) العاقلة هم عصبة الشخص الذين يرثون بالنسب، وفي المقابل كان العرب يحملونها بالدية، اعملا لمبدأ الغرم بالغنم، يقول الشاعر: سأحملها وتعقلُها غَني .. وأورث مجدها أبداً كلابا. المفضل بن محمد بن بعلي الضبي، المفضليات، مرجع سابق، ص٣٥٩.

(٣) ساعد علي قبول الدية أن بعض القبائل لم تكن تعتبر القتل جريمة يحاكم عليها مقترفها وفق العادات والتقاليد إذا كان القاتل قد قام بجريمته لأول مرة. د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٧٢.

(٤) كانت دية الصريح عشراً من الإبل بينما كانت دية الحليف خمس من الإبل فقط. د/ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص١٢٤.

(٥) د/ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، المرجع السابق، ص١٢٤.

(٦) كانت الدية التي أداها بني زريق بن عامر إلي بني حبيب نظير قتلهم عمهم حبيب بن عبد حارثة، زقاق من الديار سمي زقاق الدية. نور الدين علي بن عبدالله السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفي، ج١، تحقيق د/ قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان، ط١، ١٤٢٢هـ، ص ٣٧١.

عجز القاتل وذويه عن دفع الدية، فإن الزعيم كان يقوم بدفعها من ماله الخاص تحقيقاً لأمن واستقرار القبيلة.

وحفظاً للأمن وتثبيتاً للاستقرار كان زعيم القبيلة أول من يعفوا عن حقه تجاه أفراد قبيلته حافظاً علي أواصر القربى، من ذلك أن أُمة بن حرام كان سيداً مطاعاً في بني سلمة، حتى هلك أحد أشرافها ولم يُعقب إلا ولداً واحداً يدعي صخر، وترك له مال كثير يزيد عن حاجة الولد، فأراد أمة أن يأخذ منه جزء من المال يرده علي فقراء القبيلة، فرفض صخر ذلك لكن أمة نفذ ما اعتزم عليه، فضربه صخر وقطع حبل عاتقه، واحتمي بأهله من بني عبيد وبنو سواد، فنذر أمة ألا يؤويه ظل بيت ما عاش، حتى يقوم بنو سلمه بقتل صخر أو يأتوه به فيري فيه رأيه(١)، فقام بنو عبيد وبنو سواد بتوثيق صخر وأحضروه إلي أمة فعفا عنه(٢).

وحفاظاً علي الهدوء والنظام داخل القبيلة، قد تلجأ زعيم القبيل ومجلسها أحياناً إلي إبعاد وإجلاء القاتل أو القاتل ذويه منها، تجنباً لحدوث احتكاك واشتباك داخل القبيلة، بينه وأسرته وبين أهل القتيل، ويكون ذلك إذا ارتضت أسرة القاتل فعله وأقرته وأصرت علي مناصرته، غير عابئة بالمصالح العليا للقبيلة، فكانت القبيلة تطرد أسرة القاتل جميعهاً خارجها، ومن ذلك أن بنو جحجبا وهم جماعة من بني عمرو بن عوف، كانوا في أول أمرهم يسكنون مع أبناء عمومتهم بني عمرو بن عوف، لكنهم لم يعطوا الجوار حقه وقتلوا رجلين من أبنا عمومتهم، فطردتهم القبيلة من ديارها(ديار قبيلة الأوس)، فانتقل بنو جحجبا جميعاً إلي منطقة العصبة بالقرب من قباء، كما أجلت قبيلة بني الأشهل بن الحارث(من الأوس) من ديارها، أبناء عمومتهم بنو حارثة

---

(١) أنشد أمة بن حرام، قائلاً:

إن قومي أجمعوا لي أمرهم .. ثم نادوا لي ضخراً فضـــرب
إنني آليت لا يســـــترني .. سـقف بيت من حرور ولهب
أبداً ما دام صـــخر آمناً .. بينهم يمشي ولا يخشي العطب

السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفي، ج١، مرجع سابق، ص ٣٦٥.

(٢) د/ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٦٣.

بن الحارث بن الأوس عن مساكنهم، عندما قتل مسعود الحارثي سماك بن عتيك بن رافع الشهلي[١].

ولما كانت القبيلة تضم الكثير من العشائر والعديد من البطون والأفخاذ، كان من واجب رئيس القبيلة في حالة نشوب خلاف بين هذه الوحدات بعضها البعض، تنذر بوقوع مشاحنات وفرقة قبلية، أن يبادر بالقيام بالمساعي اللازمة، لإصلاح ذات البين، بهدف نبذ الخلاف وتأليف القلوب وتوحيد الكلمة ولم شعث القبيلة، مستعيناً في ذلك بالجهود الحثيثة لشيوخ العشائر وأصحاب الشرف والقدر فيها[٢].

المطلب الثاني: إدارة شئون القبيلة الخارجية

النظام السياسي في الجزيرة العربية قبل الإسلام لم يخضع لسلطان دولة واحدة[٣]، فلم يكن هناك نظام سياسي موحد، أو تنظيم سياسي مركزي شامل، أو حكومة مركزية قوية تفرض سلطانها علي كافة القبائل، إذ أنهم أبد الخلق عن سياسة الملك[٤]، لذلك تداخلت وتضافرت عوامل عديدة في تحديد طبيعة الصلات بين القبائل، فالبيئة القاسية قليلة الموارد الاقتصادية، والعصبية القبلية جعلت التضامن واجب مقدس ملزم للجميع، والعلاقات الاجتماعية من مصاهرات وإجارات، بالإضافة إلي تنوع فنون الشعر، وذيوع المنافرات والمفاخرات، كل هذه العوامل ساهمت في رسم التعاملات بين القبائل، وتحكمت بشكل واضح في تحديد طبيعة العلاقة بين القبائل العربية من حرب أو سلم.

---

(١) د/ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، المرجع السابق، ص٥٩.
(٢) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٦١.
(٣) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٩٢.
(٤) برر صاحب بدائع السلك عدم اجتماع العرب في مجتمع سياسي منظم متطور، بأمرين الأول: أن خلق العرب المتوحش أدي لصعوبة انقياد بعضهم لبعض، الثاني: أن من طبيعتهم الاقتصار علي ما بأيدي الناس من غير التفات لما وراء ذك من وجوه الرعية لهم، وذلك مناف للسياسة وعائد بخراب العمران، وحينئذ فظاهر أنهم أبعد الخلق عن سياسة الملك. ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص ١٠٨.

الفرع الأول: العلاقات القبلية في حالة الحرب

المقاتلة من الأمور الطبيعية في المجتمع البشري، فمنذ بدء الخليقة والإنسان في صراع مع غيره من بني جنسه، إذ بدأ حياته علي هذه البسيطة بالصراع والقتال، فاستهل التاريخ الإنساني أحداثه بالجناية العظمي، لأسباب توجب ذلك أو لتحقيق ورغبات ونزعات إنسانية(١)، ورسخت الحياة البدائية في عقيدة الإنسان ووجدانه أن استمرار بقائه يعتمد كلياً علي القتل(٢)، لذلك تبدو الجماعات والأمم القديمة دوماً وكأنها مولعة بتعاطي الحرب، فلا يؤتمن إلا أصاحب البطش(٣)، ولا يبقي سالماً إلا ذوي المهابة والقوة(٤).

لذا لم تخل أمة من هذه الأمم من مظاهر العنف الجماعي المسلح الهجومي أو الدفاعي(٥)، فالنزاعات المسلحة الدائمة هي سمة لجميع المجتمعات القديمة، الشرقية منها والغربية، حتى أن بعض الفلاسفة ذهب إلي المجتمعات البدائية وجدت من أجل

---

(١) يري ابن خلدون أن اقتتال البشر حادثاً طبيعياً محتوماً أراده الله، قائلاً:"الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض البعض، ويتعصب لكل منهما أهل عصبيته .. وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل". أبن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٤٥٧.

(٢) أسلوب الحياة البدائية القائم علي صيد الحيوانات قتلاً، وجني الثمار فصلاً، وحصد المزوعات قطعاً، جعل الإنسان في عهوده الأولي يعتقد أن بقاء حياته مرهون بالقتل والتغذي علي الموت، وقد صف الفيلسوف توماس هوبز شكل الحياة الإنسانية السابقة علي وجود المجتمع السياسي المنظم، وبصفة والمجتمعات التي استمرت في الحياة البدائية ولم تستطيع الانتقال إلي التمدين، بأن حياتها كانت حرب من الكل ضد الكل، وصراع من كل إنسان نحو كل إنسان، فكل الإنسان ذئب في مواجهة أخيه الإنسان، د/ إمام عبدالفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٣) جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، ترجمة/ حسن جلال العروسي الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ب. ت، ص٥٤.

(٤) يقول معاوية:"إن دروع هذا الحي من قريش إخوانهم من العرب، المتشابكة أرحامهم تشابك حلق الدرع، التي إن ذهبت حلقة منه فرقت بين أربع، ولا تزال السيوف تكره مذاقة لحوم قريش ما بقيت دروعها معها، وشدت نطُقها عليها، ولم تفك حقلها منها، فإذا خلعتها من رقابها كانت للسيوف جزرا". ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٧٧.

(٥) الحرب هي نقيض السلم، وجمعها حروب، والحرب هو قتال مسلح بين قومين أو أكثر، يكيد فيه كل من الطرفين المتعاديين لخصمه، والحرب تحوي القتل والسلب والنهب. سميح عاطف الزين، تفسير ألفاظ القرآن، الدار الإفريقية العربية، لبنان، ط٤، ٢٠٠١، ص٢١٤.

الحرب، فما من مجتمع بدائي مهما كان نمطه ونظامه ووسطه البيئي وقيمه العليا، يجهل أو يرفض نشر العنف وقيام الحرب(١).

وليس شرطا دائماً أن تخوض الجماعة مضمار الحرب عن إرادة حرة مختارة، ففي أحيان كثيرة كانت تدفع إليها وتضطر لخوضها، فقد يكون الانغماس في القتال تنفيذاً لإرادة عليا أو تلبية لفريضة مقدسة، تدفع البشر لأن يقتتلوا فيما بينهم حتى تكون الغلبة لفئة علي أخري(٢)، فقد حفظ لنا التاريخ صوراً عديدة من الصراع الدامي بين أكبر الأمم وأبرزها حضارة، منذ الماضي السحق وحتى يومنا هذا، إذ استطاعت الإمبراطوريات الكبيرة تحقيق مصالح سياسية واقتصادية واجتماعية جمة، من توريط المجتمعات العربية في المعارك والمشاحنات، وخير دليل علي ذلك قيام الفرس والبيزنطيين بإدخال عرب الحيرة والغساسنة في الخصومات والحروب الناشبة بينهم(٣)، فلا تثريب علي العرب القدامى أن يقتتلوا فيما بينهم أحر القتال، أعواماً مديدة وأزمنة طويلة(٤).

بل أن العرب في العصر الجاهلي تميزوا عن غيرهم بأنهم كانوا مولعين بالحرب عاشقين لها، حتى أنهم ألفوا العنف والقتال، إذ يشب الأطفال علي تعاطيهما(٥)، فحياتهم حياة حربية تقوم علي سفك الدماء، حتى لكأن الحرب أصبحت

---

(١) يقول كلاستر"المجتمعات البدائية مجتمعات عنف، والكينونة الاجتماعية البدائية هي كينونة من أجل الحرب، فالثابت بأنه لا يمكن عقل المجتمع البدائي من دون عقل الحرب بوصفها معطي مباشراً من معطيات السوسيولوجيا البدائية". بيار كلاستر، أثريات العنف أو الحرب في المجتمعات البدائية، مجلة الفكر العربي، مجلد(٥)، عدد(٣٣)، ١٩٨٣، ص ١٠٣.

(٢) قال تعالي:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾. سورة البقرة، جزء من الآية رقم (٢١٦).

(٣) اغناطيوس غويدي، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة/ ابراهيم السامرائي، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٤٤.

(٤) أرجع بعض المؤرخين القتال المستمر بين القبائل شبه الجزيرة العربية إلي قسوة البيئة وشدة الطبيعة. ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص٧-٨.

(٥) يقول عمرو بن كلثوم التغلبي:إذا بلغ الفطام لنا صبي .. تخر له الجبابرة ساجدينا، وأكد ذلك البلاذري قائلاً:"كان شبة الحمد بن هاشم وهو ابن سبع سنين يرمي مع صبيان يثرب، فلما تمكن من إصابة هدفه، صاح فيهم قائلاً: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء". البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، مرجع سابق، ص١١٨.

سنة من سننهم[١]، فهم دائماً قاتلون أو مقتولون، فجُل حياتهم بين هذا وذاك، لا يفرغون من دم إلا إلي دم[٢]، ونري أن ذلك لم يكن بحسب الأصل حُباً فيها لذاتها ولا حُباً في إراقة الدماء، ولا رغبة في إثارة الهلع والفزع في النفوس، وإنما بسبب ظروف الحياة القاسية وما أحاط بهم من فقر وفاقة وقلة الموارد وما أصابهم من الحرمان، أو لتؤكد القبيلة من خلالها كرامتها وحريتها وسيادتها، فقوة القبيلة وشدة مراسها يشهد عليه قدرتها علي الحرب، والسبق إلي البدء بالإغارة، لذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى، وكانت الفروسية المقترنة بالمروءة مصدر للعزة والفخار[٣]، بالإضافة إلي نظرتهم الدونية والانتقاص من شأن القبيلة التي تكره الظلم، ولا تسعي إلي الشر ولا تطلبه، إذ أطلقوا عليها"قُبيلة"[٤].

لذا اعتاد المتخصصون في التاريخ العربي الربط بين البداوة والشجاعة في القتال[٥]، كما اعتاد الكتاب وصف العرب الأوائل ـ بسبب بداوتهم ـ بالجهالة

---

(١) أرجع البعض استمرار القتال واحتدامه في المجتمعات الفطرية، إلي عدم ميول هذه المجتمعات إلي ما يوجد في المجتمعات الحضرية من طلب الثراء أو الثقافة أو الاستمتاع بالفنون الجميلة بالإضافة إلي عدم الاهتمام بالبناء والتشييد. غاستون بوتول، ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية، ترجمة/ عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥، ص٦٦.

(٢) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٦٢.

(٣) البيئة الصحراوية القاسية جعلت العربي رجلاً خشناً قوياً، صحيح الجسم شجاعاً يطلع بالمهام التي فرضتها عليه بيئته، فهو يكتسب صحة البدن وقوته من هواء البادية الطلق النقي، ومن أشعة الشمس الساطعة علي الدوام، والحركة والتنقل الدائم مرنه علي ضبط النفس واحتمال الصعاب والمشاق، فالشجاعة طبع فطر عليه العربي منذ نعومة أظفاره، كل ذلك جعله يظهر تفان في الدفاع عن نفسه وقبيلته ممتلكاتها وأعراضها، لذلك قال عنترة بن شداد في معلقته:

يخبرك من شـــهد الوقيعة أنني .. أغشي الوغي وأعف عند المغنم
في حومة الحرب التي لاتشتكي .. غمراتها الأبطال غير تغمـغم
لما رأت القوم أقبل جمعـــهم .. يتذامرون كـررت غير مذمـم
فشككت بالرمح الأصـــم ثيابه .. ليـس الكريم علي القنا بمحرم
فتركته جزر الســـباع ينشنه .. يقضمن حسن بنانه والمعصـم

(٤) للتصغير والتحقير من شأنها واعتبارها ضعيفة فاقدة القدرة علي الغدر أو الظلم. د/خالد بن عبدالرحمن الجريسي، العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، مرجع سابق، ص٤١-٤٢.

(٥) يقول ابن خلدون:"أن الأمم الوحشية أقدر علي التغلب ممن سواها، وأنه لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة، فأنه كلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم". ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٧١.

والوحشية[١]، إذ اعتادوا الاقتتال حتى وصموا بالنزال والمجالدة[٢]، فقد حفلت أيامهم وسيرهم ووقائعهم بالتطاحن والتشاحن والتنافر المستمر[٣]، حتى أن بعض المؤرخين لم يجد للجاهليين ميزة يوصمون بها غير هذا المجال، فاختصر كل تاريخهم في الحروب، قائلاً:"أن تاريخ العرب في الجاهلية هو تاريخ حروبهم واقتتالهم"[٤].

ساعد علي ذلك أن نمط القواعد الأخلاقية في البيئة الصحراوية نادرة الموارد، التي لم تنكر كثير من أفعال الاعتداء علي الآخرين، ولم تسعي إلي معاقبة من يسطون علي ملكية غيرهم، بل أنها عاقب من يرفضون اقتسام الطعام وضرورات الحياة الأخرى، إذ أنه في ظل العوز الدائم والحاجة الملحة، كان لرفض التشارك في الموارد تأثير شديد علي فرص البقاء علي قيد الحياة، أيضاً استنكار العرب ورفضهم الموت ميتة طبيعية علي الفراش، ورهبتهم من الموت بعيداً عن ميدان المعارك ووغي القتال[٥]، واعتقادهم أن الذِكر الخالد والشرف كله والتعظيم، من نصيب من يموت في ساحات النزال، ضرباً بسيف أو رمياً بسهم أو طعناً برمح، فمن سقط في المعركة وخلد إلي السكون لم يمت، وإنما الميت الحقيقي هو الذي يبق يعاني الحياة البائسة[٦].

---

(١) د/عبداللطيف الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام،ج١، مرجع سابق، ص١٢.

(٢) حاول البعض إرجاع فنون الحرب والقتال لدي عرب قبل الإسلام إلي الدولة البيزنطية، قائلاً:"كان العرب قد نظروا من قرب وتعلموا من هذه المصادمات الحربية الفن الحربي علي يد أولئك السادة . أي البيزنطيون ـ الذين أتقنوا هذه الصناعة في تلك العصور". اغناطيوس غويدي، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، مرجع سابق، ص٤٤.

(٣) أطلق علي منازعات القبائل العربية قبل الإسلام "أيام العرب" لأن حروب العرب غالباً ما كانت تقع في يوم واحد وتنتهي بانتهائه، وإذا استمرت لأكثر من يوم فإنهم كانوا يستريحون ليلاً ويواصلون القتال في اليوم التالي، وقد حاول بعض الرواة القدماء إحصاء أيام العرب فوجد أنها تجاوزت ألف وسبعمائة يوم. منذر الجبوري، أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص٩٣.

(٤) ابراهيم شمس الدين، مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام، ج١، مرجع سابق، ص٤.

(٥) عبر عن ذلك الفكر العربي الذي ظل متغلغل في النفوس حتى بعد الإسلام، القائد المغوار خالد بن الوليد، قائلاً:"لقد شهدت كذا وكذا زحفا وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية سهم أو طعنة رمح، ها أنذا أموت علي فراشي حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء". أ. أكرم، سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة/صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤، ص٥٢٧.

(٦) يقول الشاعر ابن أبي الرلة: ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء. اغناطيوس غويدي، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، مرجع سابق، ص٣٧.

كما نظر العرب إلي قبول الدية كأنه سُبة أو نقيصة تجلب المعرة والخذلان علي التي تتلقاها، ودليل علي وهن القبيلة وعدم قدرتها علي استرداد حقوقها المسلوبة، ومن شأن قبولها طمع القبائل في القبيلة التي رضيت بأخذ الدية(١)، لذلك لم تكن الدية تجد قبولاً إلا بعد تفاقم الأمر، وبعد أن تكون الحرب قد أتت علي معظم الحرث والنسل(٢)، كذلك نظر العرب إلي أسلاب الحرب علي أنها متحصلات مشروعة، من نشاط تفتخر به القبيلة وتُرغب فيه الأعراف المتوارثة، وليس من قبيل السطو أو اللصوصية المذمومة، التي تنفر منها الأخلاق وتعاقب عليها القواعد المرعية(٣).

لذلك كان معظم حروب العرب يجرها نزاع بين أفراد من قبيلتين مختلفتين، وبعضها لم يكن له أسباب محددة واضحة، وأحياناً ليس لها أسباب(٤)، فمجرد الشعور بالخطر كان الجميع ينتفض مُشهراً سلاحه مُقبلاً علي القتال(٥)، أما غالبها فكان له دوافع مختلفة منها ما هو اقتصادي(٦)، ومنها ما هو اجتماعي(١)، ومنها ما كان له أسباب دينية(٢)، والكثير منها مرجعة أسباب سياسية وجغرافية(٣).

---

(١) بعد هزيمة قبيلة تميم من هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة، شعرت القبائل المجاورة بأن تميم ضعفت وأصبحت لقمة سائغة، فطمعت في خيلها وإبلها ونسائها، فعقد بنو الحارث ومذحج وقضاعة حلف لسلب تميم. محمد جاد المولي، أيام العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص١٢٤.

(٢) من ذلك أن قيس لم تقبل الدية من كنانة في عشرين من قتلاها إلي بعد أن قتل من أشرافها وحدهم مائة رجل. محمد بن حبيب البغدادي، المنمق في أخبار قريش، تصحيح/ خورشيد احمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص١٧٨.

(٣) اعتبر البعض إتباع عرب الجاهلية طرق آباءهم وأجدادهم دون تمييز بين الصالح والطالح، أحد مظاهر العصبية القبلية. د/خالد بن عبدالرحمن الجريسي، العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، مرجع سابق، ص٤٠-٤٢.

(٤) أشار عمرو بن كلثوم التغلبي، إلي إمكانية نشوب القتال بين العرب بدون أي سبب، قائلاً:

لنا الدنيا ومن أمسي عليها .. ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظلمـــنا .. ولكنا ســـــــنبدأ ظالمين

(٥) من أمثلة هذه المشاحنات في وقنا الحالي الحروب الإستباقية أو الوقائية، التي تشنها بعض الدول والأحلاف قبل حدوث اعتداء فعلي، بهدف اكتساب ميزة إستراتيجية، تتمثل في كسر شوكت الخصم الآخر، وضمان التفوق الدائم عليهم.

(٦) غالبية البيئة في شبه الجزيرة العربية صحراء قليلة الموارد شحيحة النباتات، جعلت القبيلة التي لا تملك ما يؤمن موارد الرزق والمعيشة لها، تري أن من حقها أن تأخذ ممن تملك، فإذا لم تجد بغيتها لدي أعدائها، أغارت علي جيرانها وذوي قرباها، وأخذت إبلها وماشيتها ومتاعها وسبت نسائها

ذلك أن حدود ديار القبائل وحماها لم تكن محددة بشكل دقيق(٤)، وفي نفس الوقت كانت حرية التنقل سمة عامة في المجتمع البدوي، إذ قلما تثبت القبيلة وتستقر في مكان واحد لا تبارحه أبداً، بل تنتقل من إلي مكان آخر، بحثاً عن أماكن أكثر مؤنة وأرغد معيشة، لتوفير موارد الرزق اللازمة لإطعام أفرادها وقطعانها، وهو ما لا يمكن الحصول عليه إلا بالترحال والضرب إلي مناطق بعيدة(٥)، مما دعي بعض

وأولادها، وكان هذا السلوك يزيد في سني الجدب والقحط، أوجز الأفغاني الظروف الاقتصادية قائلاً:"فالسماء شحيحة ما تنبض بقطرة، والأرض مجدبة ما تهتز عن خضرة، والموارد ناضبة لاتسعف، وأجزاء البلاد يُزجي فيها السموم وتبث بينها العقارب، حتى خبطها فتنة عمياء تتكر فيها الساحلي للداخلي، وتهجم العربي علي العربي". سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٣٧، ص٦.

(١) كانت فكرة الأخذ بالثأر وطلب الدم لدي عرب الجاهلية، شريعة مقدسة تشبه الديانة، لذلك لايمكن لأي فرد فضها أو الوقوف ضدها أو تبديلها، بل كان أولياء الدم يحرمون أنفسهم من متاع الدنيا الخمر والنساء والطيب، حتى يثأروا من غرمائهم، والثأر ليس مجرد حق لأقارب القتيل بل هو واجب عليهم نحو القتيل، وهذا الواجب يثبت علي أقرب الأقربين للقتيل، فإن تقاعس عنه أصبحت سيوف العشيرة والقبيلة مسلولة للقيام به، إذ أن عدم الأخذ بالثأر عار يلحق القبيلة بأثرها، ويظهرها بمظهر الجبن والتخاذل، وكان ذوي القتيل لا يكتفون بالثأر من القاتل وحده، مما يجعل نار الثأر تظل مستعرة، تتوارثها الأجيال المتعاقبة، حتى تصيب أناس ليس لهم أي ذنب، لم يقترفوا أي جرم، من ذلك أن بني دارم قتلوا أخو عمرو بن هند، فهجم عليهم عمرو وأسر منهم تسعة وتسعون فرماهم في النار، فرأي أحد البراجم ذلك، فأقبل ينظر فأخذه عمرو ثم تمم به المائة، فالثأر لا يقتصر علي الفاعلين بل يمتد إلي غيرهم، بل أن الكارهين لهذا السلوك يصلون أيضاً جحيمه، وفي ذلك يقول الشاعر أبي تمام الطائي:

والحرب يلحق فيها الكارهون كما .. تدنو الصحاح إلي الجربي فتعديها
الشئ يبدؤه في الأصل أصـغره .. وليس يصلي بكل الحـرب جانيها

(٢) من ذلك قيام زهير بن جناب بن بكر بقتال قبيلة غطفان وسبي نسائها وسلب أموالها، بسبب أن غطفان عندما انتصرت علي قبيلة مذحج وسلبتها، كثرت أموالها وممتلكاتها واتسعت رقعتها، فقررت أن تتخذ حرماً يماثل حرم مكة، لايقتل صيده، ولايهاج عائذه، فبنوا حرماً ووليه بنو مرة بن عوف، فلما بلغ ذلك زهير، قال:"والله لايكون ذلك أبداً وأنا حي، ولا أخلي غطفان تتخذ حرماً أبداً". ابراهيم شمس الدين، مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام، ج١، مرجع سابق، ص١٢.

(٣) تعددت الأسباب السياسية للحروب القبلية، منها ما كان مرجعه داخل القبيلة كالصراع بين العشائر علي زعامة القبيلة، ومنها ما كان مرجعة خارجي كالصراع بين القبائل المتجاورة رغبة في تعزيز ديارها و توسع حماها، أو فرض سيطرتها علي الموارد الطبيعية، أو تأديب القبائل المعتدية والمتحالفة معها.

(٤) د/ احمد أمين سليم، جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٩، ص٣٠٣.

(٥) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، مرجع سابق، ص٣٣.

العلماء إلي القول بأن القبيلة وإن كانت تستوفي كافة مقومات الدولة، من الشعب الذي يتسم بانتسابه إلي أصل واحد، ولها السيادة التامة، كما أن لها تقاليد وأعراف تتبعها تمثل دستورها النافذ، إلا أنه ينقصها الأرض المعينة الحدود[١]، وذهب بعضهم إلي أبعد من ذلك ونفي تماماً وجود إقليم تفرض عليه القبيلة سيطرتها وسيادتها الكاملة، مؤكداً أن الحقيقة الأساسية الوحيدة في المجتمعات القبلية، هي أن قرابة الدم هي الأساس الوحيد للأمة في تلك المجتمعات، فالذي يقول بوجود ترابط سياسي منطلقاً من فكرة الحيز الجغرافي، إنما هو شخص موغل في الوهم، لأن هذه الفكرة لم تكن معروفة في هذه المجتمعات[٢].

لكننا نري أن حقيقة حرية الترحال والانتقال لدي القبائل البدوية، أنها حرية مقيدة وليست مطلقة، فهذه الحرية محدودة بالمناطق التي تسيطر عليها القبيلة وتفرض نفوذها فيها، حتى بينهم أن هذه المنطقة هي ديار القبيلة كذا أو ديار بني فلان[٣]، بالإضافة للمناطق الشائعة التي لم تضوي تحت حكم قبيلة معينة أو سيطرة جماعة محددة، وتفرض القبيلة سيطرتها عليها وتعتبرها امتداداً لديارها، ففي غالب الأحيان كان للقبيلة منطقة خاصة تقيم فيها وتتجول في أرجائها يُطلق عليها اسم "الديار"[٤]، لا ينازعها في السيادة عليها إلا آثم ومعتدي، يجب علي جميع أفراد القبيلة التضامن من أجل رد هذا الاعتداء، والانتقام من المعتدي وجماعته، مهما تكلف ذلك من أرواح وأموال، وكان من شأن ذلك سلسة متصلة من الاعتداءات تستمر سنوات عديدة وأزمنة

(١) د/ صالح احمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج١، مرجع سابق، ص١٥٢-١٥٣.
(٢) محمد الخطيب، النظام القبلي عند العرب في الجاهلية، مجلد (٤١) العدد(٢) ، ص ٨٦.
(٣) مثل ديار بني سعد التي منها حليمة السعيدة التي تقع جنوب شرق مدينة الطائف، والتي عاش فيها الرسولρ في طفولته، وديار خزاعة التي تنتسب إليها أم معبد الخزاعية التي استضافت النبيρ وهو في طريق هجرة من مكة إلي المدينة والتي تقع شمال مكة، وديار بني عمر بن عوف التي بمنطقة قباء التي بني فيها الرسولρ أول مسجد في الإسلام.
(٤) أماكن إقامة القبيلة أطلق عليها عنترة بن شداد في معلقته مسمي "الديار":
ما راعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم

مديدة، وصلت أحيانا إلي قرون، فقدت خلالها القبائل الكثير من أنفس الأموال وأشجع الرجال(١).

لذا غالبا ما كان أعضاء كل قبيلة حريصون علي الالتزام بنطاق نفوذهم، وعدم تجاوز حدود إقليمهم، وفي المقابل منع القبائل الأخرى من تجاوزه، والدفاع عنه حدوده إذا تم الاعتداء عليها أو اختراقها دون إذن، فالمجتمع القبلي يتسم بأن كل قبيلة تسيطر علي إقليم يمثل حدودها الجغرافية، يسهل علي أبنائها معرفته منذ نعومة أظفارهم، يتنقلون داخله من مكان إلي آخر طلباً للكلأ والماء أو موقع ملائم أو طقس مناسب، ومن يجترئ علي التقدم إليه أو فرض نفوذه عليه، إنما يعرض نفسه للقتل أو السلب أو فقد حريته واسترقاقه(٢)، لأنه محل نفوذ القبيلة الثابت الذي يؤمن لها العيش ويكفل لها الاستمرارية(٣)، وهذا الإقليم كان بطبيعة الحال محدود المساحة، متلاصق الأرض، وهو ما سهل قوة وألفة الحياة المشتركة وانسجام العادات الاجتماعية والقيم الأخلاقية(٤).

وبالرغم من تنقل البدو سعياً في طلب الرزق، إلا أن حركتهم غالباً لا تتعدي حدود المنطقة التي يعدونها وطناً لهم يتمركزون فيه، يسيطر حبه علي وجدانهم ويحبونه حباً جما(٥)، يجتهدون في المحافظة عليه والبقاء فيه، لا ينزحون خارج إقليم

(١) من ذلك الحرب بين قبيلة عبس وقبيلة ذبيان التي استمرت حوالي أربعون عاماً بسبب سلب قافلة للمناذرة كانت تحت حماية الذبيانيون، وحرب الفجار التي نشبت بين قبيلة كنانة وبين قيس عيلان واستمرت حوالي أربع سنوات، وحرب البسوس بين قبيلة تغلب بن وائل وبين قبيلة شيبان والتي استمرت حوالي أربعون عاماً بسبب قتل كليب بن وائل ناقة البسوس، وتعتبر الحرب بين قبيلتي الأوس والخزرج الأطول أمداً حيث بدأت بحرب "سمير" وانتهت بحرب "بعاث" والتي استمرت حوالي مائة وأربعون سنة وظلت مستعرة حتى أنهاها الرسولε بناء علي نبذ روح العصبية القبلية حلول الأخوة المبنية علي العقيدة الإسلامية محلها، وقد سميت حروب العرب بهذه السماء نسبة إلي الأماكن التي دارت فيها، أو الأشخاص الذين كانوا سببا في اندلاعها، أو الأوقات التي دارت رحاها أثنائها.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، مرجع سابق، ص١٧.

(٣) يوسف سلحد، القانون في المجتمع البدوي، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

(٤) جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ج١، ترجمة/ محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص١٥.

(٥) حُب العربي الشديد لدياره وتعايشه معها بلغت أنه تصورها كشخص حي ناطق يتحاور معها يطمئن عليها ويلقي عليها السلام، يقول زهير بن أبي سلمي:" فلما عرفت الدار قلت لربعها .. ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم"، وضرب الرسولρ أروع الأمثال في حب الوطن والتمسك بالإقامة

القبيلة إلا اضطرارياً رغماً عن إرادتهم، كعقوبة لهم علي ارتكاب جرائم كبري اقترفتها أيدهم أو سوء سيرتهم، إذ لم تكن القبيلة تسمح لأفرادها بالخروج علي نظامها الصارم دون محاسبتهم ومجازاتهم(١)، أو ارتكاب سلوكاً غير سوي معيباً من شأنه أن يسئ إلي سمعة القبيلة بين القبائل، أو يهدد وحدة وتماسك القبيلة وارتباطها الداخلي، أو يكدر الأمن والسلم العام في إقليم القبيلة(٢)، أو يأتي فعل من شأنه استنزاف طاقات القبيلة ومواردها المادية والمعنوية(٣)، في هذه الأحوال كانت القبيلة تهدر جميع حقوق الفاعل، وتطرده من ديارها وحماها، وتتخلي عن حمايته ونصرته، لتجنب الإكراه الخارجي والتدخل في شئونها.

فقد عرف عرب الجاهلية نظام قريب الشبه بإسقاط الجنسية عن المواطن في عصرنا الحاضر، غير أنه أكثر قسوة وأشد ردعاً(٤)، فهو أقصي درجات العقاب وأشدها وطأة علي نفس القبلي(٥)، فالموت والفناء أحب إلي القبلي من ترك قبيلته(٦)، وهو خلع

ببلده، فعندما أخرجته قريش من مكة قال لها:"والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلي الله ولولا أن أخرجت منك ما خرجت". الترمذي، الجامع الصحيح، حديث رقم (٣٩٢٥).

(١) د/ علي مصطفي عشا، جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد (٨٢)، دمشق، ص ٥١٥.

(٢) استقر العرب علي أسباب متعددة للخلع، منها: إذا قتل أحد أفراد القبيلة شخص آخر من ذات القبيلة، ورفض ذوو المقتول قبول الدية، في هذه الحالة تصبح القبيلة مضطرة لخلع القاتل حفاظاً علي وحدة القبيلة وتماسكها، إذا كثرة اعتداءات وجرائر أحد أفراد القبيلة ضد القبائل الأخري، فإن القبيلة تخلع الفاعل وتضحي به حتى لا تتعرض للغارات الثأرية ضدها، إذ قام أحد أفراد القبيلة بأفعال لا أخلاقية تلحق العار بالقبيلة وتلوث جبينها خلعته القبيلة للحفاظ علي شيمها وأخلاقها. د/ توفيق برو، تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ص٢٦٠.

(٣) خلدون حسن النقيب، في البدء كان الصراع، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٧.

(٤) أرجع البعض حق القبيلة في عقاب أفرادها، إلي أن لها عليهم سلطاناً مطلقاً، فهي التي تغرس فيه قيم ومبادئ الجماعة وأنماط السلوك، منذ نعومة أظافره قبل أن ينطلق إلي الحياة، فإن حاد عن ذلك كان عليها تقويمه ومحاكمته إذا لزم الأمر، يقول ماكيفر:"فهي مدرسته الأولي ومحكمته الأولي". روبرت م. ماكيفر، تكوين الدولة، مرجع سابق، ص٤٧.

(٥) يري البعض أن قسوة هذا الجزاء تأتي من كون الجاهلي بصفة عامة علوق بالأرض مرتهن بقبيلته. د/ ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٧٢.

(٦) كان عبدالله بن جدعان في بدايته شريراً فاتكاً، يجني الجنايات فيعقلها عنه أبوه وقومه، حتى أبغضته قبيلته، فخلعه أبوه ونفاه إلي الشعاب، وحلف أن لا يؤويه أبداً، فعاش حائراً يتمني الموت، حتى أنه تعرض لشق في الجبل راجياً أن تكون فيه حيه فتقتله فيستريح . د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٩٥.

الجاني وطرده من عشيرته وإبعاده إلي خارج إقليم القبيلة[١]، وغالباً ما كان الطرد جزاء دائم، فلا يستطيع الطريد العودة إلي ديار القبيلة مرة أخري، واعتاد العرب استخدام علامات مادية، تؤكد للمخلوع علي عدم الرغبة في وجوده بينهم، وتبين للأغيار وبصفة خاصة المجني عليهم أو المضرورين عدم الرجعة في تنفيذ هذه العقوبة[٢].

فالخليع يخرج من ديار القبيلة وحِمها، ومن الإطار المادي الذي يأويه، والكيان الاجتماعي الذي كان ينتمي إليه[٣]، فإن الخليع يجد نفسه في مأزق شديد ووضع شاذ وموقف ضيق، إذ أصبح فرداً منفصلاً وحيداً منعزلاً، في مجتمع يقوم علي العصبية والتعاضد والارتباط[٤]، لا يؤمن بالانفصالية الفردية، فلم يكن مقبولاً اجتماعياً أن يبقي الفرد دون انتماء لقبلية ما أو خارج إطارها، إذ في هذا التنظيم الاجتماعي تتحدد قيمة الفرد بقيمة الجماعة التي ينتمي إليها.

وكان قرار الخلع له سمة خاصة لدي القبائل العربية، إذ كان يتعين اتخاذ إجراءات شكلية تتمثل في إعلان الخلع بطريقة رسمية، فزعيم القبيلة يذيع بالمناداة أو

---

(١) كان العربي شديد التمسك بوطنه لا يبتعد ولا يُبعد عنه، إلا إذا ارتكب جريمة عظمي من شأنها أن تؤثر علي القبيلة وسلامتها وتهدد أمن وبقائها، لذلك عرف العرب عقوبة شديدة القسوة شبيه بعقوبة النفي، توقع علي الجاني وهي عقوبة خلع الجاني والتبرؤ منه وطرده خارج إقليم القبيلة، فيصبح لا أسرة له ولا جماعة تجيره، فلا تتحمل قبيلته تبعات أفعاله الضارة وينحصر الانتقام في شخصه وحده، وغالباً ما كان رئيس القبيلة يتحين المواسم العامة ليعلن خلع الجاني بطريقة رسمية ليكون في دلك إشهاد لهم عليه، وقد يبعثون منادياً بذلك، وقد يكتبون به كتاباً، فقد خلع بنو سهم في الجاهلية عمرو بن العاص، كما خلع بنو مخزوم عمارة بن الوليد، إذ هما في الحبشة، خشية أن يعتدي أحدهما علي الآخر فتؤخذ عشيرته به، وتبرأ كل قوم من صاحبهم ومما جره عليهم، فبعثوا منادياً ينادي بمكة بذلك. د/ يوسف خليف، الشعراء والصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ب . ت، ص ٩٥.

(٢) يقول القلقشندى:"نار الطرد فإنهم . أي العرب . كانوا يوقدونها خلف من مضي ولا يحبون رجوعه". القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٤٣٣.

(٣) الفرد في التنظيم القبلي لا يمكن أن يكون عضواً في أكثر من قسم علي نفس المستوي، بعكس نظام الجنسية الحالي الذي يسمح للفرد بالحصول علي جنسية أكثر من دولة في ذات الوقت. فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٩٢.

(٤) تم تبرر شدة تماسك المجتمع القبلي بقيامه علي الوطنية القبلية وليس الوطنية الشعبية. احمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص١٠.

الكتابة بصيغة محددة(١)، وأحياناً يبعث منادياً مفوهاً، في المواسم القومية والأسواق العامة، يعلن أن القبيلة خلعت الجاني وتبرأت جرائره، وأسقطت حقوقه وحرمت عليه البقاء إقليمها(٢)، وقد توقد القبيلة نار الخلعاء والهُراب(٣)، فيذهب ملتجأ إلي غيرها، باحثاً عن إطار اجتماعي آخر يمكنه العيش ضمنه، غير أن ذلك نادر الحدوث صعب المنال، خاصة إذا كانت بوائقه كثيرة وشروره فاتكة(٤).

وهذا الإجراء مقبول ومعترف به في المجتمع القبلي، إذ أنه يأتي كنقيض للإجراء آخر، فالخلع يأتي في مقابل ما يرفد إلي القبيلة وما ينضم إليها من العناصر الخارجية، التي تقبل التحاقهم بها كالأدعياء أو موالي لها(٥)، ذلك أن الأعراف العربية تقضي بأن من حق القبيلة أن تخلع أي فرد من أفرادها، كعقوبة شرعية معترف بها من الكافة، وتوقيع علي الخارجين علي تقاليدها المجتمعية، حتى لو كان مرتكب الفعل من

---

(١) كانت الصيغة التي يذيعها سيد القبيلة لخلع أحد أبنائها كالتالي:"إني قد خلعت ابني هذا، فإن جر لم أضمن، وإن جُر عليه لم أطلب"، وكان الصيغة التي يذيعها زعيم القبيلة التالي:"إنما خلعنا فلاناً(يذكر اسمه وشهرته)، فلا نأخذ أحداً بجناية تجني عليه، ولا نؤخذ بجناياته التي يجنيها". د/ جواد علي، المفصل، ج١، مرجع سابق، ص٨٥٨.

(٢) من ذلك ما فعلته قبيلة خزاعة بقيس بن الحدادية (قيس بن منقذ بن عمرو) من بني سلول بن كعب من خزاعة، كان شجاعاً فاتكاً، وبالرغم من ذلك تبرأت قبيلته منه وخلعته بسوق عكاظ، وأشهدت الناس علي أنها لا تتحمل جرائره ولا تثأر له. الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، مرجع سابق، ص٢.

(٣) أبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان،ج٤، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، مكتبة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٦، ص٤٨٩.

(٤) لكن إذا كانت شرور الخليع ومأثمة كثيرة، فإنه نادراً ما يجد مجيراً له، فيلوذ إلي الصحراء ومجاهل الفيافي، أو مولاة قبيلة أخري، مجتهداً في فرض نفسه وإثبات وجوده، معتمداً علي قوته الشخصية، في سبيل الفوز بفرصة من فرص الحياة المحدودة، المتاحة للحياة الفردية، أو ينضم إلي غيره، ليشاركهم مبيتهم ولقمتهم، إذ لا يستطيع الفرد أن يعيش فيها إلا مرتبطاً بجماعة، مؤلفين عصابات تعيش علي السلب والنهب، تقطع الطرق وتعيث في الأرض فساداً، ويستخدمها الزعماء للفتك بخصومهم، فغالباً ما يتمركزون في البراري والبيداء في المناطق التي تمكنهم من مراقبة الأسواق ومتابعة حركة القوافل، لذلك أطلق عليهم ذؤبان العرب".

(٥) أدعياء القبيلة هم المدعي انتسابهم إليها، واعتبارهم كأفرادها في الحقوق والواجبات، دون وجود صلة نسب حقيقية، وهي عادة معترف بها في الجاهلية، لكن الإسلام أبطل التبني ونهي عن اتخاذ أدعياء، قال تعالي:﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. سورة الآحزاب، الآية رقم (٣٧).

بين صرحاء القبيلة وأصلائها[١]، من ذلك خلع بني سهم لعمرو بن العاص، وخلع بني مخزوم لعمارة بن الوليد، وهم من سادة العرب وأشرافهم[٢].

ولما كان معظم العرب في العصر الجاهلي أميون، يعوزهم المبادئ الأولية لكثير من علوم المقاييس والحساب والجغرافيا[٣]، لذلك غالباً ما كان يتم ترسيم إقليم القبيلة وتحديد نطاقها الجغرافي، باستخدام بعض الحواجز الطبيعية والعلامات الثابتة البارزة، كمجاري المياه والوديان والهضاب والتلال وسلاسل الجبال[٤]، فالبيئة الصحراوية والحدود الطبيعية، كانت عامل هام في تحديد حجم الجماعة التي تقطن كل إقليم، وتصنيفاتها والتنظيمات التي تتبعها كل جماعة، وفيما بعد كان سبب في إجازة بعض فقهاء المسلمين تعدد حكام الدولة في ذات الوقت، بل أن البعض ذهب إلي أبعد من ذلك وجعلها السبب في منع نشوء دولة موحدة في الجزيرة العربية وانعدام النظام السياسي المتطور[٥].

وبجانب ديار القبيلة غالباً ما كانت القبيلة تنشئ لنفسها حمي[٦]، من خلال فرض حمايتها علي رقعة ممتدة من الأرض فيها بعض الأعشاب والزروع والمياه،

---

(١) د/ توفيق برو، تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ص ٢٦٠.
(٢) د/ يوسف خليف، الشعراء والصعاليك في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٩٥.
(٣) قال تعالي:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. سورة الجمعة، جزء من الآية رقم (٢).
(٤) تم هذا التحديد علي نسق تقسيم شبه الجزيرة العربية إلي خمسة أقسام رئيسية هي اليمن وتهامة والحجاز ونجد واليمامة، وأساس هذا التقسيم جبل السراة، باعتباره أعظم جبال بلاد العرب، كما أنه يمتد من اليمن حتى يصل إلي أطراف بادية الشام شمالاً علي مدي ١١٠٠ ميل. د/ احمد أمين سليم، معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ص ٥.
(٥) د/عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط٢، ١٩٦٨، ص ٣٢.
(٦) من أشهر الحمي في الجاهلية حمي كُليب بن وائل، الذي مد حمايته علي أراضي واسعة، لدرجة أنه أسرف وبغي، وبلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب، وكان ممنوع أن يرعي في حماه أحد. أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، بيت الأفكار الدولية، عمان، ب. ت، ص٤١١؛ وحمي فيد الذي قال عنه ثعلب:"الحمي حمي فيد الذي ذكر في أشعار أسد وطئ، فقد قال أعرابي: سقي الله حياً بين صارة والحمي، حمي فيد صوب المدجنات المواطر. وحمي الربذة الواقع في الشمال الشرقي للمدينة المنور، الذي أراده الرسولρ بقوله:"لنعم المنزل الحمي، لولا كثرة حياته"، لأنه غليظ الموطئ كثير الحموض، تطول عنه والأوبار وتتفتق

وتمنع غيرها من رعي ما فيها من الكلأ أو الانتفاع بمائها، لتختص بها القبيلة وحدها دون غيرها، وتعلن القبيلة أنها انتحلت هذه الأرض لنفسها[١]، فتصبح هذه الأرض أشبه بالمنطقة الاقتصادية الخالصة للدولة في القانون الدولي المعاصر، تستغلها القبيلة كيفما تشاء، مع الحفاظ علي سمتها الأساسية بتركها علي طبيعتها دون حرث، فترتحل فيها بحثاً عن الموارد لأفرادها ودوابها، فمتي حُرمت القبيلة خصب مراعيها أو ضاقت بها ديارها، زحفت إلي حماها للحصول علي مآربها فيها.

وحمي القبيلة هي منطقة من الأرض غير ثابتة المساحة[٢]، فلا يوجد قانون أو عرف يقرر حد أقصي للحمي، فيمكن زيادة مساحة الحمى مع قوة الجماعة وشرف مجدها[٣]، إذ أن حجم الحمى يتناسب طردياً مع قوة القبيلة وعظمتها[٤]، أي سعة حمي القبيلة يتوقف علي عزة شيخها ومجده وقدرته وعصبيته علي فرض الحماية والسيطرة علي الأرض وإخضاعها لسيادة القبيلة[٥]، فالقبلي كان يري أن الصحراء التي يحميها والمياه التي اعتاد ارتيادها جزء من أملاك قبيلته، وأن من يدنو منها أو يدخلها دون

الخواصر ويرهل اللحم، لذلك خصص عمر بن الخطاب في خلافته للمنفعة العامة وأوكله إلي مولاه هنيا يرعي فيه نعم الصدقة. أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان،ج٢، دار صادر، بيروت، ب. ت، ص٣٠٨.

(١) عبدالله بن احمد بن قدامة، المغني،ج٦، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص١٨٥.

(٢) حاول بعض الباحثون تحديد مساحة حمي الربذة فقدروه بطول تسعين كيلوا متر وعرض سبعين كيلوا متر تقريباً. عطاالله بن ضيف الله، لمحات عن حمي الربذة موضعاً وحدوداً، مجلة الدارة، مجلد (٤٦)، عدد(١)، يناير ٢٠٢٠، ص٥٥.

(٣) الحمي مساحة من الأرض الملاصقة لإقليم القبيلة، تمثل امتداد أمني واقتصادي للقبيلة، تتجول فيها للكسب وتتنقل فيها للرعي والتسابق، وقد فرضت بعض القبائل حماها علي مساحة كبيرة بلغت ثلاثين داراً وثلاثين حديقة، وبعضها وفرض حمايته علي مساحة تجاوز ستة أميال من كل ناحية ثم زيد فيها فيما بعد.

(٤) من ذلك أن قريش حمت لنفسها حمي شعباً من وادي حُراض يقال له سُقام بنت فيه بيتاً للعزي يضاهون به الكعبة. الحموي، معجم البلدان،ج٤، مرجع سابق، ص١١٦.

(٥) يقول ابن الأزرق:"كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها، فإن تكلفت بعد ذلك زيادة عليه بقي دون حامية، وعاد وبال ذلك علي الدولة.. والعلة الطبيعية في ذلك أن قوة العصبية من سائر القوي الطبيعية وكل قوة يصدر منها فعلها، والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلي غايته عجزت عما وراءه". ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص١٢٠.

إذنها ورضها، ودون أن يؤدي ما يُفرض عليه من إتاوة، يكون معتدٍ عليه وعلي وطنه يجب مجابهته ورده(١).

وقد استخدم العرب في الجاهلية أساليب متعددة لتحدد نطاق حماهم، منها من استخدم استعواء الكلاب لتحديد نطاق حمي القبيلة، إذ كان بعض سادة القبائل إذا انتجع بلداً أوفي بكلب علي جبل أو نشر، ثم استعواه وأوقف له في كل ناحية من يسمع منتهي صوت العواء، وحيثما انتهي هذا الصوت من كل ناحية فرض حماه، واختص كل تلك المساحة لنفسه وذويه، ومنع الغير من الرعي فيها(٢)، ورعي هو مع العامة فيما سواه، ومنهم استخدام رماح وفرس، فغرس رمحاً في منطقة ثم ركض بفرسه وعندما ينتهي من الركض وضع رمحاً آخر وجعل المساحة بين الرمحين تحت سيطرته(٣)، ومنهم من كان يحمي ما يشاء من الماء والعشب دون تحديده، ومنهم من استخدم أخشاب وضع عليها ثياب سوداء اللون علي شكل راية، للدلالة علي أن هذه الأرض داخل نطاق سيطرته وحماه(٤)، وبمجرد فرض الحماية والسلطان علي أي مساحة من الأرض المشاعة، تتحول هذه المساحة من أرض شائعة إلي أرض استغلال خاص للحامي.

ومتي تمكنت القبيلة من فرض سيطرتها واختصاص نفسها بمساحة من الأرض، فإنها هذه الأرض تنضم إلي إقليم القبيلة، وبالتالي لا يجوز لغير القبيلة الحامية اختراقها، ويمنع علي الغير دخولها أو استغلالها أو استعملها أو النزول فيها أو التعرض لها، إلا بعد الحصول علي إذن من القبيلة الحامية(٥)، تجسداً لمشاعر

(١) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٣.
(٢) من ذلك أن كُليب بن ربيعة اتخذ جرو كلب، فكان إذا نزل منزلا به كلأ قذف ذلك الجرو فيه يعوي، وحتى آخر مسمع نباح الجرو لا يرعي أحد الكلأ إلا بإذنه.
(٣) من ذلك أن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن الدؤل بن حنيفة عندما خرج بأهله وماله يتتبع المرعي والماء أتي حجراً ولاحظ أنها أرض ذات شأن فركز رمحه في الأرض واندفع بفرسه حتى حجز ثلاثين داراً وثلاثين حديقة جعلها لنفسه وأهله. ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج٢، مرجع سابق، ص٩٤.
(٤) أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان،ج٤، مرجع سابق، ص١١٦.
(٥) الحمي في اللغة هو خلاف المباح، وهو مواضع ممتدة من الأرض، فيها بعض الزروع والكلأ، يُحمي من الناس أن يرعوه أي يمنعونهم. الحموي، معجم البلدان،ج٢، مرجع سابق، ص٣٠٧.

استقلالية القبيلة وسيادتها علي إقليمها، ومجرد تجاوز حدود إقليم القبيلة دون تصريح، يعتبر اعتداء يوجب علي جميع أعضائها مكافحته ومجابهته بكل قوة، تطبيقاً لمبدأ التضامن الدائم الذي يفرض عليهم جميعاً التضحية بالمال والدم في سبيل القبيلة، وفي مقدمتهم زعيم القبيلة باعتباره وجه سيادتها وممثلها في علاقاتها الخارجية، فمن اعتدي علي هذه السيادة من إنسان أو حيوان استحق توقيع أشد العقوبات عليه فوراً(١).

لذلك كانت السمة الغالبة علي الصلات بين القبائل العربية التنازع والاقتتال(٢)، حتى أصبح الغزو والإغارة علي الآخرين مألوفاً بينها(٣)، مما اضطر كل قبيلة لأن تكون مستعدة بصفة دائمة، للحرب والجلاد علي من حولها من البدو أو الحضر، فكل قبيلة شاحذة سلاحها متأهبة دائماً لتحمي حماها وتذود عن ديارها ومراعيها وآبارها، يرفع جميع أفرادها سقف المخاطرة والتضحية من أجلها، معلنين الاستعداد التام للموت في سبيلها.

فمما لاشك فيه أن الحرب حقاً أو جوراً، كانت من أهم العوامل المؤثرة في رسم العلاقات القبلية، وقد عبر عن ذلك زهير بن أبي سلمي قائلاً:"ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه يُهدمُ ومن لا يظلم الناس يُظلمُ"(٤)، ولما كان شيخ القبيلة هو المسئول عن سياسة الصلات الخارجية للقبيلة، سواء كانت حرباً أم سلماً(٥)، وجب عليه الاحتفاظ

(١) من ذلك أن كُليب بن وائل خرج يوماً إلي الحمي وجعل يتصفح الإبل فرأي ناقة سعد بن شمس الجرمي ـ جاره ـ ترعي في حماه مع قطعانه، فرماها بسهم في ضرعها حتى ماتت. ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج١، مرجع سابق، ص٤١١.

(٢) يقول الشاعر زفر بن الحارث الكلابي:

ولما لقينا عصـــــبة تغلبية .. يقودون جُرداً للمنية ضمـــــرا

سقيانهم كأساً سقونا بمثلها .. ولكنهم كانوا علي الموت أصبرا

(٣) منذر معاليقي، صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥، ص ٥٦.

(٤) محمد علي طه الدرة، فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال، ج٢، مكتبة السوادي، جدة، ط٢، ١٩٨٩، ص٣٤٤.

(٥) جمع شيوخ القبائل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية، كان من أهم أوجه الاختلاف بينها وبين قبائل الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية والشمالية، التي كان يتولي قيادتها شخصان مختلفان المهام، بحيث تديرها سلطة مدنية وأخري عسكرية للحرب. بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٢.

بقوة نابذة وجهاز قوي لردع الأعداء والمتربصين[١]، وأن يتحلي بالجسارة ويتقدم الصفوف أثناء القتال[٢]، ويستطلع الأخبار ويرسل العيون، ويرسم الخطط، وينظم الصفوف، ويشد الهمم[٣]، ويساعد من لاعتاد له، يستبسل في الدفاع عن القبيلة، ويوجه دفة الصراع لصالح فرسانه، إذ أن من كان ذراعه أقوي وسيفه أمضي كانت له الغلبة والكلمة العليا وكان الحق في جانبه[٤]، وأساس تفعيل هذا القانون هو كثرة العتاد البشري وقوة العصبية بينهم[٥]، بما يمكن من تنفيذ الهجوم ثم إحراز النصر، حفاظاً علي هيبة القبيلة ومكتسباتها، والدفاع عن الجماعة والذود عنها، فلكل قبيلة الحق في الدفاع عن أراضيها وأموالها، ومنابع مياهها، وهي في سبيل ذلك مستعدة لسفك دم كل من يعترضها[٦].

وليس من الصعب علي زعيم القبيلة تحقيق التكتل اللازم للحرب، إذ كان مجرد ذكره الحرب يُلهب المشاعر ويثير الأحاسيس، ويشحذ العزائم، ويبعث الرغبة في خوض غمارها[٧]، دون أن يُسأل عن سببها أو غايتها[٨]، بالرغم من أنها تجر الويلات علي الغالب والمغلوب[٩]، فالتلويح بها يثير لدي المنتصر نشوة الاستزادة من

(١) لذلك قيل:"الملك راع يعضده الجيش". ابن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ج١، مرجع سابق، ص٣٣٤.
(٢) فقد كان كثير من شيوخ القبائل العربية فرسان قبائلهم ومحاربيها المرموقين. د/ عبدالعزيز الدوري، النظم الإسلامية، مرجع سابق، ص١٦.
(٣) د/جواد علي، المفصل، مرجع سابق، ص٨٣٢.
(٤) د/السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة،١٩٩٩، ص ٣٦٠-٣٦١.
(٥) جاء في بدائع السلك:"ورئيسهم لمكان ذلك يضطر لمجاملتهم بإحسان الملكة وترك المراغمة، والا اختل عليه وعليهم شأن العصبية التي بها الطلب والمدافعة". ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص١٢٥.
(٦) د/ احمد أمين سليم، جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص٣٠٣.
(٧) ابراهيم شمس الدين، مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام، ج١، مرجع سابق، ص١٢.
(٨) فال مطاع العنزي عن مالك بن مسمع بن شيبان سيد قبيلة ربيعة:"لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شئ غضب". ابن عبدربه، العقد الفريد، ج١، مرجع سابق، ص١٢١.
(٩) وصف النابغة الذبياني في ديوانه شدة هول الحرب وكربها قائلاً.

والحرب تركب رأسها في مشهد .. عدل السفيه به بألف حليم
في ساعة لو أن لقماناً بها .. وهو الحكم لكان غير حكيم
تبدو كواكبه والشمس طالعة .. لا النور نور ولا الظلام إظلام

الانتصار، ويبرز روح الحقد الغضب والرغبة في الانتقام للشرف والدفاع عن الكرامة لدي المهزوم، فيتعامل كلا الفريقين مع أدوات الحرب بشغف وحب، يتغني بها وينظم الشعر فيها(١)، إذ أنها مبعث للبطولة والفخار، ومظهر للاستعداد لملاقاة الخصوم والتهيؤ للنزال، فيستحر الخصام، وتصبح الحرب سجالاً متواصلاً، أعواماً طويلة وأزمنة مديدة.

وكان الشعور التعاوني القائم علي العصبية والأخوة القبلية، يفرض التزامات جماعية لصالح القبيلة علي جميع منسوبيها، ورابطة الدم هي مبعث كافة التزامات الفرد نحو قبيلته، فعلاقة الفرد بالقبيلة كعلاقته بعائلته وأسرته سواءً بسواء، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا سيوف القبيلة جمعاً مشرعة(٢)، وروح الحماسة ثائرة، والرغبة الفردية في تحقيق البطولة متقدة(٣)، ذلك أن الاندفاع مع الطيش من شيم الشجعان(٤).

ونشوب الحرب ليس حكراً علي سيد القبيلة، إذ يمكن لأي فرد في القبيلة إيقاد نار الحرب، فلا يتكلف المعتدي عليه أو المستغيث رفع مظلمة أو تقديم شكوى أو إثبات صدق إدعائه، بل يكفي أن يصيح في ديار القبيلة مستنجداً، قائلاً:"وا ذلاه" أو

(١) السيف كان أهم أدوات القتال يحرص الجاهلي علي اقتنائه وإتقان استخدامه، يقول عنترة بن شداد:"وأفرح بالسيف تحت الغبار.. إذا ما ضربت به ألف ضربة"، وأيضاً الرماح، يقول الشاعر:"أحن إلي ضرب السيوف القواضب.. وأصبوا إلي طعن الرماح اللواعب"، واستخدم القوس في القنص، يقول زهير بن أبي سلمي:"ثلاث كأقواس السراء ومسحل .. قد اخضر من لس الغمير جحافله"، بالإضافة إلي السهم الذي استخدم لإصابة العدو من مسافات بعيدة، يقول طرفة بن العبد:"وأصيب ساكلة الرمية إذ .. صدت بصفحتها عن السهم"، وفى حالة الدفاع كان الدرع حماية ووقاية، يقول عنترة:"يفيض سناني دماء النحور .. ورمحي يشك مع الدرع قلبه"، بجانب الترس الذين يتواري خلفها المحارب لتستره وتحجبه من طعنات الخصم، يقول عنترة:"بوجه مثل ظهر الترس فيه .. لهيب النار يلمع في المآقي".

(٢) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٦١.

(٣) يقول بن نبي:"أما في الماضي فقد كانت البطولات تتمثل في جرأة فرد، لا في ثورة شعب، وفي قوة رجل، لا في تكاتف مجتمع". مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص٢٣.

(٤) جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، مرجع سابق، ص٥٤.

منادياً قومه قائلاً:"وا عشيرتاه" أو "وا قبيلتاه"(١)، أو مستغيثاً بشيخها قائلاً:"يا لـ كذا أو يا آل كذا"(٢)، أو يجوب ديار القبيلة رافعاً شعار يفيد تعرضه للاعتداء، بل يكفي نظم أبيات من الشعر تدل علي الضيم والذل(٣)، لإذكاء نيران العصبية القبلية، فتجتمع القبيلة أفراداً وجماعات لنصرته(٤)، دون نظر إلي طبيعة النزاع، ودون أن تطلب منه دليلاً أو برهاناً علي صحة موقفه، وإنما تطبق المبدأ الجاهلي:"أنصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً"(٥)، فالفرد يقوم بمسئوليته نحو أفراد قبيلته، بناءً علي روح الإخوة ووحدة الأصل ومبدأي النصرة والتضامن الاجتماعي(٦)، وليس نتيجة التزام سياسي أو قانوني أو حتى أخلاقي(٧).

فيجب علي الجميع تحمل التبعة والقيام بواجب القبيلة وتلبية نداءها ووضع نفسه تحت أمرها، فبمجرد إذاعة خبر تعرض أحد أفراد القبيلة للاعتداء أو مصالحها

(١) أبي عبدالله الحسين بن احمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، الدار العالمية، القاهرة، ب. ت، ص١١٢؛ عبدالله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج١، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، ط٢، ١٩٣٢، ص٢٥.

(٢) علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مرجع سابق، ص٧٨.

(٣) أشعلت البسوس بنت منقذ التميمية حرب البسوس بالأبيات التالية:

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ .. لما ضيم سـعدُ وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحـت في دار عرابة .. متي يعدُ فيها الذئب يعدُ علي شاتي
فيا سعدُ لا تغرر بنفسـك وارتحل .. فإنك في قوم عن الجـار أموات
دونك أذوادي فإني عنـهم .. لراحلة لا يفقدوني بنياتـي

(٤) يقول الشاعر قريط بن أنيف العنبري:

قوم إذا الشر أبدي ناجذيه لهم .. طاروا إليه زرافات ووحدانا

(٥) يذهب البعض إلي أن ول من وضع هذا المبدأ هو جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وقد عني به ظاهره، وهو أعتيد من حمية الجاهلية لا علي ما فسره المصطفيρ. احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٣٧؛ محمد المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٣، مرجع سابق، ص٥٩. لم يلغي الإسلام هذا المبدأ بل هذبه، فقال النبيρ:"انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يارسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه. صحيح البخاري، رقم(٢٤٤٤).

(٦) يقول النابغة الذبياني:

حدبت علي بطون ضنة كلها .. إن ظالما فيهم وان مظلوما

(٧) د/ صالح احمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج١، مرجع سابق، ص١٥٦-١٥٧.

للخطر، تتحرك العصبية وحمية الجاهلية المتغلغلة في النفوس(١)، وتُثار روح الحماسة، وتبعث المسئولية الاجتماعية، فتجتمع القوة الدفاعية والهجومية، ويكون جميع أفرادها بنيان مرصوص، فأبطالها وشجعانها طوع أمر زعيمها ورهن إشارته(٢)، يجود كل منهم بقوته ويتفضل بمجهوده ويشارك في ميسوره ومعسوره، فهم يقدرون كلمات زعيمهم، الذي يستطيع أن يشد عزمهم ويلهب حماسهم، وتألبهم كيفما شاء علي من يناوئه أو يعارض مصالح قبيلته(٣).

وفي هذه الحالة كان يتعين علي رئيس القبيلة توفير الظروف المواتية لهذه القوة لتحقيق غايتها المنشودة، سواء أكانت حرب دفاعية لصد هجوم علي ديار القبيلة وحماها، أو كانت هجومية لتنفيذ عمليات إغارة علي الأعداء، فيرسم لها خططها، ويحدد القوة البشرية اللازمة للقيام بها، وأماكن تمركز أفرادها، ووقت انطلاقها، مع تجهيزها بالإمكانيات المادية اللازمة(٤)، من الدواب والسلاح والطعام والمؤن(١)، ويستدعي من الأحلاف والأعوان، وفقاً لطبيعة كل عملية قتال علي حده.

---

(١) العزة والآنفة والاستكبار بالإثم وحمية الجاهلية والقيام بما لم يأذن به الله ورسله من الإعتزاز بالأجداد وإعلاء العصبية القبلية، استقر في وجدان وفكر وقلب عرب قبل الإسلام، فحمية الجاهلية والتمسك بأخلاق أهل الكفر ورفض قبول الحق، منع سهيل بن عمرو من أن يكتب في كتاب المقاضاة :"بسم الله الرحمن الرحيم" وأيضاً من أن يكتب"محمد رسول الله"، وحالت حمية الجاهلية بين الرسولρ وبين دخول مكة يوم صلح الحديبية، ولسوء وقبح هذا الخلق ذمه القرآن الكريم ودل علي مايجب التمسك به، قال تعالي:﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. سورة الفتح، الآية رقم (٢٦).

(٢) يمكن إرجاع الطاعة المفرطة لزعيم القبيلة إلي العصبية القبيلة التي كانت السبب الرئيس في زعامته للقبيلة فهو ينتمي إلي أكثر العشائر عصبية، بالإضافة إلي الصفات الخاصة والمميزات الاستثنائية التي كان يتمتع بها الزعيم.

(٣) من ذلك يوم السلان الذي كان بين بني عامر بن صعصعة وبين النعمان بن المنذر، حيث كان بنو عامر لقاحا يتمتعون باستقلالهم لايدينون لأي ملك، واثناء انعقاد سوق عكاظ اعترضوا قافلة النعمان بن المنذر المتجة للسوق وأخذوا بعضاً منها، فغضب النعمان أوصي أخاه لأمه "وبرة الكلبي" بأن يقصد العامريون ويقاتلهم، بعدما يفرغ من البيع والشراء بسوق عكاظ، وبعد انسلاخ الأشهر الحرام. ابراهيم شمس الدين، مجموع أيام العرب، ج١، مرجع سابق، ص١٠٣.

(٤) يقول ربيعة بن رباح المزني:

لابد للسؤدد من أرماح .. ومن رجال مصلتي السلاح

ويعتبر وقت النوازل والشدائد والاغارات وصد الاعتداءات، من حالات الضرورة، ففي وقت نشوب الحرب، يقود كل قبيلة رئيسها ويكون في مقدمة صفوفها(٢)، ويتحلل أثنائها زعيم القبيلة من كل القيود التي يتعين عليه مراعاتها في الظروف العادية، ويتمتع خلالها بسلطات شبه مطلقة، ويكون له اتخاذ القرارات منفرداً، وعلي الجميع طاعتها وتنفيذها، لكن بعد أن يستتب السلم تعود الأمور لطبيعتها، إذ أن السلطات الاستثنائية لا تكون مقبولة إلا في الظروف الاستثنائية التي توفر مبررها(٣)، إذ في هذه الظروف يلزم ممارسة السلطة بسرعة وحزم(٤)، من ذلك أن كُليب بن ربيعة التغلبي عندما وجد ثمة اعتداء من حيوان علي حمي قبيلة، اتخذ قراراً منفرداً بقتل المعتدي ونفذ قراره بنفسه فوراً، مما أدي إلي إشعال أطول حرب في الجاهلية بين أبناء العمومة(٥).

وبعد أن تنتهي الحرب وتضع أوزارها، يشرف زعيم القبيلة علي جمع الأسلاب وتوزيع الغنائم، ويتحمل باسم القبيلة الديات التي تترتب علي أفراد القبيلة(٦)، فإن كانت فوق طاقته اشترك معه سادتها، وارتهنوا أبنائهم لدي القبيلة التي قبلت الدية لحين

---

(١) الدواب من الخيل والأبل كانت محل إهتمام عرب الجاهلية، إذ كانت من أهم وسائل الفوز وعدة حاسمة في تحقيق النصر، بالإضافة إلي أن كثرة امتلاكها علامة علي الثراء والوجاهة الزينة والخيلاء، فكثرة الدواب أساس قوة القبائل العربية وأهم سلاح لنجاح الغزو، فالقبائل القوية هي التي تملك عدداً كبيراً منها، يحقق لها الخشية والرهبة، ويمكنها من الكر والفر بسرعة وتستطيع الحاق الأذي بالعدوي، وعندما جاء الإسلام أكد ضرورة توفير وإعداد القوة المادية اللازمة لتأمين الجماعة ومقدراتها، قال تعالي:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾. سورة الأنفال، جزء من الآية رقم (٦٠).

(٢) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٥٩.

(٣) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٢،٧٧.

(٤) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٢٧.

(٥) تعتبر حرب البسوس أطول حرب بين أبناء العمومة من قبيلة بكر بن وائل، وقد أدت هذه الحرب إلي إطلاق العرب التشاؤم علي ملهبتها فقالوا:"أشأم من البسوس"، بالرغم من اشتهارها بلونها المتميز وزرقة عيونها وصباحة وجهها.

(٦) من ذلك أن قبيلة جذام أثناء حجهم فقدوا رجلاً منهم، اغتيل بمكة، فقبضوا علي حذافة بن غانم العدوي واتهموه بصاحبهم، فاستغاث بعبد المطلب سيد قريش، الذي وعد القوم بأن يعطيهم ما يرضيهم في مقابل إطلاق صراح حذافة، ووفي لهم ما طلبوه، وأخذ خذافة فأردفه خلفه حتى أدخله مكة. البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، مرجع سابق، ص١٢٠.

تدبيرها لها[١]، وإذا وقع بعض أبناء القبيلة في الأسر، عمل جاهداً علي إنهاء ذلهم، بفك أسرهم[٢]، وعودهم إلي ديارهم[٣]، إذ كان مصيرهم مجهول، وكان رئيس الجماعة وحده هو صاحب الحق في تقرير مصيرهم، وكانت الأعراف القبلية تعترف بحق المنتصر في الاختيار بين قتلهم[٤] أو استرقاقهم لنفسه أو عرضهم في أسواق النخاسة للبيع عبيداً[٥]، كما كان يتعين علي شيخ القبيلة المهزومة تدبير الأموال اللازمة لفدية نساء القبيلة وأطفالها وقطعانهم ممن سباهم أو غنمهم[٦]، إذ غالباً ما كانت القبيلة المنتصرة تحتفظ بهن حتى ترسل القبيلة المهزومة الفدية المطلوبة، وكان شيخ القبيلة المنهزمة يجبر علي دفع الفدية التي قررتها القبيلة المنتصرة[٧]، لما كان يلقاه الأسري والسبايا من معاملة سيئة تمتاز بالعنف والقسوة والاهانة[٨]، جعلت من شأن استمرارهم

(١) من ذلك الحرب التي كانت بين قبائل قيس من جهة وبين كنانة وقريش من جهة أخري، وانتهت إلي الصلح علي أن تدفع كنانة وقريش دية العشرين قتيل الزائد عن قتلي قريش، فرهن حرب بن أمية أبنه أبا سفيان بن حرب ورهن الحارث بن علقمة ابنه النضر بن الحارث ورهن سفيان ابن عويف ابن الحارث، حتى تؤدي العشرين دية، فجمعت قريش الديات وبعثت بها إلي قيس وافتكوا أصحابهم . البغدادي، المنمق في أخبار قريش، مرجع سابق، ص١٧٥-١٨٠.

(٢) يقول الأعشى بن ميمون:"ففك عن مائة منهم وثاقهم .. فأصبحوا كلهم من غُله خُلعا"، وفي يوم الصفقة ضرب المكعبر أعناق مئتي أسير من فرسان بني تميم. محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك،ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ص٤٦١.

(٣) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ج١، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٤) يقول الشاعر:"ظلت عليه عقاب الموت ساقطة .. قد قرفصت روحه تلك المخاليب".

(٥) صور الشاعر العربي استرقاق الأسري وبيعهم قائلاً:

أقمنا لهم طعناً مبيرا منكلا .. وحزناهم بالضرب من كل جانب

فلولا لواء الحارثية أصبحوا .. يباعون في الأسواق بيع الجلائب

(٦) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٤.

(٧) افخر معاوية الكلابي بحصوله علي العطايا والفداء لفك رقاب الأسري قائلاً: بحمد الله تم عطاء قوم .. يفكون الغنائم والرقابا. الضبي، المفضليات، مرجع سابق، ص ٣٥٩.

(٨) كان الآسر يتفنن في شد وثاق الأسير وتقييده وسجنه في خيمة أو إلقائه في بئر، وحرمانه الطعام والشراب بصورة قاسية توحي بهلاكه المادي والمعنوي، فيعمد إلي غل اليدين والساعدين نحو الصدر، أو شد يديه وراء ظهره، أو شد يديه تحت رجليه جالسا القرفصاء فلا يستطيع الحركة، وذلك بحبال خشنة مصنوعة من الجلود غير المدبوغة وليف النحيل الخشن، مما يكثر في الحشرات والديدان ليشتد أذاه ، أو وضع أغلال حديدة في رقبته لا يستطيع الوقوف بها، بالإضافة تكليف حراس أشداء بمراقبته حتى لا يفروا، وكانت المعاملة السيئة للأسير من العادات المتعارف عليها، التي يزهو بها الآسر ويخزي بها المهزوم، وكان من دأب العرب عند إطلاق الأسير حلق رأسه أولاً

في الأسر والسبي هلاك الكثير منهم، وبالتالي فقد القبيلة مكانتها الاجتماعية، والتحقير من شأن سيدها وازدرائه[١]، بما ينعكس بالسلب علي رئاسته وزعامته، والسبب في التزام السيد بهذا الواجب أن الأعراف القبلية لم تعترف بالمنّ علي الأسري والسبايا أو إطلاق سراحهم دون مقابل[٢]، ذلك أن القتال بين القبائل غالباً ما كان يرجع لأسباب اقتصادية أو انتقامية، وكان الأسر والسبي يمثل دعامة اقتصادية ورغبة ثأرية معاً.

الفرع الثاني: العلاقات القبلية في حالة السلم

العلاقات بين القبائل العربية لم تكن تسير دائماً علي وتيرة واحدة، فبالرغم من عدم وجود قوانين دولية أو قوة عليا ملزمة، تستطيع أن تفرض علي القبائل مبادئ معينة أو قيود محددة، إلا أن حياة الجاهليين لم تكن دوماً دماً وثأراً وحسب، إذ كان هناك نظم عرفي ثابت وتقاليد خُلقية متينة، تسير عليها القبائل وتلتزم نفسها بها، ترسم الصلات بين بعضها البعض، من الوفاء بالعهود ورعايتها وتنفيذ العقود، ولما كان شيخ القبيلة يتحمل القدر الأكبر من جرائر القبيلة ومغارمها، لذلك كان يستغل كل ما لديه من إمكانيات شخصية وموضوعية في السعي نحو توطيد العلاقات مع القبائل الأخرى وتحسينها[٣]، فيستقبل مع مجلس القبيلة وفود القبائل الأخرى، ويعقد معها

إذلالاً له، وقد عبر عن ذلك عتيبة بن الحارث اليربوعي بعد أن أسر بسطام بن قيس زعيم قبيلة شيبان وفارسها ووضعه في القيود، قائلاً:

أبلغ سراة بني شيبان مالكة .. إني أبات بعبدالله بسطاما
قاظ الشربة في قيد وسلسلة .. صوت الحديد يغنيه إذا قاما

(١) عبر عن ذلك أحدهم قائلاً:

ندمت علي سبي العشيرة بعدما .. مضي واستتبت للرواة مذاهبه

(٢) من ذلك أن رجل من هوازن كان في جوار بني مرة ولما أغار قيس بن عاصم المنقري علي بني مرة أسر هذا الرجل، فاستغاث أخو الأسير بالقبائل لفك أسره، فتعهد له يزيد بن عبدالمدان بالسعي في إطلاق سراح جوداً وفضلاً، فاعتذر قيس وقرر أنه في يد رجل سعدي، فأرسل يزيد إلي السعدي يطلبه، فطلب منه مائة ناقة ورعاءها فداء له، فعطاه إياها وأجار الأسير لديه حتى مات. الأصفهاني، الأغاني، ج١٢، مرجع سابق، ص١٤.

(٣) عرف فقهاء القانون الدولي الدبلوماسية بأنها:"فن التعامل مع الآخرين، إذ لا يكفي أن يكون ممارسها ملماً بكل نواحي الحياة والعلاقات دارساً لها، بل لابد أن تتوافر لديه من العناصر الشخصية والموضوعية ما يجعله قادراً علي التعامل مع الغير، أي يكون لديه من الحصافة واللباقة والكياسة وحسن التصرف وسرعته ما يمكنه من مواجهة الآخرين بإقناع من أجل تحسين العلاقات وتوطيدها". د/ابراهيم محمد العناني، الوجيز في القانون الدولي العام، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠١٥، ص٣٥٣.

التعاقدات التجاري والاقتصادية، وتحقيق التوازن السياسي بإبرام معاهدات الصلح، وعقد التحالفات بين قبيلته والقبائل(١)، وبمجرد أن تدخل القبيلة في حلف يصبح بين أعضاء الحلف واجبات وحقوق متبادلة، إذ يصبح الحليف أخاً لحليفه، يشد بعضهم بعضا، يتناصرون ويتضامنون في رد كيد عدوهم عنهم بنحورهم وأموالهم وممتلكاتهم(٢).

فالجوار وعقد الأحلاف كان الوسيلة الشائعة للتعبير عن العلاقات الودية بين الأفراد والقبائل، إذا كان أمام القبائل فسحة طويلة نسبياً من الوقت، لإعادة تدعيم النشاط الاقتصادي بتسهيل سير القوافل التجارية نحو الأسواق الكبرى(٣)، بالإضافة إلي عقد المعاهدات وإبرام اتفاقيات الهدنة والموادعة، لإنقاذ أهليهم وذويهم من ويلات الاقتتال، وإقامة الشعائر الدينية وتحقيق المنافع الاقتصادية، وإعادة الحياة الاجتماعية، ذلك أن بعض القبائل كانت تدين بعقيدة التوحيد، وبعضها ورث شرع النبي ابراهيمυ(٤)، وبصفة خاصة شعائر الحج لبيت الله الحرام، وتعظيم حرمة البلد الأمين.

وهو ما فرض علي القبائل التوقف عن القتال في أشهر معينة لحرمتها وكثرة فضلها وعظم الذنب فيها، فمنع المشاحنة في رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم(٥)، إذ عظم العرب هذه الأشهر واعتبروها هدنة مقدسة، يضع الناس خلالها سلاحهم تاركين القتال والشجار، حتى لا يكاد يسمع سليل السيوف أو اقتراش الرماح، ويبتعد

(١) الحلفُ: العهد بين القوم، ومن المجاز قولهم: حالفه علي ذلك محالفة: أي عاهده، ويتحقق الحلف بطبيعة العقد الذي يتم بين المتحالفين، والحلف لدي العرب يحمل معني الجوار، إذ أن لفظ الجار له معان كثيرة منها الحليف، وقد أدرك الدينوري الترادف بين الحلف والجوار والنصرة، لذا جمع بينها في باب واحد أطلق عليه:"باب الجوار والحلف والإغاثة". عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعاني الكبير في أبيات المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص١١٠٦.

(٢) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٥٩.

(٣) قال تعالي:﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ{٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾. سورة الحج، الآيات (٢٧-٢٨).

(٤) ذلك أن جرهم ومن بعدها خزاعة ومعظم العرب ورث آل إسماعيل عليه السلام. ابراهيم بن عبدالله بن محمد النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، تحقيق/ محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة،١٣٤٣هـ، ص٣.

(٥) من مظاهر تعظيم عرب الجاهلية للأشهر الحرم اعتياد حاتم الطائي علي ذبح عشرة من الإبل كلما أهل رجب. محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ب. ت، ص٢٢٧.

الأعداء أثنائها عن عداوتهم، ويترك المتقاتلين خلالها قتالهم، فالعرب كانوا يكرهون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو أن يتعدي بعضهم علي بعض في هذه الأزمنة(١)، فإذا أراد أحدهم العمرة أو الحج لم يعرض إليه خصمه(٢)، بل كان بعضهم يُعير بعض إذا انتهك حرمة هذه الأوقات، حتى أن الرجل كان يقابل عدوه قاتل أبيه أو أخيه فلا يفزعه أو يمسه بسوء(٣).

فخلال هذه الأشهر يخمد القتال ويسود الوئام، إذ اعتاد العرب خلال هذه الفترة إيداع أسلحتهم وحفظ عتادهم الحربي، وأحيانا كانوا يودعون أطفالهم ونسائهم أيضاً، لدي شخص ذي مكانة، أصبحت الأمانة والوفاء والشرف والشهامة جزءاً أصيلاً من عاداته وتصرفاته(٤)، فيأمن الناس وينصرفوا إلي إدارة مشاغلهم والاعتناء بمعايشهم، وأداء مناسكهم وإعلاء شعائرهم، وعندما جاء الإسلام أكد حُسن هذه العادة، وقرر استمرار تحريم القتال في الأشهر الحرام(٥).

لذلك كانت جميع أوجه النشاط الاقتصادي تنتعش وتزدهر في الأشهر الحُرم، بل أنها خلالها تصل إلي أوجها وأقصي مستواها، إذ فيها يأمن الناس علي أرواحهم وأموالهم وتجارتهم، ويمكن للقوافل التجارية الوصول بسلام إلي الأسواق الحولية

(١) كان للعرب في الجاهلية ساعة يقال لها الفلتة يغيرون فيها وهي آخر ساعة من آخر يوم من أيام جمادي الآخرة. مرتضي الحسيني الزبيدي، تاج العروس، ج٤، مرجع سابق، ص١١٣٩.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، مرجع سابق، ص٥٩٩.
(٣) إلا أن هذا المبدأ لم يكن مبدأ عام يلتزم به جميع العرب، فكان جانب منهم لا يحرم عن مُحل ولا محرم كطيئ وخثعم. النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص١٢.
(٤) من ذلك أنه عندما رفض النعمان بن المنذر تزويج ابنته إلي كسري، وعلم أنه لا مانع له من أن يبطش به، ذهب إلي هانئ بن مسعود الشيباني في ذي قار، وكان سيداً منيعاً، فاستجار به وأودعه حلقه وسلاحه وأهله وولده. الطبري، تاريخ الطبري، مرجع سابق، ص٢٢٧؛ وقد برر ديورانت عملية التي اشتهر بها عرب الجاهلية، بأن البدوي لا يقبل في نسائه جدلاً قط، ويحارب العالم كله إذا لزم الأمر ليحميهن أو يدافع عن شرفهن. ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٣.
(٥) قال تعالي:﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾. سورة التوبة، جزء من الآية رقم (٣٦)، وحدد الرسول ρ هذه الشهور فقد ورد عنهρ أنه قال:"إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، السنة إثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان". صحيح البخاري، حديث رقم (٣١٩٧).

الكبرى، التي يُقام كثير منها في هذه الفترة الزمنية، والتي كان يقصدها غالب العرب، لتبادل منتجاتهم وتدبير مصالحهم، كما استغلت القبائل هذه المواسم في عقد أحلافها وتوسيع نطاق القائم منها(١)، لما في ذلك من تأمين سلامة أفرادها وحفظ ديارها، ففي حال القحط والاعتداء المسلح لا تشعر القبيلة بأنها محاطة بأعداء غرباء بل بحلفاء وأصدقاء(٢).

فأسواق العرب تشبه في وقتنا المعاصر المنتديات الاقتصادية الدولية، لذا كان يعقد فيها أغلب المعاملات المالية والصفقات التجارية الكبرى، فسوق عكاظ ـ السوق العامة الكبرى لأهل الجزيرة والقريبة من مكة(٣) ـ كانت تُقام في ذي القعدة، وكان العرب لا يحضرون سوق مُجنة وذي المجاز إلا وهم محرمين بالحج(٤)، فالقبائل العربية التي كانت تقصد مكة لأداء شعائر الحج والطواف بالكعبة، كانت تلتقي أولاً في الأسواق العامة التي يقصدها الناس من كل حدب وصوب، إذ يحتشد فيها طالب البيع والشراء وقاصد الربح والمال، لتحقيق منافع اقتصادية حيث يتمارى الناس ويتبايعون(٥)، بالإضافة إلي غير ذلك من المنافع المادية والأدبية والثقافية والمنافرة والمفاخرة(٦).

---

(١) يقول أبو ذؤيب الهذلي عن تواعد الناس في سوق عكاظ لممارسة الأنشطة وتجديد الأحلاف:

إذا بُنـــي القباب علي عكاظ .. وقام البيـــع واجتمـع الألوف
تواعدنا عكاظ لننزلنـــــــــه .. ولم تعلـــم إذا أني حليـــف
فسوف تقول إن هي لم تجدني.. أخان العهد أم أثم الحليـــــف

(٢) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٦٧.

(٣) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٢.

(٤) ذلك أن العرب كانوا إذا مضت عشرون من ذي القعدة انصرفوا إلي سوق مُجنة فأقاموا بها عشراً، فإذا رأوا هلال شهر ذي الحجة انصرفوا إلي ذي المجاز وأقاموا بها أسواقهم حتى إذا جاء يوم التروية انهوا السوق وانصرفوا مباشرة إلي عرفة. ألأزرقي، أخبار مكة، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٥) صور الأفغاني اهتمام العرب بالتجارة والمحافظة علي التواجد في الأسواق العامة، قائلاً:"العرب لاتحتشد لشئ احتشادها في هذه الأسواق". سعيد الأفغاني، أسواق العرب، مرجع سابق، ص١٧٢.

(٦) عندما أتي الإسلام لم يحرم ممارسة الأنشطة المباحة أثناء أداء مناسك الحج، بل وجه المسلمون إلي إمكانية تحقيق منافع متنوعة خلال موسم الحج، بجانب آداء شعائر الفريضة، قال تعالي:﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾. سورة الحج، جزء من الآية (٢٨).

فكانت الأسواق العامة وقتاً مناسباً ومقراً ملائماً لإنهاء المنازعات الكبرى، إذ كان يحضرها مشايخ العشائر وزعماء القبائل وكبار الكهان وعظماء المحكمين وعلية القوم، بالإضافة إلي الكثير من الذين عرفوا بأصالة الرأي وسعة المدارك ويقظة الضمير، وبرزوا في مجتمعاتهم بالفهم والمعرفة بطبائع القوم وأنسابهم وأعرافهم وتقاليدهم(١)، لذا كان الناس يستغلون هذه الفرصة، فيتواعدون للاحتكام فيها إليهم في النائرات المحتدمة والمنازعات العالقة بينهم(٢).

في تلك الأسواق تم عقد العديد من عهود الصلح والموادعة وتوثيقها، فأكبر حروب العرب جري إبرام عهد صلحها في هذه المواسم، إذ كان يحضرها سائر قبائل العرب من بعد منهم ومن قرب(٣)، فقد اصطلحت قبيلتي بكر وشيبان في سوق ذي المجاز، وأخذوا علي أنفسهم العهود والمواثيق وقدموا فيه الكفلاء(٤)، وعقد في سوق عكاظ مصالحة شاملة بين العبسيون والذبيانيون لحروب دامت عقود من الزمن(٥)، ذلك أن غاية عمل المحكمين لدي عرب الجاهلية توفيقية إصلاحية، تتمثل في تقديم

(١) وصف أحد شعراء بني أسد حضور قبيلة قريش وحدها سوق عكاظ، قائلاً:"يا قوم قد وافي عكاظ الموسم تسعون ألفاً كلهم ملأم(ملأم أي لابس اللأمة وهي الدرع)". البغدادي، المنمق في أخبار قريش، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٢) من أشهر حكام العرب قبل الإسلام الذين كانوا يحافظون علي التواجد في هذه المواسم بغية تحقيق العدل ورفع الظلم، أكثم بن سيفي بن رياح، الذي قال لقومه:"إذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه، وإن رأيتم غير ذلك فقوموني أستقم"، وعامر بن الظرب العدواني، الذي لم يكن للعرب نائرة إلا تحاكموا فيها إليه، وحاجب بن زرارة بن عدس التميمي، وهاشم بن عبد مناف القرشي، وعبدالمطلب بن هاشم جد النبيρ، ويعمر بن عوف بن كعب القرشي، وعبدالله بن جدعان، وحكيم بن حزام... وغيرهم.

(٣) احمد بن علي القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٤٣٥.

(٤) ذكر الشاعر الحارث بن حلزة اتفاق الصلح الذي عقد بين بكر وشيبان وتحالفهما في سوق ذي المجاز، قائلاً:

واذكروا حلف ذي المجاز وما .. قدم فيه العهــود والكفـــــلاءُ
حذر الجؤر والتعــدي وهــل .. ينقض ما في المهارق الأهواءُ

(٥) ارتبط قبيلتي عبس و ذبيان في الجاهلية بحروب عديدة، تعد من أطول الحروب التي عاشها العرب قبل الإسلام، أهمها حرب داحس والغبراء التي دامت حوالي أربعون سنة، وانضمت إليها قبيلتي طيئ وهوزان، ولم تنتهي إلا بعد اللجوء للتحكيم، الذي قال فيه زهير بن أبي سلمي:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة .. وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم .. ليخفي ومهما يكتم الله يعــلم

المساعي الواعية الجادة، ومساعدة الخصوم علي إنهاء منازعاتهم، دون أن يكون لهم إصدار ملزمة أحكام لها قوة تنفيذية.

وكان كل زعيم قبيلة بما له سلطة سياسة العلاقة الخارجية، يستغل هذه التجمعات لتحقيق أكبر قدر من المكاسب الاقتصادية والسياسية لقبيلته، بإقامة علاقات تعاونية بناءة بين قبيلته وغيرها من القبائل والأحلاف، فيرأس وفودها عند إبرام المعاهدات وعقد تحالفات الصداقة والمودة والشراكات المختلفة، فإن تحالفت القبيلة مع أخري أصبح لها عليها كل الحقوق، فتشترك معها في الحرب والغزو، وتحاكيها في تقاليدها وآلهتها(١)، حتى تصير وحدة سياسية واحدة، وتكون الرئاسة في هذا التحالف لأقوي قبيلة فيه، بالإضافة إلي مجلس يضم نخبة من مجلس كل قبيلة.

وغالباً ما تتكون الأحلاف بين أقرب القبائل نسباً أو صهراً(٢)، ولاسيما المتجاورة منها والتي يربط بينها وبين القبيلة روابط عرقية أو اقتصادية أو دينية، التي أوجدت شبكة من العلاقات الاجتماعية، تحولت مع الزمن إلي تكتلات السياسية، ربطت بعض القبائل بالبعض الآخر، وكان سيد كل قبيلة هو الضامن لتنفيذ قبيلته أحكام المعاهدات والمواثيق التي أبرمتها، وألا تسلك مسلك يتنافي مع أغراض تلك الاتفاقيات(٣).

وكان من عادة العرب إذا أرادوا عقد حلف اتبعوا طقوساً دينية وإجراءات شكلية عديدة(٤)، بهدف إضفاء مظاهر القدسية والحرمة والمهابة علي اتفاقاتهم

(١) د/ ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٨٢.
(٢) من ذلك أنه عندما ارتفع شأن قصي بن كلاب في مكة، قوي طموحه ورتب للحصول علي الحكم وتولي سدانة البيت، فأتصل بعشائر قريش وبطونها ووحد كلمتها، وحالف بطون كنانة، وأرسل إلي أخاه لأمه رزاح بن ربيعة بن حرام القضاعي ليعاونه متي لزم الأمر، فلما مات صهره حُليل بن حبسية الذي كان بيده سدانة الكعبة ويحمل مفاتيحها، حصل قصي علي مفتاح البيت الحرام وأعلن أحقيته بالولاية، ثم جمع شتات قريش وأنزلهم أبطح مكة، بعد أن كانوا في الشعاب ورؤوس الجبال. د/ احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، مرجع سابق، ص١١٨-١٢٢.
(٣) ابراهيم بن عبدالله بن محمد النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص٢٩.
(٤) نري أن هذه الإجراءات الشكلية قد تكون نتيجة اتصالهم المباشر والدائم بمن حولهم من الأمم والحضارات القديمة وبصفة خاصة الفارسية والرومانية.

وعهودهم، فكانوا غالباً ما يتخيرون مكان له صفة دينية مقدسة في نفوسهم جميعاً، يلتزمونه ويبرمون حلفهم عنده، ولما كانت الكعبة أشرف البقاع لدي العرب جميعاً منذ قبل الإسلام، وأقدسها لدي القرشيين بصفة خاصة، لذلك عندما حسمت بطون قريش وعشائرها أمرها، وتعاهدت بطونها في دار الندوة، علي قتل النبيρ، انتقلت إلي حجر الكعبة وأبرمت فيه عهدها، وأقسموا بهذا المكان المقدس علي أن يحترموا هذا العهد ولايتخاذلوا عن القيام بواجباته[١]، وذلك في حضرت آلهتهم جميعاً كبيرها وصغيرها، التي يتضرعون لها ويتوجهون بالدعاء إليها، ليقسموا بالمكان وبها أمامها ليكونا شهداء علي ميثاقهم[٢]، ولتصب جام غضبها علي من يخالفه أو ينقضه[٣]، وللخشية العميقة من الآلهة فإن البدوي كان لا يحلف كذباً مهما كانت النتيجة[٤].

وكان تعظيم النار وتقديسها شائع عند الأمم القديمة، بحيث لا يمكن إقصاؤها عن شئون حياتهم، حتى وصل الأمر ببعضهم إلي عبادتها، واستخدموها رمزاً للدلالة علي أهم مظاهر حياتهم، ومن أبرز هذه المظاهر استخدام النار[٥]، للدلالة علي حالة

---

(١) د/ محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص٧٢.

(٢) ورد بالشعر الجاهلي الكثير من صيغ القسم بالبيت والآلهة، من أمثلتها:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله .. رجال بنوه من قريش وجرهم
إن ورب العزي الســــــــعيدة .. والله الذي دون بينه ســرف
إني حلفت يمين صـــــــدق برة .. بمناة عند محـل آل الخزرج

(٣) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزي ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قدر رأينا محمداً، لقمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي حتى دخلت علي النبيρ، فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك، قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا عرف نصيبه من دمك). مسند الإمام أحمد، حديث رقم (٢٧٦٢).

(٤) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، مرجع سابق، ص١٠-١١.

(٥) كان لدي عرب الجاهلية أنواع عديدة من النار، أورد القلقشندى ثلاثة عشر نوعاً منها، هي: نار المزدلفة، ونار الاستمطار، ونار الحلف، ونار الطرد، ونار الأهبة للحرب، ونار الحرثين، ونار السعالي، ونار الصيد، ونار الأسد، ونار السليم، ونار القري، ونار الفداء، ونار الوسم. القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٤٣٤؛ وزادها الثعالبي إلي ثلاثين نوعاً. عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ب.ت، ص٣٣٥-٥٨٥.

الحرب أو السلم، فإذا أراد العرب التحالف أو التعاهد، لجأوا إلي رجل من السدنة النار المختصون بخدمتها يقال له "المهول"(١)، فأوقد لهم ناراً حلف، لها مكون محددة وشكل مخصوص، تُسمي"الهُولة أو المهولة"(٢)، يدنوا إليها الأطراف المتعاهدة ويقتربون منها شيئاً فشيئاً حتى تكاد تحرقهم(٣)، ثم يطرح سدنتها فيها مزيج من الملح والكبريت، فإذا وقع الخليط فيها استشاطت وتنقضت(٤)، فيهابها الأطراف وشعروا بهول وقدسية ما يقدمون عليه، فيسعون إلي تعزيز عهدهم وتوثيق حلفهم وتأكيد ميثاقهم، حتى يكبر في نفوسهم شأن هذا الحلف ويعظم أمره(٥).

وجرياً علي عادة جاهلية كان العرب وهم علي هذا الحال، يعددوا منافع النار من فوائدها وخيرها(٦)، ثم يتصافحون أمامها ويدعون بالحرمان من خيرها والمنع من منافعها، علي من ينقض العهد أو يبخسه أو ينكث عن القيام بواجباته(٧)، اعتقاداً منهم

---

(١) قال الشاعر أوس بن حجر في ذكر المهول المختص بنار التحالف:
إذ استقبلته الشمس صد بوجهه .. كما صد عن نار المهول حالفُ

(٢) أشار الكميت بن زيد إلي نار التحالف، قائلاً:
كهولة ما أوقد المحلفـــون .. لدي الحالفين وما هولـــوا

(٣) تحالفت مجموعة من قبائل مرة بن عوف الذبيانيون عند نار أوقدوها ورضوا بها ودعوا عندها ودنوا منها حتى كادت تحرقهم، وعشوا بها،حتى محشتهم، فسموا المحاش. الجاحظ، الحيوان،ج٤، مرجع سابق، ص٤٧١.

(٤) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٥) لما أشرقت شمس الإسلام دعي إلي الوفاء بحلف الجاهلية، فما كان منه علي الفتن والقتال بين القبائل والغارات فقد نهي النبيρ عنه أما ما كان منه علي الخير ونصرة المظلوم وصلة الأرحام ونصرة الحق فقد زاده شدة. محمد المناوي، فيض القدير، ج٣، مرجع سابق، ص٨٠.

(٦) كان العرب إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء، فأجدبت الأرض وأمسكت السماء، واحتاجوا إلي الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشور، ثم صعدوا بها في جبل واعر، واتجهوا نحو الغرب، وأشعلوا النيران فيها، وضجوا بالدعاء والتضرع، بهدف الخروج من الأزمة، هذه النار كانت تسمي نار البرق، إذ أنهم اعتقدوا بأن كل نار في الدنيا تحرق العيدان وتهلكها، إلا نار البرق فإنها تجئ بالغيث وإذا غيثت الأرض ومطرت أحدث الله للعيدان جدة وللأشجار أغصاناً، قال فيها الشاعر:"نار تعود به للعود جدته .. والنار تُشعل نيراناً فتحترق، وقال فيها الطائي:"لا در در رجال خاب سعيهم .. يستمطرون لدي الإعسار بالعشر". الجاحظ، الحيوان،ج٤، مرجع سابق، ص ٤٦٧-٤٨٨.

(٧) ذلك أن الوفاء بالعهد من أخلاق العرب الأصيلة، حيث إن الرجل منهم كان ينطق بالكلمة فتصبح عهداً، عليه أن يفي به وإلا عرض شرفه للتجريح، ولما كان النقض مقابلاً للوفاء لذا كان

أن ناقض العهد سيصاب حتماً بشظف العيش وحرمان الحياة أو سعادتها[١]، وربما تحالفوا وتعاقدوا علي الملح[٢].

وأثناء عقد الحلف كانوا يغمسون أيدهم في الرماد أو الدم أو الطيب[٣]، للدلالة علي اشتراكهم وتأكيد عهدهم علي أن لا يتخاذلوا ولا يُسلم بعضهم بعضا، فهم بهذا الفعل أصبحوا كيان واحد، ثم يمسحوا جميعاً أيدهم في المكان المقدس[٤]، أو يصبون الدم علي وثنهم المعظم الذي تم التحالف أمامه، كميثاق يتم عهدهم به وتتحد كلمتهم عليه، ويتلفظون بعبارات تدل علي رضاهم واشتراكهم، وأنهم بهذا الحلف اندمجوا وأصبحوا شئ واحد[٥].

ففي خضم إجراءات التحالف والتعاهد، كانوا يرددون عبارات معينة، هدفها إضفاء قدسية علي العهد المبرم بينهم، من ذلك قولهم:"الدم الدم والهدم الهدم[٦]، لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً، وطول الليالي إلا مداً، ما بل البحر صوفه، وما أقام رضوي"[٧] في مكانه"[١]، كذلك قولهم:"دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي

معرة يتجافون عنها، وفي ذلك يقول قطبة بن محصن:"إنهم لم يغدروا وإنهم لن يأتوا ما يشكك حليفهم فيهم". الضبي، المفضليات، مرجع سابق، ص٤٥.

(١) النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص٢٩-٣٠.

(٢) يري الجاحظ أن الملح يعني شيئان أحدهما المرقة والآخر اللبن. أبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان،ج٤، مرجع سابق، ص٤٧٢؛ ويؤكد ذلك البجيرمي قائلاً أن الملح عند العرب شيئان: ملح الادام التي تملح به واللبن وهما سواء عند العرب، فالمتحالفون يجتمعون علي طعام وملح أو علي شرب لبن. النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص٣١.

(٣) أبي محمد عبدالملك بن هشام، سيرة النبيρ، ج١، تحقيق د/ فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١، ١٩٩٥، ص١٧٨.

(٤) بعد أن غمس المطيبون أيدهم في الطيب مسحوها في جدار الكعبة. البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، مرجع سابق، ص٥٦.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة(غمس).

(٦) المعني دماؤنا ودمائكم سواء، وهدمنا هو هدمكم، فما هدم لكم من بناء أو أي شأن آخر فقد هدم لنا، وما أريق لكم من دم فقد أريق لنا، ويلزمنا نصرتكم كما يلزمنا نصرة أنفسنا. النجيرمي، ايمان العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص٢٩-٣٠.

(٧) رضوي اسم جبل يقع في منطقة المنورة في ديار قبيلة جهينة، كانوا لتغليظ قسمهم يقسمون بالذي أرساه في مكانه، وكل قوم يمكنهم ذكر اسم جبل مشهور لديهم يضمنوه صيغة القسم.

حربك، وسلمي سلمك، ترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك"[٢]، وأثناء تنفيذ العهد كان بعضهم حريص علي تذكير البعض، وتشجيعه وحثه علي الاستمرار في تنفيذ عهد، قائلاً:"أنجز حُر ما وعد"[٣]، ذلك أن أعضاء الحلف لهم مصير واحد نصراً كان أم هزيمة[٤].

وكان من شأن تلك الإجراءات والطقوس، تقيد المتحالفين بأحلافهم والتزام المرتبطين بمعاهداتهم التزاماً شديداً[٥]، وإضفاء طابعاً إجباريا علي اتفاقهم، ويدلل بعض الكتاب علي مدي احترام عرب الجاهلية والتزامهم بحرفية عبارات الصيغة التي تعاهدوا عليها، واستمرارهم علي تطبيقها حتى بعد مجي الإسلام، بأن الرسولρ استعمل هذه الصيغة عندما تعاهد مع الأنصار[٦].

فقد دفعت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية القبائل إلي تكوين أحلاف لتوطيد نظمها الداخلية أو لتحقيق أغراض مشتركة، إذ بعد والقيام بالإجراءات الشكلية وإتمام مراسم الاتفاق، تصبح القبائل المتحالفة كيان واحد في صفوف متراصة مجاورة، لأطرافه نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات[٧]، تحت قيادة واحد يكون له الكلمة العليا علي الحلف كله، فإن لم تتفقوا علي جعل الرئاسة لأحد المشايخ، اتخذوا

---

(١) قاصدين بذلك القسم اتحاد دم الحلفاء في القتل، فإذا طلب دمكم فقد طلب دمنا أيضاً وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمنا كذلك. الجاحظ، الحيوان،ج٤، مرجع سابق، ص ٤٧٠.

(٢) جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٣٠هـ، ص٢٣٤.

(٣) د/ جلال شمس الدين، الفضائل والقيم لدي الشعوب القديمة ذوات الأديان الإنسانية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط٢، ٢٠٠٥، ص ١٩٠.

(٤) يقول الفرزدق:

فإن تك قيس قدمتك لنصرها .. فقد خزيت قيس وذل نصيرها

(٥) د/ توفيق برو، تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ص٢٠١.

(٦) ابراهيم بن عبدالله بن محمد النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص٣٠.

(٧) عبر العرب عن مبدأ المساواة بين أطراف الحلف بقولهم الدم الدم الهدم الهدم، قاصدين به اتحاد دم الحلفاء في القتل، فإذا طلب دم أحدهم فقد طلب دم الجميع وإن أهدر دم فقد أهدر دم الجميع. أبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان،ج٤، مرجع سابق، ص٤٧٠.

مجلس قيادة يتكون من عدد فردي من زعماء القبائل(١)، فإن خالف أحدهم بنود هذا الميثاق أو بغي علي غيره من أطراف الحلف، كان جزاؤه جزاء كُليب بن ربيعة التغلبي، حين بغي وطغي علي أحلافه من بني بكر، قتلوه(٢)، مما كان سبباً في نشوب حالة حرب بينهم بعد أن كانوا حلفاً واحداً، هي حرب البسوس التي استمرت ردحاً طويلاً من الزمن(٣).

وقد أدي تعدد أغراض الأحلاف إلي شيوع أنواع عديدة من التكتلات القبلية قبل الإسلام، فاق عدد أفراد بعضها عشرات آلاف البشر، فقد عرفت القبائل العربية نظام الأحلاف الداخلية بين كيانات القبيلة الواحدة، بحيث ينضم الصغير منها إلي الكبير، بهدف لم شمل الجماعة وتوحيد إمكانياتها وقدراتها(٤)، أو دفع مخاطر الاعتداء عنها، كالأحلاف التي عقدت بين بطون قبيلة تميم، منها الحلف الذي عقد بين بني نهشل(٥) وبني يربوع(١)، وتظل كل قبيلة مشتركة في الاتحاد محتفظة بحريتها في تحديد سياستها الداخلية(٢).

---

(١) عندما اختلفت قبائل قيس في اتخاذ أحد مشايخها قائداً لحلفها ضد قبائل كنانة، تم تكون مجلس قيادة ضم خمسة من زعماء القبائل. محمد بن حبيب البغدادي، المنمق في أخبار قريش، مرجع سابق، ص١٧٥.

(٢) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٦٠.

(٣) حرب البسوس نسبة إلي البسوس من قبيلة تميم، نشبت نتيجة قيام كُليب زعيم قبيلة تغلب بني وائل وسيد قبائل معد، بقتل ناقة لسعد بن شمس الجرمي، كانت ترعي مع إبل كُليب في حمي قبيلته، وكان سعد في جوار البسوس بنت منقذ، التي استجارت بإبن أختها جساس، إذ كانت نازلة في ديارهم، وأنشدت تقول:

لعمري لو أصبحت في دار منفقذ .. لما ضيم سعد وهو جـــار لأبياتي
ولكني أصبحت في دار غربـــة .. متي بعد فيها الذئب يعدُ علي شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل .. فإنك في قوم عن الجـــار أموات

فأثارت هذه الأبيات حمية الجاهلية في نفس ابن أختها جساس بن مرة الشيباني فانتظر حتى خروج كُليب منفرداً ورماه بسهم أجهز عليه، فشبت الحرب بينهما في عام الفيل.

(٤) كان الضم في بعض الأحيان يؤدي إلي ذوبان بعض الكيانات وتلاشيها، كما تلاشت كثير من القبائل المتحالفة في قبيلة تنوخ. د/ ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٨١.

(٥) نهشل بطن من تميم ينتسب إليها الفارس الجاهلي والقائد المغوار والسيد الحكيم صخر بن نهشل بن دارم بن مالك بن حظلة بن مالك التميمي، ويربوع أيضاً بطن من تميم، امتازت بالشرف وكثرة

أيضاً عرف العرب أحلاف هدفها إقامة العدل ونصفة المظلوم، ومن أشهرها وأكرمها حلف الفضول، الذي عقد في دار عبدالله بن جدعان، لعلاج النقص والضعف الذي شاب تنظيمات مكة، فلم يكون القضاء منظماً، كما لم يوجد منصب للقاضي، إذ اكتفي الناس باللجوء إلي مشايخ القبائل والمحكمين والكهان والعرافون، لذلك اجتمعت طوائف قريش وتعاقدوا علي إنشاء حلف، مهمته مؤازرة المظلوم ونصرته سموه (حلف الفضول)، فلا يظلم بمكة غريب أو قريب، حتى يأخذوا له حقه، ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم أو من غيرهم، وقد حضر الرسولρ هذا الحلف وقال عنه:"لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار ابن جدعان أحب أن لي به حُمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت"(٣).

كذلك عرف العرب الأحلاف الوقتية، التي تهدف إلي القيام بمهمة معينة أو تحقيق مصلحة مشتركة محددة، ومتى انتهت المهمة أو انقضت المصلحة أو اختفي سبب الاتحاد أو تلكأ أحد الطرفين في تنفيذ واجباته، انفض الحلف وعادت القبائل إلي سابق عهدها، وحدات مستقلة لا يعتمد بعضها علي بعض في شئ، وهذا النوع من الأحلاف قد يتكون بين قبيلتين متجاورتين إحداها أقوي من الأخرى، كالتحالف العسكري الذي كان بين الأوس واليهود ضد الخزرج عندما تغلب الخزرج علي الأوس في يوم بعاث(٤)، وقد يكون التحالف بين قبيلتين متساويتين، كالتحالف بين قبيلتي عبس وضبة، الذي عقد لتقوية ضبة في مواجهة قبيلة تميم، التي تحالفت بطونها في مواجهة القبائل المعادية، ومن ذلك التحالف بهدف السيطرة علي منابع الماء

العدد، وهي تنتسب إلي يربوع بن حظلة بن مالك التميمي، شريف قبيلة تميم وإليه ينتسب شعرائها المخضرمين مثل عتيبة بن حارث اليربوعي والكحيلة اليربوعي ومالك بن حطان وهمام بن رباح.

(١) وثق الشاعر النابغة الذبياني التحالف بين كيانات قبيلة تميم، قائلاً:

جمع محاشك يا يزيد فإنني .. أعددت يربوعاً لكم وتميما

(٢) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٤.

(٣) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية،ج١، مرجع سابق، ص١٨١.

(٤) يوم بعاث تحالفت قبائل اليهود وقبيلة مزينة مع الأوس، وتحالفت الخزرج مع قبيلتي أشجع وجهينة. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، مرجع سابق، ص٦٠١.

باسترجاعها من غريم اغتصابها أو انتزاعها من أصحابها، كالتحالف الذي عقد بين بني مازن وبني يربوع من أجل منع قبيلة بكر من الوصول إلي ماء الوقبي واقتسامه بينهما(١).

بالإضافة إلي ما تقدم عرف العرب نظام الردافة(٢)، الذي يعتبر صورة من صورة المصانعة، التي هي مظهر من مظاهر العلاقات السلمية التي سادت في فترة من زمن الجاهلية، فقد اتفق المناذرة مع قبلية تميم علي منحهم بعض الامتيازات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في مقابل التعايش السلمي وحسن الجوار، لأن بنو يربوع من تميم كانوا دائمي التحرش بعرب الحيرة، فصالحهم ملوك الحيرة علي أن يجعلوا لهم أمر الردافة، في مقابل استمرار الوئام والسلام بينهم، ولكي تكف تميم عن شن الاغارات علي حماهم(٣)، ومضمون الردافة أن يجلس الردف علي يمين الملك فإذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس، وإذا ركب الملك للصيد ركب خلفه، وإذا قام الملك للغزو قعد الردف موضعه، وكان خليفته علي الناس حتى ينصرف في شئونهم، فالردف بمنزلة الوزراء في الإسلام(٤)، وإذا عادت كتيبة الملك أخذ الردف المرباع(٥).

ولضمان تنفيذ العهود والموادعات والتزام أطراف الأحلاف بمضمونها، جرت عادة العرب علي صبغ علاقاتهم الودية بصبغات دينية، بأن يتبعوا اتفاقهم بألفاظ تدل علي أنهم أقسموا بما هو مقدس وعظيم وفقاً لمعتقداتهم وفكرهم الديني، وفي بعض الأحيان كانوا يؤكدون حلفهم بتغليظ أيمانهم عن طريق تثنية القسم وإعادته(٦)، سواء

(١) د/ عبدالحميد سلامة، قضايا الماء عند العرب قديماً، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٤، ص ١٠٠.

(٢) الردافة هي نظام فحواه وجود شخص يلي الحاكم ويقوم مقامه عند غيابه، اتخذه العرب من الأمم النصرانية المجاورة لهم، وهي كالوزارة شاعت عند ملوك الحيرة والغساسنة.

(٣) لويس شيخو اليسوعي، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٩، ص٤٠٨.

(٤) الحموي، معجم البلدان،ج٣، مرجع سابق، ص٥١٨.

(٥) يقول الشاعر في الردافة وعوائدها:

ربعنا وأردفنا الملوك فظلوا .. وطاب الأجاليب الثمام المنزعا

(٦) جاء في ديوان الهذليين:

بنفس اللفظ أو لفظ أخر(١)، أو بالحلف في مكان مقدس وبصفة خاصة أمام الأنصاب(٢).

ولتوكيد عرب الجاهلية تعهداتهم نعتوا اتحاداتهم وتحالفاتهم بلفظ الحِلف، نسبة إلي يمين العهد وقسم الولاء، الذي كانوا يقسمونه عند إبرام عهودهم(٣)، لإضفاء نوع من القديسة عليها، وتأكيداً علي الإخلاص في تنفيذها، وإبعاد الشك والريبة من نفوس المتوادعين، والتزامهم بضوابط أحلافهم وتمسكهم بوعودهم، فقد كانت هذه الأيمان عاملاً مُهماً في التمسك بالعهود والالتزام بالمواثيق، ذلك أن العرب كانت تخاف من الحلف كذباً، لاعتقادهم أن العاقبة السيئة ستصيب حتماً حالف اليمين الكاذبة، وأن الحانث في اليمين هالك لا محالة، إن لم يكن عاجلاً فأجلاً(٤).

قد كنت أقسمت فثنيت بالقسم .. لئن نأيت أو رقيت من أمم

(١) استعمل العرب ألفاظ متعددة للدلالة علي الأيمان بالمقدس، منها لفظ (أقسمت) مثل قول حسان بن ثابت:"أقسمت أنساها وأترك ذكرها حتى تغيب في الضريح عظامي"، ومنها لفظ (حلف) كقول النابغة الزبياني:"حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرءِ مذهب"، أيضاً لفظ (يمين) من ذلك قول أمري القيس:"فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي"، كذلك لفظ (آلي) كقول بشر بن أبي خازم وهو يهجو أوس بن حارثة:"فقولوا للذي آلي يميناً أفي نذرت بأوس النذورا". النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص١٣ وما بعدها.

(٢) قال طرفة بن العبد:

فأقسمت عند النُصب إني لميت .. بمتلفة ليست بغرب ولا خفض

(٣) قال الجاحظ:"وأصل الحِلف والتحالف إنما هو من الحلف والأيمان". الجاحظ، الحيوان،ج٤، مرجع سابق، ص٤٧١.

(٤) د/ جواد علي، المفصل، مرجع سابق، ص١١٦٣.

الفصل الثالث: مجلس القبيلة

الثقافة السياسية لأي مجتمع يحددها مدي السيادة، ونمط المشاركة السائد داخل المجتمع، ووجود مبدأ استقلال القبيلة سياسياً واقتصادياً، جعل من الصعب وجود حكومة مركزية واحدة لها سلطة قسرية علي جميع القبائل العربية، فلا رئيس واحد يحكمها، ولا مجلس مشترك يدير شئونها، ولا حاكم عام عسكري أو مدني واحد، ولكل منها أعرافه الخاصة به، ولا قضاء منظم يطبق القواعد العرفية علي الجميع، كما لا يوجد فنون إدارية مستقرة يُجمع عليها الجميع، فهم محافظون حريصون علي كل ما وصل إليهم، متمسكين بما كان عليه أسلافهم من حرية واستقلالية وفردية، دون تغيير أو تبديل.

لذلك ظل أمر كل قبيلة ينظمه رؤسائها ومشايخها وحدهم، باعتبارهم صفوت المجتمع وأكابره المجربين، أهل الحل والعقد فيه، يكونون في كل قبيلة مجلساً، يبحث أحوالها ويدبر شئونها ويسير أمورها، لهم سلطة إصدار القرارات والأمر والنهي العامة، بعد دراسة الأمر والتشاور فيه، في إطار ما لديهم من دراية ومعارف واسعة بمجتمعاتهم، فهو نظام شبه ديمقراطي لايقوم علي السلطة الفردية، بل يكون فيه لسادة القبيلة أدوار متعددة، يؤدونها بطريقة جماعية أو فردية، وهذا يظهر جلياً في إنشاء وتكوين مجلس القبيلة، وانعقاده واتخاذ قراراته، والمهام والاختصاصات التي يمارسها، وأسلوب الإدارة الذي يتبعه.

وسنقسم هذا الفصل إلي خمسة مباحث، الأول: نشأة مجلس القبيلة وتكوينه، الثاني: انعقاد المجلس، الثالث: اختصاصات المجلس ومهامه، الرابع: اتخاذ القرارات داخل مجلس القبيلة، الخامس: توزيع إدارة شئون القبيلة.

المبحث الأول: نشأة مجلس القبيلة وتكوينه

البدو ليس لهم عمل ـ في الغالب ـ سوي رعي الأنعام والإبل والإشراف عليها والبحث عن الكلأ والماء، وهو أمر روتيني متكرر لا يستوجب بذل مجهود ولا إهدار طاقة، لذلك يعهد بها إلي الأحداث والموالي والعبيد(١)، أما الرجال ليس لهم في وقت السلم عمل مهم يذكر، غير التدريب والاستعداد الذي نشوء عليه، لذلك يقضون معظم وقتهم جلوساً بغير عمل، يتحدثون مع بعضهم في شتي مناحي الحياة، بل يقطعون المسافات لزيارة الأقارب والجيران، لقتل الوقت بالانتقال والكلام معهم، أو للتحدث عن غزو سابق أو التفاخر بسير سادة القبيلة وأشراف عشائرها، أو ما يعترضهم من معضلات، بالإضافة إلي ما يثير شجونهم واهتماماتهم(٢).

ولما كان المبدأ قيام زعامة القبيلة علي الاختيار الحر بين سادة القبيلة(٣)، لتنصيب أحدهم ليكون سيداً لها، مما استتبع أن يكون الزعيم محدود السلطان مقيد النفوذ، إذ أن مرجع الأمر كله ـ بحسب الأصل ـ لمجلس القبيلة الذي يضم وجهاء القبيلة وأشرافها، فهذا المجلس هو الركن السامي وذروة سنام القبيلة، فمجلس القبيلة هو رأس الأمر والسلطة العليا، التي تعمل علي حماية المصالح الجماعية، باعتباره المُعبر عن الرأي العام للقبيلة، الناطق بلسانها المعبر عن حاجاتها وآمالها(٤).

ولما كانت القبيلة هي أكبر كيان اجتماعي وأعقد تنظيم سياسي، عرفه عرب الجاهلية، ولما كان ينضوي تحت راية القبيلة العديد من الكيانات الأصغر حجماً والأقل عدداً، ولكل منها كيان خاص به وسمات تميزه عن غيره، وكان لكل كيان منها سلطة تعبر عن رأيه وتمثله في مواجهة الكيانات الأخرى داخل مجتمع القبيلة، لذلك لم يكن

---

(١) كانت الحملات العسكرية القبلية تهدف في الغالب إلي الحصول علي العبيد والاستيلاء علي النساء والأموال من الجماعات المهزمة. بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٧.
(٢) د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٦٠٦– ٦٠٧.
(٣) يري سيديو أن اختيار القبلية لرئيسها لا يعني بالضرورة نشوء مجتمع متحضر أو قيام دولة موحدة في وسط الصحراء. لويس سيديو، خلاصة تاريخ العرب، مرجع سابق، ص٣٧.
(٤) د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٥٦.

بالقبيلة شيخ واحد بل شيوخ، فلكل وحدة من وحدات القبيلة سيدها وشيخها، فالعمائر والبطون والعشائر والأسر، لكل منها سلطة ذاتية، يدين لها أفراد الجماعة بالطاعة والخضوع، وعلي الجانب الأخر يمثل هؤلاء المشايخ وحدتهم ويعبرون عن رأيها في مجلس القبيلة أثناء انعقاده، فكل هؤلاء وغيرهم من أصحاب الخبرة والرأي والمشورة والحرب، أعضاء أعلي مجلس في القبيلة(١).

واستمراراً في محاولات القبائل العربية في التوجه نحو التمدين، والإحتذاء بنظم الحكم والإدرة في ممالك الشرق القديم والمجتمعات العربية المتحضرة، خاصة التي كان حكامها يتخذون مجالس للشوري وتدبير شئون البلاد، كمصر القديمة التي اتخذ ملكها مجلس أُطلق عليه مجلس الملأ، ذكره القرآن الكريم في سورة يوسفu، قال تعالي علي لسان ملك مصر:{يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ }(٢)، وقال عز وجل أيضاً:{قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيم }(٣)، وفي جنوب الجزيرة العربية نفسها، نجد أن مجلس الملأ قائم وفعال وله دور مؤثر في الحياة العامة، يمارس نشاطه في تقديم الرأي والمشورة للحاكم، قبل أن يتخذ قرارات تمس الشأن العام، وقد أشار القرآن الكريم إلي وجوده في مملكة سبأ، قال تعالي:{قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}(٤).

ونظراً لأن الحرفة الرئيسية لقريش كانت الانتقال شمالاً وجنوباً لعرض التجارة أو جلبها، وهو ما هيأ لها فرص الاحتكاك الدائم بمعظم الجنسيات ومختلف الحضارات(٥)، وساعدها علي تبادل الأنظمة والخبرات، وفي نفس الوقت كانت قريش محط أنظار العرب وقبلتهم، لذلك لعبت قريش منذ العهود الباكرة دور الوسيط المباشر

(١) يقول الشاعر أبو الأسود الدؤلي:لايصلح الناس فوضي لاسراة لهم .. ولا سراة إذا جهالهم سادوا.
(٢) سورة يوسف، جزء من الآية رقم(٤٣).
(٣) سورة الشعراء، الآية رقم(٣٤).
(٤) سورة النمل، الآية رقم(٣٢).
(٥) من مظاهر هذا الاحتكاك أن المجتمعات التجارية كانت تستخدم البدو كهداة للطرق أو حماة للتجارة من الإغارة. د/ احمد أمين ، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص١٠.

وحلقة الاتصال الدائمة، بين المجتمعات المتمدينة والقبائل العربية الرعوية(١)، إذ كانت صلتها التجارية وصفقاتها الكبري، بالدرجة الأولي مع المدن المتقدمة والمراكز الحضرية، وهو ما ساعدها علي الإطلاع علي الكثير من نظمها، والاحتكاك بثقافات مختلفة، والمقارنة بينها ونقدها، واقتباس أصلحها وأنسبها ونقله إلي مكة، ومن ذلك نقل الأفكار والمعتقدات الدينية، فقد كان العرب علي الحنفية دين ابراهيمU(٢)، حتي أستولي علي السلطة في مكة عمرو بن لحي(٣).

كما أخذت قريش من الحضارات الشمالية والجنوبية، ما يناسبها من شئون الحكم ونظم الإدارة، ونقلوا العديد من النظم القانونية والإدارية والاقتصادية(٤)، أخصها قيام نظام الحكم والإدارة القائم علي المفهوم الجماعي، فبالرغم من وجود زعيم يقود الجماعة، إلا أنه لايستبد بالسلطة أو ينفرد بالإدارة، بل يشاركه فيها عدد من أشراف الناس ووجوهم، فمما وصل إلي مكة قبل الإسلام بقرون عديدة، اجتماع رؤساء العشائر وسادة البطون، في مجلس سُمي مجلس الملأ، وذلك بصفة دورية في مكاناً معيناً وزماناً محدداً، لتنظيم أوضاع المدينة وتدبير شئون الجماعة، والتشاور في تأمينها والدفاع عن مصالحها، فعلي رأس القبيلة زعيم يوحد جهودها وينسق بين عناصرها، وفي نفس الوقت لكل عنصر من عناصر القبيلة قائد، هو بشكل عام الرجل الأكبر سناً والأكثر خبرة، يعبر كل منهم عن إرادة وحدته(٥).

---

(١) يري البعض أن هناك فرق أساسي واحد بين البداوة والحضارة، فالبدوي يكتفي بالضروري من أسباب المعايش، بينما يتوسع أهل الحضر في الترف والنعيم سواء في المآكل أو الملبس أو المسكن، ومن هذا الفرق تتفرع جميع خصائص البداوة والحضارة المدنية، بما في الحضارة البدوية من محاسن ومساوئ. د/ عمر فروخ، العرب تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤، ص٥٦.

(٢) الحنفية كانت ملة ابراهيم عليه السلام وقد أشار إلي ذلك القرآن الكريم، قال تعالي:﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. سورة النحل، الآية (١٢٠).

(٣) عمرو بن لحي الخزاعي أول من غير دين مكة، إذ جلب الأصنام من الشام ووضعها موضعها من الكعبة، فعبدتها خزاعة وقريش، ومن حج البيت بعد ذلك من العرب، قلدها واتخذ له أصناماً دان لها وعبدها، حتى كانت مكة عند مجئ الإسلام مركزاً لعبادة الأصنام. هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، تحقيق/ احمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٥، ص٩، ١١؛ ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٧.

(٤) د/ صالح احمد العلي، الإدارة في العهود الإسلامية الأولي، مرجع سابق، ص٥٩.

(٥) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٦٢.

وقد أطلق العرف القبلي العربي علي مجلس القبيلة مسميات متعددة بحسب اتجاهات القبيلة وولائها السياسي والثقافة التي حلت بأرضها، فبعد أن جمع قصي بن كلاب قريش في بطحاء مكة، أراد أن يكون أمر مكة جماعياً تشاورياً، فأنشأ "دار الندوة". وهي تشبه مجلس الشيوخ في النظم اليونانية والرومانية الأولي[١]. لتكون مركزاً اجتماعياً وسياسياً، ومقراً للرئاسة والحكم، وديواناً للإدارة مكة، ومجلساً لشيوخها يجتمع فيه سادتها من أشرافها وحكمائها، وأطلق علي اجتماعهم للتشاور في جميع أمور مكة وحياتها المدنية والسياسية "مجلس الملأ"[٢]، بذلك الصنيع استطاع قصي أن يحوز شرف مكة وأن يكسب ود قومه[٣]، فنصبوه رئيساً عليهم[٤].

وقد أشارت السنة النبوية إلي استمرار نشاط مجلس الملأ المكي الذي أسسه قصي بين كلاب (من٤٠٠ إلي٤٨٠م)، إلي ما بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، فقد روي أن النبيρ سمع رجلاً يقال له سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري عند أن القفول من غزوة بدر(٦٢٤م) يقول:"ما قتلنا إلا عجائز صلعاً"، فقالρ:"أولئك الملأ من قريش[٥]، لو رأيتهم في أنديتهم لهتهم، ولو أمروك لأطعتهم، ولاحتقرت فعالك عند فعالهم"[٦]، أي أن هذا المجلس ظل يمارس نشاطه حوالي مائتي عام قبل الإسلام،

(١) أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٩٧، ص٥١.
(٢) يقول الشاعر:"تنادوا يال بُهثة إذ رأونا .. فقلنا أحسني ملأ جُهينا"، وقيل سُمي بهذا الاسم لقيامه بمعاونة الرؤساء والخلق فيما يحتاجون إليه،وقيل لأنهم يتعاونون بما لا مزيد عليه، وقيل من مساعدة الآخرين علي الشئ الذي لا يقدرون عليه، وقيل من المساواة بين علية القوم ووجوههم، وقيل من الخبرة والدراية فهم ممتلئون شرفاً مليؤون بكل ما يحتاج إليه الناس، وقيل لأنهم يملؤون العيون رواءً ومنظراً، يعجبك حسن مجلسهم وبهجته إذ هو أتم في كل شئ، وقيل أصحاب المصالح والأغنياء المترفون وزعماء المناطق الذين يتمتعون بالنفوذ والسيادة، يأمرون فيطاعون، ويدعون فيستجابون، ويسنون فيُتبعون، ولهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والقضايا العامة الداخلية والدينية والسياسية والاجتماعية. د/ عثمان جمعة ضميرية، تعريف الملأ في الفكر الإسلامي، مجلة البيان، العدد الرابع، جمادي الآخر ١٤٠٧هـ، ص٣٩.
(٣) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ص ٨٧.
(٤) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، مرجع سابق، ص٣٦.
(٥) قال ابن هشام: الملأ: هم السادة الأشراف والرؤساء والجماعة المشاورة.
(٦) إسماعيل بن عمر ين كثير القرشي، البداية والنهاية، ج٣، مرجع سابق، ص٣٧٢؛ محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران، ط٢، ١٤٣١ هـ، ص٢٨٨.

وهي مدة طويلة تدل علي فعاليته وكفاءته وكفاية في إدارة شئون هذا النوع من المجتمعات، لذلك توارثوه جيلاً بعد جيل وقبيلاً بعد قبيل(١).

ولما كان التنظيم السياسي ليس حكراً علي الجماعة التي أنتجته، وكان عرب البوادي لا يقلون عن عرب الحواضر من حيث الروح الديمقراطي(٢)، وكانت أفئدة العرب وعقولهم تتجه دوماً إلي مكة، لذا سعت قبائل العربية إلي الاحتذاء بنظم قريش(٣)، ذلك أن نظمها السياسية والإدارية أكثر تطوراً من القبائل الأخرى، إذ كانت لا تُزعن لسيد واحد، بل يقودها مجموعة من السادة، لكل منهم أنصاره وعصبته ومؤيده، فعمدت هذه الأخيرة إلي إنشاء مجالس تدير شئونها علي غرار مجلس ملأ قريش(٤)، إذ فرض هذا الوضع علي رئيس القبيلة الفطن الناجح في إدارته، أن يستمد رأيه من رأي أشراف قبيلته وجهائها(٥)، وأطلق علي هذه المجالس مسميات متعددة، منها مشيخة القبيلة، مجلس شوري القبيلة، الهيئة العليا للقبيلة، باعتباره الأساس الذي لا ينصلح أمر القبيلة إلا بوجوده، ولا تستقيم شئونها بدون تدخله فيها، شريطة أن يضم حكمائها وأفضل عقلائها، كما أطلق البعض عليه "مجلس السراة"(٦)، الذي تغني به الأفوه الأودي، ووصفه بأنه عماد أمرها ومثبت أركانها(١).

---

(١) د/ محمود عبده نور الدين، أسس النظام السياسي في الإسلام، مجلة كلية الآداب جامعة قنا، العدد(٣٨)، ٢٠١٢، ص ٣٨٧.

(٢) د/ عبدالحميد العبادي، صور من التاريخ الإسلامي"العصر العربي"، مرجع سابق، ص٧.

(٣) في ذلك ورد عن ابن مسعود أن النبيρ قال:"قريش الجؤجؤ والعرب الجناحان، والجؤجؤ لا ينهض إلا بالجناحين". ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٧٧.

(٤) إلا أن بعض الكتاب حاول تبرير التماثل بين النظم الاجتماعية والسياسية للقبائل العربية اعتماداً علي تماثل الظروف البيئية والاجتماعية والسياسية، قائلاً:"أن التماثل الحاصل علي مستوي البنية التحتية يجد نفسه بالتالي معيناً علي مستوي البني الفوقية أي نماذج التنظيم الاجتماعي والسياسي". بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٧٨،٥٤.

(٥) الثروة في المجتمع القبلي تجتمع لدي أفراد قلائل، وكان للأغنياء مكانة بارزة في هذا المجتمع، ولهم دور كبير في تسيير الشئون العامة والسيطرة علي العامة.

(٦) يري البعض أن مجلس القبيلة تم تسميته مجلس السراة نسبة إلي جبل السراة، أعظم جبال العرب وأكثرها شموخاً وذكرا، ومحور الأرض ووتدها، حتى قيل عنه أن المولي عز وجل خلقه لانتظام الأرض واستقرارها، قال عنه سعيد بن المسيب:"لما خلق الله عز وجل الأرض مادت بأهلها، فضربها بهذا الجبل، يعني السراة،

وكانت مجالس القبائل المستقرة المتحضرة أكثر تنظيماً من مجالس القبائل البدوية، وأيا ما كان من شأنها، فجميعها يقسم أفراده داخلياً إلي طبقات علي أساس السن والمكانية الاجتماعية(٢)، لذا لم يكن المجلس يضم في عضويته إلا شريف المولد ممن بلغ الأربعين، من ذوي الحكمة والخبرة والرأي والمشورة، بالإضافة إلي القادة وأصحاب النفوذ، فقد اعتبر العرب أن الأربعين هي السن التي تكتمل فيها جميع القوي والطاقات ويتهيأ الإنسان للتفكير والتدبر وهو في قوة واستواء ورشد ونضج وكمال عقل وجودة فهم(٣).

ومع ذلك كان يسمح للبالغين من أفراد القبيلة حضور المجلس(٤)، متي توافر لديهم مقومات قيادية ومواهب إدارية تمكنهم من قيادة الناس والتغلب علي العقبات والمشكلات التي تواجه الجماعة(٥)، كالاشتهار بحدة الذكاء ورجاحة العقل وجودة الرأي(٦)، وهي صفات متوفرة أيضاً في الشعراء بصفة عامة، لذا سمح لهم بحضور

فاطمأنت". هاشم بن محمد الكلبي، افتراق ولد معد، تحقيق/ احمد محمد عبيد، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٠، ص٢٤.

(١) يقول الشاعر الأفوه الأودي المذحجي:

والبيت لا يُبني إلا له عمـــــد .. ولا عمـــــاد إذا لم تُرس أوتاد
فإن تجمـــــــــع أوتاد وأعمدة .. وساكن بلغوا الأمـر الذي كادوا
لا يصلح الناس فوضي لاسراة لهم .. ولا سراة إذا جهـــــالهم سادوا
إذا تولي ســــــراة القوم أمرهم .. نما علي ذاك أمر القوم فازدادوا

(٢) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٠٠.

(٣) قال الشاعر عن سن الأربعين:

إذا المرء في الأربعين ولم يكـــن .. له دون ما يهوي حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي مضي .. وإن جر أسباب الحياة له العمر

(٤) اختلف العرب عن الإغريق في السن الذي ببلوغه يسمح للفرد بالمشاركة في الشئون العامة، فعلي حين اشترط العرب بلوغ الفرد٤٠ سنة، فالأثينيين أعطوا الحق لكل مواطن بلغ سن العشرين المشاركة وإبداء الرأي في اجتماعات الجمعية العامة. جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، مرجع سابق، ص٤٣.

(٥) من ذلك عتبة بن ربيعة الذي استطاع هو لم يكمل الثلاثون سنة، أن يحجز بين الناس ويحول الحرب التي كانت بين قبائل قيس وبين قبائل كنانة، إلي الصلح والتعاهد علي ألا يؤذي بعضهم بعضا. البغدادي، المنمق في أخبار قريش، مرجع سابق، ص١٧٨-١٨٠.

(٦) من ذلك أن قريش سمحت لحكيم بن حزام بن خويلد، وهو ابن خمسة عشر عاماً، وعمرو بن هشام(أبو جهل)، وهو ابن ثلاثين عاماً، بدخول دار الندوة، للإدلاء بآرائهم، لحكمتهم وسداد رأيهم وصواب مشورتهم، بالإضافة إلي التبرك بحكيم لأنه ولد في جوف الكعبة. د/ جواد علي، المفصل،

أرفع المجالس، قال النبيρ:"إنما الشعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيب، والشعر جزل من كلام العرب يشفي به الغيظ، ويصل به إلي المجلس"(١)، وكان حسان بن ثابت شاعراً وكان الرسولρ يجلسه مجلسه ويستمع إلي شعره ويمتدحه، وقال له:"فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام"(٢).

ويبدو أن الهدف من السماح للشبان بحضور مجلس القبيلة هو الإنصات إلي المناقشات والمحاورات، بهدف التعرف علي آداب الاجتماع وإدارته، مجلساً وتحدثاً واعتراضاً، والاطلاع علي مجريات الأمور العامة للقبيلة، والإحاطة بقرارات المجلس إذ كانت تقرر مصير كل أفراد الجماعة(٣)، والعلم بخطط القبيلة الداخلية وسياستها الخارجية، لتدريب هذه الأجيال علي القيم والسلوك السياسي، وتهيئتهم لقيادة القبيلة وتوجيه زمام أمورها مستقبلاً(٤).

غير أن وجود هذه المجالس في المجتمعات القبلية العربية، لا يعني أن نظام الحكم فيها كان نظاماً نيابياً، بمعني أن الشعب هو صاحب السيادة، لكنه يجتمع لانتخاب ممثلين له ينوبون عنه في السلطة باسمه(٥)، ولا يعني أنهم تبنوا الديمقراطية الأثينية المباشرة، إذ اقتصرت المشاركة الفعلية في الشئون العامة علي عدد محدود من الأفراد، أصحاب القوة المالية والسيطرة الأدبية أو الدينية(٦).

ج٤، مرجع سابق، ص٤٧؛ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨١، ص٤٤.

(١) أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج٥، تحقيق/ عبدالأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٢١٠.

(٢) احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٥، مرجع سابق، ص٢٧٤.

(٣) د/علي مصطفي عشا، جدل العصبية القبلية والقيم، مرجع سابق، ص ٥٢٨.

(٤) ذلك الشباب كانوا أمل القبيلة ومستقبلها، ومصدر مجدها وقوتها وفخرها، لذلك أوصي الشاعر الجاهلي راشد بن شهاب الشيباني بهم قائلاً:

من مُبلغ فتيان يشـكر أنني .. أري حقبة ثيدي أماكن للصبر
أوصيكم بالحي شيبان إنهم .. هم أهل أبناء العظائم والفخـر

(٥) د/ احمد أمين سليم، جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص٣٠٠.

(٦) د/ عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧.

ولما كان المبدأ السائد بين أهل الجاهلية هو:"عدم التكافؤ بين الناس"، لذا شيدت عضوية مجلس القبيلة علي النظام الطبقي، الذي يعامل الناس حسب منازلهم ودرجاتهم، يقيم بينهم فوارق بحسب الجنس والسن والثروة والحسب والنسب والعمل، ففي الغالب كانت هذه المقومات هي التي تعطي للشخص مكانته الاجتماعية وتحدد دوره في حياة الجماعة(١)، لذا اقتصرت عضوية مجلس القبيلة علي رؤساء البطون، وسادة العشائر، وشيوخ الأفخاذ والعشائر والأسر(٢)، وأيضاً أرباب العائلات(٣)، والأعيان من أهل الجاه والمال والنفوذ والتأثير(٤)، بالإضافة إلي هذه الفئات كان في الغالب يضم المجلس إلي عضويته المحاربين الأبطال الأكثر لمعاناً(٥)، باعتبارهم القوة الحقيقية لبطونهم وعشائرهم، وهو ما جعل هذه المجالس تراقب زعماء القبائل وتمثل قيداً علي سلطتهم(٦)، وجعل حقوقهم الرئاسية الفعلية مقيدة وغير مطلقة(٧).

وبالرغم من الدور البارز للمرأة في الجاهلية في الأنشطة المدنية التجارية والاقتصادية، ومشاطرتها الرجال في السراء والضراء والعسر واليسر، إلا أن نظرة العرب الدونية للإناث، واحتقار أهلها لمولدها وتشاؤمهم بقدومها، وأن مجرد إبقائها علي قيد الحياة يعتبر تفضل ومنة منهم عليها، وبصفة خاصة القبائل الكبرى المنتشرة

(١) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٩.
(٢) د/ محمد عبدالهادي دكلة وآخرون، المجتمع الريفي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مطابع جامعة الموصل، ١٩٧٩، ص٧٤.
(٣) يقول ماكيفر:"تدريجياً تحول رؤساء العائلات إلي مجلس القبيلة". روبرت م. ماكيفر، تكوين الدولة، مرجع سابق، ص٤٦.
(٤) إذا كان العرب تمسكوا ـ حتى انتشار الإسلام ـ بالطبقية وقصروا المشاركة في الشأن العام علي الطبقات العليا وحدها، فإنهم اختلفوا عن الأثينيين أهملوا الفوارق الطبقية، وأعطوا فرصة المساهمة في الحياة العامة لأكبر عدد من المواطنين، بتقرير مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، فلا يحرم شخص من هذه المشاركة بسبب ثروته أو مركزه الاجتماعي، يقول بركليس:"عندما ينفرد مواطن بميزة من أي نوع، فإنه يفضل في تولي الخدمة العامة كمكافأة لجدارته، لا كامتياز يسمو به علي غيره، كذلك لم يكن الفقر حائلاً أما الفقير بل من الممكن أن تفيد منه الدولة أيا كان سوء حالته". جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، مرجع سابق، ص٥٢.
(٥) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٨.
(٦) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، مرجع سابق، ص٣٢.
(٧) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، مرجع سابق، ص١٨.

في الجزيرة العربية، كتميم وقيس وهذيل وكندة وبكر وقريش، الأم الذي ترتب عليه تعرض المرأة للظلم والإجحاف بحقوقها وبصفة خاصة الاجتماعية والسياسية.

وبالرغم من وجود العديد من الإشارات الدالة علي تبوأ المرأة سدة الحكم الملكي في المناطق المتمدينة، سواء في جنوب شبه الجزيرة العربية، قال تعالي:﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(١)، أو في شمال الجزيرة فقد أشرات حوليات الملك الأشوري تغلات بلابر الثالث إلي جزية سنوية دفعتها (زبيبي) ملكة بلاد الشمال العربي، كما قدمت الملكة (شمسي) إلي العاهل الآشوري جمالاً ونياقاً، والملكة(تعلخونو) التي وقفت بجانب الثوار البابليين ضد الملك سنحاريب(٢)، وذيوع صيت العديد من البدويات واشتهارهن(٣).

إلا أن القبائل العربية لم تسمح للمرأة بالحصول علي أي فرصة من شأنها أن تمكن المرأة من القيام بدور مباشر في النشاط السياسي(٤)، فقد اقتصرت العضوية في الكيانات السياسية والإدارية التي يؤخذ رأيها في تسير دفة السياسة وإدارة الشأن العام علي الرجال وحدهم دون النساء، لذا اختفت المرأة تماماً عن الواجهة المباشرة للمشهد الحكومي والإداري، حتى لكأنها فُقدت فيه تماماً في هذا المجال.

وهو ما دفع البعض إلي تبرير ذلك بالنظر إلي طبيعة النساء أنفسهن في هذه التجمعات فهن لم يكن اجتماعيات أو سياسيات(٥)، بينما برر البعض الآخر ذلك

---

(١) سورة النمل، الآية رقم (٢٣).

(٢) د/ سهيلة مرعي مرزوق، لمحة عن المرأة في المجتمع العربي القديم، ج١، مجلة كلية التربية جامعة بابل، العدد(١٢)، ٢٠١٣، ص٣.

(٣) منهن عاتكة بنت عبدالمطلب عمة الرسولρ، والخنساء بنت زهير بن أبي سلمي، وهند بنت عتبة بن ربيعة أبي سفيان،هند بنت الخس الايادية، والزرقاء بنت زهير.

(٤) لم يكن العرب وحدهم هم الذين استبعدوا الإناث من المشاركة الشئون العامة، فقد سبقهم في ذلك الأثينيين الذين تكونت جمعيتهم الشعبية من مجموع المواطنين الذكور في المدينة. جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، مرجع سابق، ص٤٣.

(٥) برر البعض غياب المرأة عن النشاط السياسي، ليس النظرة الدونية لها وإنما بسبب ضآلة وقت فراغها لقيامها بجهود جبارة في الحياة المنزلية والاجتماعية والاقتصادية، فهي مسئولة عن إنجاب

بالنظر إلي المقومات التي تمتع بها الرجل وملاءمتها لطبيعة البيئة، قائلاً:"الرجل بحكم تفوق بنيته علي بنية المرأة، وبفضل قوة عضلاته ومقاومته للطبيعة ولأخطار سيد الأسرة ورب العائلة وبعل المرأة وسيدها، منح نفسه حقوقاً لم يعطيها للنساء..لأن الحق للمخلوق القوي، ولاحق عند القوي لإنسان ضعيف"(١)، فالنساء لسنا أهلاً للطلب والمدافعة والحماية بل هن محلاً للحماية(٢)، وقد انعكست نظرتهم إلي الكيان المادي للمرأة علي نظرتهم إلي التكوين العقلي والفكري لها، فرأي المرأة لديهم يتسم بالوهن والضعف، ومقاييس الحكم علي الأمور لديها دون مقاييس الرجل، لذا كانوا يرون أنه من الحمق الأخذ برأي المرأة، بل أنهم كانوا ينعتون الرأي غير السديد بأنه (رأي النساء) (٣)، فالرجال وحدهم الجديرون بحضور الاجتماعات المخصصة لنظر الشئون العامة دون النساء(٤).

ولما كانت التربية العقلية والتنشئة الاجتماعية عند العرب في جاهليتهم، ترمي إلي صناعة أجيال جديدة، وإعداد نشء قادر جسدياً وسلوكياً علي تحمل مسئولية

الأطفال ورعاية البيت والاهتمام بشئون الأسرة، كما أنها تشارك الرجال في الصيد والزراعة والتجارة. د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٨.

(١) د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٦٠٨.

(٢) يقول عنترة بن شداد:

ونحفظ عورات النساء ونتقي .. عليهن أن يلقين يوماً مخازيا

(٣) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مرجع سابق، ص٣٠٦.

(٤) لم تتخذ القبائل العربية موقف واحد من المرأة، بل تباينت مواقفها، فبعض القبائل كانت تأدها أو تركتها تعيش كانت تعتبرها كالسائمة مهانة وضيعة، وبعضها كان يمنحها حقوقاً واسعة، حتى أن الحرب كانت تقام من أجلها، وإذا كانت الظروف البيئية والاجتماعية جعلت المرأة البدوية تشارك الرجل العمل وتجالسه وتحدثه، إلا أن الكتابات لم تشير إلي قيامها بدور رئيسي في إدارة شئون القبيلة أو توجيه سياستها، وقد برر البعض ذلك بأن المرأة لم تكن تستطيع أن تمنع الحمي وتحمي الذمار وأنها كانت هدف العدو إذا غار يقصدهن أول ما يقصد فيكون السبي الذي يورث القبيلة القهر والذل والعار، فهي في نظرهم ناقصة ومصدر لجلب المشاكل والمعرة، وهو ما انعكس علي رأيهم في تدبيرها وتفكيرها، إذ نظروا إلي رأي علي أن فيه وهناً وضعفاً وأنه دون رأي الرجل بكثير، كما تصورا أن مقاييس الحكم عند المرأة دون مقاييس الرجل الدقيقة المنضبطة، لهذا رأي العرب أن من الحمق الأخذ برأي المرأة وبصفة خاصة في الشئون العامة. علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ، دار التضامن، بيروت، ط١، ١٩٧٥، ص٤٠؛ د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٦١٨.

القبيلة، بتلقينهم أفكار آبائهم، وتعليمهم مهاراتهم أسلافهم، وإكسابهم قيم وتقاليد قبيلتهم، لذلك كانت منتديات القبائل متاحة أمامهم، فقد سُمح للشبان بحضور هذه المجالس، لتحصيل معارف السياسة وطرائقها، وإدارة شئون الجماعة وأمور الحكم، وتعلم آداب الحديث، وأساليب المناقشة، ومنطق المجادلة، وتمرينهم علي محاكاة الحكماء وطاعة الأقيال، والاقتداء بالعقلاء، ومخالطة الرجال ومحادثة الشيوخ(١)، كل ذلك يندرج في مفهوم تدبير شئون القبيلة وتأهيل أفرادها، وهو من الموضوعات التي كان يتولاها مجلس القبيلة.

المبحث الثاني: مكان وزمان انعقاد مجلس القبيلة

تشكيل مجلس القبيلة من أرفع عناصر الجماعة وأسماها مكانة وأشرفها نسباً، جعل مجلس "الملأ" أعلي طبقة في المجتمع وأكثرها تأثيراً(٢)، في حياة القبيلة من جهة وعلي سلطة رئيس القبيلة من جهة أخري، وغالباً ما كان هذا المجلس مانعاً فاعلاً من استبداد الشيخ بشئون القبيلة، إذ كان يسند إلي هذا المجلس أمر اختيار رئيس القبيلة من بين سادتها(٣)، لذلك لم يكن يصدر أمراً في الأمور الخطيرة إلا بعد أخذ رأي المجلس واستشارته والحصول علي موافقته، ففي وقت السلم لا يمتاز الشيخ بسلطان كبير بين سائر المشايخ(٤)، وهذا أمر طبيعي في مجتمع دستوره التضامن والمسئولية الجماعية، ومبدأه الأساسي لا كيان لفرد دون جماعته(٥).

(١) د/علي عباس مراد، الهندسة اجتماعية صناعة الإنسان والمواطن، مرجع سابق، ص١٥٣، ١٣٠.
(٢) قسم بعض العلماء طبقات المجتمع تنازلياً وجعل في مقدمتها الملأ ثم الكهنة ثم الأراذل. د/ محمد شحرور، الدولة والمجتمع، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ب . ت، ص٤٧.
(٣) رنا طعيمة حسين الصافي، الأنظمة الاجتماعية والسياسية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الكوفة، العراق، ٢٠٠٥، ص٥٩.
(٤) روي عن عمر بن الخطاب أن قال: دلوني عن رجل استعمله، فقد أعياني أمر المسلمين. فقالوا له: عبدالرحمن بن عوف، قال لهم: ضعيف. قالوا له: فلان. قال: لا حاجة لي به. قالوا: فمن تريد؟ قال: رجل إذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم، وإذا لم يكن أميرهم كان كأنه أميرهم. ابن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ج١، مرجع سابق، ص٣٣٦.
(٥) د/ احمد أمين سليم، جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص٣٠٠.

حتى أن جانب من علماء الاجتماع والسياسة، ذهب إلي أن زعيم القبيلة في زمن السلم يكون خاضعاً لرقابة دقيقة من المجلس(١)، إذ كان باستطاعة هذا الأخير تأليب القبيلة ضده وخلعه وتغيره(٢)، مما جعل رئيس القبيلة مضطر إلي معاملتهم بإحسان ومجاملتهم والبعد عن التغلب بالقهر(٣)، وذهب البعض الآخر إلي أبعد من ذلك فشبه دور هذه المجالس بدور الأحزاب السياسية في المجتمع الحديث(٤)، التي تعد قناة الاتصال السياسي المنظم في المجتمع، وبإمكانها صنع القرار السياسي ورسم السياسات العامة التي تخص المجتمع عامة(٥).

ومن تقاليد عرب الجاهلية . بصفة عامة . الاجتماع دورياً، احتفالاً بذكري معينة، خاصة بالأعياد الدينية أو المواسم الشعبية(٦)، سواء التي تستند إلي خلفية دينية أو أسطورة شعبية أو مناسبة اجتماعية، ومن التقاليد المألوفة لدي القبائل الاجتماع كل ليلة(٧)، حتى باتت هذه التجمعات جزء من التراث القبلي العربي، تتمسك القبائل بها وتعمل علي إحيائها، أو علي الأقل المحافظة علي حضورها والمشاركة فيها، وبصفة خاصة في أوقات السلم والفراغ(٨).

(١) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٢.
(٢) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٧.
(٣) يقول ابن الأزرق:"ورئيسهم لما كان ذلك يضطر لمجاملتهم بإحسان الملكة، وترك المراغمة وإلا اختل عليه وعليهم شأن العصبية التي بها الطلب والدفاع". ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص ١٢٥.
(٤) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٧.
(٥) موريس ديفرجيه، الأحزاب السياسية، ترجمة علي مقلد وآخر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١١، ص٣٧٣.
(٦) في الأعياد الدينية كانت قبائل الطائف تجتمع عند صنم اللات، وكان أهل المدينة يجتمعون عند صنم مناة الثالثة، وكان أهل مكة يجتمعون عند العزي، للطواف بهذه الأصنام للنحر عندها والإهداء لها، وكان لأهل المدينة عيدان يمحرون فيها ويلعبون ويتناولون فيها ألذ الطعام والشراب.
(٧) لويس سيديو، خلاصة تاريخ العرب، مرجع سابق، ص٣٩.
(٨) جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، مرجع سابق، ص٤١.

وقد اعتاد أفراد المجتمعات القديمة علي الالتقاء دورياً في أماكن محددة[١]، لها مكانة سامية في نفوسهم أو تحظي برمزية معينة لديهم، وقد أخذ عرب الجاهلية بهذه العادة وجعلوها عامة شاملة، فكانوا يجتمعون دورياً في المواسم الدينية والأماكن المقدسة يؤدون الشعائر، يتقربون لأصنامهم بتقديم القرابين والنذور والهدايا[٢]، يلتقون في الأسواق لتنمية وتطوير النشاط الاقتصادي والتجاري والثقافي والأدبي، وكانت كل قبيلة تتخذ لنفسها علامة معينة تميزها ومكاناً محدداً لها.

ولما كان لكل قبيلة من القبائل العربية مجلس شوري، غالباً لا يدين بالولاء لحاكم يسيطر عليه أو زعيم يتفرد برأيه فيه[٣]، باعتبار أن هذا المجلس يمثل الرأي العام للقبيلة، وصاحب السلطة العليا فيها، واليد الطولي لها، والمعبر عن الإرادة العامة، والناطق باللسان الجمعي، وكان لدي جميع الأفراد علي اختلاف أعمارهم وتباين ميولهم، نزعة قوية في حضور ندواته والإصغاء لمناقشاته ومتابعة مشاوراته، أقوي من نزعتهم إلي الاستماع إلي سواها[٤].

لذا سعت كل قبيلة إلي توفير مكان مناسب وتهيئته، بحيث يكون صالح لالتقاء أفراد القبيلة دورياً، وتخصيصه للاجتماعات العامة بالإضافة إلي المناسبات الخاصة، أطلق علي هذا المكان اسم "النادي" أو "المنتدي" أو "المشيخة" أو "المجلس"[٥]، يكون مقراً لإدارة القبيلة ووضع خططها ورسم سياستها الداخلية

(١) أشار القرآن الكريم إلي اجتماع أفراد الجماعة منذ قبل الإسلام في أماكن معينة في قصة لوط ﷺ، قال تعالي:﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾. سورة العنكبوت، جزء منالآية رقم (٢٩)؛ واتخذ الأغريق الساحات العامة مكانا لعقد الإجتماعات العامة الدورية وإقامة الإحتفالات والتجمع في المناسبات القومية، وشايعهم في ذلك الرومان الذين اتخذوا من ساحة Forum مكاناً لإلتقاء الرومان ومناقشة جميع شئونهم، ومقراً لإتخاذ القرارات واصدار التشريعات، وعقد اجتماعات المجالس سواء مجلس السيناتو أو المجالس الشعبية.

(٢) هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، مرجع سابق، ص١٨ وما بعدها.

(٣) د/ نعمان محمود جبران، د/ روضة سحيم حمد آل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، مؤسسة حمادة للخدمات الجامعية، أربد، الأردن، ١٩٩٨، ص١٥٦.

(٤) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، مرجع سابق، ص١٨.

(٥) لم تفرق المعاجم العربية بين المجلس والمنتدى والندي، فالباحث في مادتي جلس وندي، يجد أن لهما مدلولات متقاربة، ويكاد يكون اللفظان متطابقان نفس المعني، فالنادي: المجلس، والمنتدى هو

والخارجية، فلا يقضي أمراً ولا يعقد لواءً ولا يبرم عاماً إلا فيه، إذ ينعقد فيها مجلس القبيلة ومجامع المداولة، وفيه يتشاورون في الشئون العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، سواء وقت الحرب أو السلم، وهو أيضاً منزلاً ومقراً لضيوف القبيلة وزائرها، وديواناً لإدارة المشاكل الداخلية، وداراً لرسم العلاقات الخارجية، ومحكمة مدنية وجنائية لمعاقبة الخارجين علي القواعد المرعية(١).

وفي نفس الوقت موضعاً لإتمام الشئون والمعاملات الخاصة، ففيه تقام حفلات الزواج، وتُقضي ليالي السمر، وكان الغلام إذا بلغ عذر(ختن) فيها، والجارية إذا حاضت دخلتها، فيشق عليها قيم المكان درعها (قميصها) ويدرعها إياه، فتنقلب إلي أهلها وأسرتها فيحجبونها(٢)، ولا ينكح رجل من قريش، ولا يعذرون غلاماً منها إلا في دار الندوة(٣).

وعندما قرر قصي بن كلاب أنشاء مجلس لقريش، اختار لدار الندوة موضعاً موقراً جعله المولي عز وجل آمناً(٤)، مما جعلها صالحة لممارسة جميع الأنشطة العامة والخاصة، الخارجية والداخلية، السياسية والمدنية، الاجتماعية والاقتصادية والدينية، إذ

مجلس القوم ومتحدثهم، والنادي المكان المهيأ لجلوس القوم فيه، والمنتدى: مجلس القوم ما داموا مجتمعين فيه، وندا الرجال: دعاهم إلي الاجتماع في نادٍ، وسمي بذلك لأن القوم يذهبون قريباً منه ثم يرجعون إليه. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص٤٣٨٨.

(١) كانت التقاليد والعادات السائدة تنظم لكل خروج عليها تعويضاً معيناً أو عقوبة خاصة، يتولي زعيم القبيلة أو رؤساء عشائرها توقيعها، بعد سماع الشكوى والادعاءات وإقامة البرهان عليها، وسماع الدفاع وفحص أدلته، في ضوء ما إذا كان الفعل أول مرة أو اعتاده الفاعل، فسلطة العقاب تجمع بين سلطتي التحقيق والقضاء في آن واحد، فوجود الحق العام والمدعي العام واعتبار القضاء سلطة عامة تحتكرها الدولة وحدها كل هذا ليس له معالم واضحة في المجتمعات البدائية، فلم يظهر إلا بعد تطور المجتمعات، حتى أن بعض العلماء ربط بين ظهور القضاء والتشريع وبين ظهور النظام الملكي، إذ كانت السلطات تتركز في يد الملك الذي يعمل علي أن يسود السلم والعدل بين الجماعات والأفراد.

(٢) يري البعض أن الهدف الأساسي من ختان الغلمان وتدريع الفتيات في دار الندوة دون غيرها، هو تسجيل وإحصاء البالغين من قريش. د/ عبدالحميد العبادي، صور من التاريخ الإسلامي"العصر العربي"، مرجع سابق، ص٩.

(٣) احمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، ج١، مرجع سابق، ص٢٤٠.

(٤) قال تعالي:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾. سورة العنكبوت، جزء من الآية (٦٧).

شيدها بالقرب من بئر زمزم في مواجهة الكعبة، لتكتسب المناقشات والمداولات والقرارات قوة ملزمة والمعاملات صبغة وقورة[١]، وكان قصي يشرف عليها ويرأسها اجتماعاتها بنفسه[٢]، وخلفه عليها ابنه عبدالدار[٣]، ثم حكيم بن حزام الذي باعها في الإسلام، مما جعله موطن للعتاب واللوم[٤].

فمن عادة العرب أن زعيم القبيلة هو الذي يعين المكان الذي تعقد فيه القبيلة اجتماعاتها ولقاءاتها، وهو أيضاً الذي يتولي إعداد هذا المكان وتجهيز، بكل ما يلزمه بحيث يكون صالح لأداء الغرض الذي أعد له، إذ بجانب ما للزعيم من النفوذ والجاه، تمتع سادة القبائل بقدر كبير من الثراء، فالتاريخ العربي يشير إلي استحوذ سادة القبائل علي أموال طائلة[٥]، حصلوا عليها سواء عن طريق الإرث، أو من الأنشطة الاقتصادية المربحة التي مارسوها، أو من الغنائم التي ربحوها، بالإضافة إلي الضرائب والإتاوات المحصلة[٦].. إلي غير ذلك مما كانت تفرضه القبيلة علي الأفراد أو التجارة[٧]، فقد جمع سادة العرب في الجاهلية بين الثروة والسلطة[٨]، ولا يترتب علي

(١) د/ صالح احمد العلي، الإدارة في العهود الإسلامية الأولي، مرجع سابق، ص٦٨.
(٢) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، مرجع سابق، ص٣٦.
(٣) الأزرقي، أخبار مكة، مرجع سابق، ص ٨٧.
(٤) لام معاوية بن أبي سفيان حكيم بن حزام علي قيامه ببيع دار الندوة، فقال له حكيم:"لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر، وقد بعتها بمائة ألف درهم". السهيلي، الروض الأنف، ج١، مرجع سابق، ص٢٣٥.
(٥) أشار المفصل إلي بعض مظاهر ثراء العرب منها أنه:"كان من أغنياء مكة من يأكل بصحاف من ذهب وفضة، ويشرب بآنية من ذهب وفضة وبلور، ويأكل علي طريقة الروم والفرس، بسكاكين وشوكات مصنوعة من ذهب أو من فضة". د/ جواد علي، المفصل، ج٧، مرجع سابق، ص٤٣٩.
(٦) يقول الشاعر جابر بن حُني التغلبي:
وفي كل أسواق العراق إتاوة .. وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
(٧) من أمثلة مصادر ثراء عبدالله بن جدعان الذي كان مرجعه أنه عندما طرده أبوه إلي شعاب مكة، دخل شق في الجبل للحصول علي الموت، إلا أنه وجد نفسه في مقبرة لأحد ملوك جرهم، فيها أموال وكنوز ثمينة مصنوعة من الذهب والياقوت، جعله من أغني أغنياء مكة، فكان لا يأكل ولايشرب إلا في آنية من الذهب والفضة. د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٩٥-٩٦.
(٨) لم يُعد المؤرخون قوائم بمقدار المال الذي كان يملكه الأغنياء في الجاهلية، لكنهم تطرقوا إلي جانب مظاهر ثراء بعضهم، من ذلك أن هاشم بن عبد مناف . سيد قريش . كان يعمل بالتجارة وجمع ثروة طائلة، وظفها كلها لخدمة الحجيج وإطعامهم، وعندما نافر ابن أخيه أمية بن عبد شمس علي خمسين ناقة سوداء الحدق نحرها ببطن مكة؛ كما بسط الله الرزق لعبدالمطلب . سيد قريش . حتى أنه

قيام شيخ القبيلة بإعداد المجلس وتجهيزه، أن يختص نفسه بشئ أفضل من سادة العشائر وشيوخها(١).

وغالباً ما كان المكان المعين لاجتماعات مجلس القبيلة، هو مقر إقامة زعيم القبيلة وسيدها أو مكان ملحق به، لذلك كان يعلمه جميع أفراد القبيلة، فقد بني قصي بن كلاب دار الندوة(٢)، لتكون مقراً لمجلس ملأ مكة والبت في أمورها العامة، يعقد فيه اجتماعاته ومشاوراته في كل ما نزل بهم، وتتخذ فيه القرارات السياسية والإدارية والمالية والدينية الهامة، واستمرت دار الندوة مقراً للحكم والإدارة حتى فتح مكة وخضوعها للدولة الإسلامية، ثم اشتراها معاوية وجعلها داراً للإمارة والحكم، واستمر علي ذلك إلي أن أمر الخليفة العباسي المعتضد بالله بهدمها وإدخالها في المسجد الحرام(٣)، فأنتهي دورها السياسي والإداري وقامت به دار الندوة الإسلامية الكبرى(٤).

كان يملك قطيع مكون من مائتي بعير، وقت قدوم أبرهة لهدم الكعبة؛ وكان منادي سعد بن عبادة بن دليم . سيد الخزرج . يناد في الناس يومياً من أراد الشحم واللحم فليأت دار دليم، وكان يهدي صنم مناة وحده كل عام عشر بدنات. محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، الطبقات الكبري، دار صادر، بيروت، ب.ت، ص٧٦؛ البغدادي، المنمق في أخبار قريش، مرجع سابق، ص٣٤؛ رياض رحيم حسين الصفراني، هاشم بن عبدمناف، العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء، ط١، ١٩٥٧، ص١٥٧؛ يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٢، تحقيق/ علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ص٥٩٥.

(١) يقول السجستاني:"عاش عدي بن حاتم الطائي مائة وثمانين سنة، فلما أسن استأذن قومه وطاء يجلس عليه في ناديهم، وقال إني أكره أن يظن أحدكم أني أري لي عليه فضلا ولكني قد كبرت ورق عظمي، فأذنوا له أن يبسط في ناديهم، وطابت به أنفسهم، وقالوا: أنت شيخنا وسيدنا وابن سيدنا، وما فينا أحد يكره ذلك ولا يدفعه". أبو حاتم سهل بن عثمان السجستاني، المعمرون والوصايا، مرجع سابق، ص٢٧– ٢٨.

(٢) دار الندوة وهي أول دار بنيت في مكة بعد البيت الحرام، وكان بابها يؤدي إلي الكعبة مباشرة، بناها قصي بن كلاب في الشطر الأخير من القرن السادس الميلادي، لتكون قصراً يتولي منه إدارة أمور مكة والبت في شئونها، بعد أن استتب له أمرها، فكانت مقر اجتماع كبراء أهل مكة، تحت إمرته للتشاور في شئون مكة، وكان لا يسمح بدخولها إلا لمن بلغ الأربعين سنة، إلا إذا كان من حكيما مفهوماً أو سلالة قصي، لذلك دخلها عبدالمطلب بن هاشم بن مناف بن قصي وهو في سن السابعة أو الثامنة. البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، مرجع سابق، ص١١٨–١١٩؛ السهيلي، الروض الأنف، ج١، مرجع سابق، ص٢٣٣.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ص٥٥٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، مرجع سابق، ص٢١٤.

(٤) د/عبدالحميد العبادي، صور من التاريخ الإسلامي"العصر العربي"، مرجع سابق، ص١٢.

كذلك اختصت كل قبيلة نفسها بمكان بالغ شرف، ليكون مقراً لانعقاد مجلسها وإدارة شئونها، فأقام سعد بن عبادة ـ زعيم الخزرج ـ في شمال المدينة المنورة(١)، داخل حديقة غناء بجوار جدول ماء، مكاناً مشابهاً في هدفه ومقاصده لدار الندوة، أطُلق عليه سقيفة بني ساعدة(٢)، خصصت في البداية لإدارة شئون قبيلة الخزرج وعقد اجتماعاتها، وبعد الهجرة كانت مكاناً لإدارة شئون الدولة الإسلامية، فقد اجتمع فيها المهاجرين والأنصار، فور وفاة النبيρ، للتشاور في شئون الحكم وأمر رئاسة الدولة، وأنتهي المجتمعون فيها إلي تحديد شكل حكومة الدولة الإسلامية، حيث بايع الناس أبو بكر الصديقτ، ليكون أول خليفة للمسلمين.

أما القبائل التي لم تتخذ مكاناً مخصصاً لإدارة شئونها وتدبير أمورها، أو قبل إعداد وتجهيز مقر دائم للمجلس، فإن القبائل كانت تعقد اجتماعاتها الدورية في بيت شيخ القبيلة أو احدي ملحقاته أو خيمته الخاصة، وهي مكان هرمي الشكل يتميز عن باقي مساكن القبيلة، يعرفه القاصي والداني الكبير والصغير، مبعث ذلك المكانة الاجتماعية والملاءة المادية لسكانه، إذ عادة ما كان مسكن رئيس القبيلة مختلف عن مساكن بقية أفرادها شكلاً ومضموناً، فهو أكبر حجماً وأبهى منظراً، مزين بأشكال زخرفية وألوان زاهية، مجهز ومفروش بالوسائد المغطاة بأجود أنواع الصوف أو جلد الأنعام(٣).

(١) يبلغ طول المدينة ميلاً واحداً وهي محاطة بالمزارع من جهاتها الأربع إلا الجهة الغربية، وتمتد المزارع حولها إلي عدة أميال، وكانت سقيفة بني ساعدة ضمن مزاع المدينة. حافظ وهبة، جزيرة العرب، مرجع سابق، ص١٧.

(٢) اعتاد أهل المدينة عقد اجتماعاتهم ومجالسهم الهامة في سقيفة قبيلة بني ساعدة الخزرجية الأنصارية، فقد خصصها سعد بن معاذ لهذا الغرض، إذ أنها مكان رحب واسع داخل بساتين غناء مملوكة لبني ساعدة بالإضافة لكونها قريبة من بئر ماء خاص بالقبيلة. محمد محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩١، ص١٤١.

(٣) في ذلك يختلف زعماء القبائل العربية عن نظرائهم من زعماء قبائل الهنود الحمر، فلدي الهنود الحمر تحول الكرم والسخاء من صفة يتمتع بها الحاكم إلي حق يمارسه الأفراد عليه وينتزعه منه، يقول كلاستر:"إن التزام الزعيم بالعطاء عن سخاء، الذي يعيشه الهنود، في الواقع نوعاً من حق إخضاعه لنهب مستمر، وإذا ما حاول الزعيم أن يوقف عملية تهريب الهدايا هذه، تنتزع عنه فوراً كل سلطة وكل قيمة، إن دور الزعيم يفرض عليه أن يكون كريماً وأن يعطي كل ما يطلب منه، وفي

وكان للعرب أعياد عامة تُقام في أوقات مقدرة، يحجون خلالها معابدهم ويحتفلون أثنائها بأصنامهم، يتزينون فيها ويلبسون أحسن الحُلل والبرود، ويقدمون النذور والقرابين لآلهتهم في أوقات محددة ولمدة مقدرة(١)، بل أن العرب أطلقوا علي العيد هذا الاسم لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد ولأنهم قد اعتادوه(٢)، فتحديد وقت محدد للقيام بأعمال معينة نظام معمول به عند عرب قبل الإسلام، من ذلك احتفالهم بالمهرجان والسباسب والنيروز(٣)، كما كانت القبائل تلتقي دورياً في الأسواق العامة، التي كانت تمثل لهم أعياد بجانب أنها تحقق لهم منافع اقتصادية واجتماعية، ففيها اللهو والاحتفالات والمسابقات الرياضية والمساجلات الشعرية والمحاورات والمفاخرات والمنافرات(٤).

فبالرغم من استقلال العرب سياسياً واقتصادياً، لم يكن مفهوم الالتقاء والاجتماع العام والتشاركية في الاهتمامات غائب عن العرب، كذالك لم يكن مفهوم إدارة الوقت غير معروف لديهم، بل كان هذه المفاهيم تظهر بوضوح في الأوقات التي يسودها السلم والدعة، إذ كانت الأشهر الحُرم من أنسب الأوقات لإقامة المنتديات العامة والالتقاء معاً، سواءً في سوق حُباشة وسوق صُحار التي تُقام في رجب، أو في حضرموت التي تُقام في ذي القعدة، أو في عكاظ ومُجنة وذو المجاز التي تبدأ في ذي

بعض القبائل الهندية يجب أن يكون الزعيم، هو الذي يملك أقل من غيره، وأن زينته وتبرجه هما الأكثر رثاثة .. ان البخل والسلطة لا يتناسبان، ولكي تكون زعيماً يجب أن تكون مفرطاً في الكرم". بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٣.

(١) كان القرشيون يحتفلون بعيداً لهم عند صنم من أصنامهم لمدة يوم واحد، وفي هذا اليوم اجتمع حنفاء قريش معلنين رفضهم لدين قومهم. د/ شاكر محمود إسماعيل، الأعياد والأفراح عند العرب قبل الإسلام، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية، العدد (٩١)، ٢٠٢٢، ص٢٧٢-٢٧٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص٣١٩.

(٣) عن أنس بن مالكت:"قدم النبي صلي الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: قد أبدلكم الله تعالي بهما خير منهما يوم الفطر والأضحى". ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج٢، مرجع سابق، ص٤٤٢.

(٤) سوق ذي المجاز كان يقام بالقرب من عرفات، وسُمي بهذا الاسم لأن إجازة الحاج كانت منه، فالناس تبقي به حتى يوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية) ثم ينصرفوا لملئ أوعيتهم للوقوف بعرفة وقضاء مناسك الحج قم العودة إلي أوطانهم. عبدالله عبدالجبار ومحمد عبدالمنعم خفاجي، قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص٣٠٠.

القعدة وتنتهي يوم الثامن من ذي الحجة[١]، بالإضافة إلي ذلك كان لكل قبيلة أيام تعتز بها وتجتمع فيها، فكان من الأيام المفضلة التي تجتمع فيها قريش للتشاور في الأمور العامة الهامة يوم الرحمة، لذلك عندما أرادت اتخاذ قرار حازم ينهي أمر النبي ويقضي علي دعوته، تواعد سادتها ومشايخها علي نظر هذا الموضوع يوم الزحمة، الذي اتخذ فيه قرار التصفية الجسدية للنبيρ[٢].

بالإضافة إلي أن طبيعة البيئية الصحراوية، فرضت علي عرب البادية الالتحام في أوقات محددة، تتلاءم مع ظروف هذه البيئة ومعطياتها، إذ كان الرعي والسقي والكلأ محور حياة البدو، لذلك اعتادت هذه القبائل إقامة أفراح واحتفالات جماعية بمناسبة بداية مواسم الربيع ونمو الحشائش في الوديان والهضاب، إذ قامت حياتهم بالدرجة الأولي علي رعي أنعامهم ومواشيهم، كما أن في هطول الأمطار وازدهار المراعي بشارة تفاؤل برضاء الآلهة عنهم، بالإضافة إلي ذلك كان لكل قبيلة أيام خاصة بها، فلكل قوم دون غيرهم ولكل قبيلة دون أخري أيام محددة تجتمع فيها، للاحتفال والفرح بالظفر علي أعدائها والانتصار علي خصومها[٣].

ومن كل ذلك يمكن القول بأنه كان لدي العرب قبل الإسلام تنظيم زمني محدد، ووقت معلوم علي وجه الدقة، لانعقاد مجلس القبيلة للنظر في شئون الجماعة، إذ جرت الأعراف القبلية علي اتخاذ وقت ملائم، يسمح لأكابر القوم بحضور الاجتماعات والمشاركة في الحوارات والنقاشات، ففي الظروف العادية غالباً ما كان الاجتماع اليومي ينعقد عقب الانتهاء من تدبير شئون الحياة اليومية، وعادة ما كانت جلسات مجلس القبيلة دائمة دون انقطاع، إذ فرض عليهم وحدة الأصل والبيئة البدائية

(١) سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ص٣٤.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، مرجع سابق، ص١٢٢؛ محمد بن عبدالله بن يحيي (ابن سيد الناس)، عيون الأثر، تحقيق د/ محمد العيد الخطراوي وآخر، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ب.ت، ص٢٩١؛ الطبري، تاريخ الطبري، ج١، مرجع سابق، ص٥٦٦.
(٣) د/ شكران خربوطلي، سطور منسية في تاريخ الحجاز، الحياة الاجتماعية في الحجاز قبيل ظهور الإسلام، دار مؤسسة رسلان للطباعة، دمشق ٢٠١١، ص٢٠٥.

التكاتف والالتحام، لذا جري العرف علي اجتماع مشايخ القبيلة ورؤساءها مساء كل يوم، في خيمة زعيم القبيلة أو منزلة أو المكان المُعد لذلك، لاستعراض كل ما أستجد يوماً بيوم، والتشاور لحل المشكلات وتبادل الآراء في جميع شئون القبيلة العامة والخاصة(١)، ذلك أنه يكن مسموح لشيخ القبيلة أن يبت في الأمور الهامة بقرار منفرد، بل يشاور فيها مجلس القبيلة، حتى أن البعض جعل مشاورة المجلس والحصول علي رأيه شرط تولية واستمرار في الزعامة، وأباح للقبيلة عند مخالفة هذا الشرط أن تخلع سيدها أو تقتله، كما قُتل كُليب شيخ قبيلة تغلب عندما انفراد بالقرار دون باقي مشايخ القبيلة(٢).

لكن إذا تغيرت الظروف فحزب أمر أو حدث طارئ يدعو للاجتماع، أو استلزم الأمر اتخاذ إجراءات عاجلة وتدابير سريعة لا تحتمل الانتظار إلي موعد الاجتماع العادي، دعي شيخ القبيلة لاجتماع طارئ عاجل، عن طريق تكليف أشخاص بدعوة الناس إلي الاجتماع، يسمي الواحد منهم المنادي والمؤذن، فمتي حدث طارئ كان باستطاعة رئيس القبيلة أن يرسل مؤذنه أو مناديه ينادي في الناس للاجتماع في أي ساعة من الليل أو النهار دون انتظار(٣)، وإذا كانت المسألة علي قدر من الأهمية ولا يتوفر له المنادي، فإنه يوقد ناراً في أي وقت من الليل، علي أعلي قمة في ديار القبيلة(٤).

---

(١) في الاجتماع اليومي الدائم لمجلس القبيلة، تتفق القبائل العربية مع قبائل الهنود الحمر، إلا أن الأخيرة لها أكثر من توقيت للاجتماع فقد يكون عند الفجر أم عند الغروب. بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٤.

(٢) د/ ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٨٢.

(٣) نظام المؤذن المنادي الذي لجأ إليه العرب قبل الإسلام، اعتمده النبيρ ونظمه لخدمة الإسلام، والإعلان عن فرائضه، فاستخدمه في الدعوة إلي الاجتماعات الدينية، وبصفة خاصة الصلاة، وكان أشهر منادي استخدم لأداء هذه المهمة هو بلال بن رباح.

(٤) يقول عمرو بن كلثوم:

ونحن غداة أوقد في خـــزاز .. رفدنا فوق رفد الرافدينا
وإذا جدوا في جمع عشائرهم .. إليهم أوقدوت ناريـــن

وأما إن كان الأمر علي قدر بالغ من الخطورة لا يحتمل التأخير كإغارة عدو، أو هجوم عظيم وشيك عليهم(١)، تحتاج القبيلة في صده إلي جمع عشائرها أو مساعدة أحلافها وأصدقائها(٢)، وأرادت إبلاغهم للاجتماع لاتخاذ ما يلزم لمواجهة هذا الاعتداء(٣)، فإنه كان يوقد نارين معاً(٤)، فيعلم الجميع بوجود خبر خطير داهم وحدوث أمر جلل(٥)، فيهب الجميع للاجتماع تلبيةً للنداء(٦)، وتقديم الرأي والاقتراحات، وفقاً لحكمتهم وتجاربهم ومواقفهم(٧)، وكانت هذه النار تسمي نار الأهبة أو نار الحرب أو نار الإنذار(٨)، وفي المقابل كان البادئ الذي يريد إظهار قوة جيشه وشدة بأسه لعدوه يوقد نار تسمي نار الاستكثار بحيث يجتمع كل مجموعة حول كومة منها فيرهبهم الخصم الآخر(٩).

---

(١) يقول عبدالله ابن طاهر:

له نارانِ نار قِري وحربٍ .. تري كلتيهما ذات التهابِ

(٢) يقول النويري:"نار الحرب، وتسمي نار الأهبة والإنذار، توقد علي يفاع، فتكون إعلاماً لمن بعُد". احمد بن عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١، تحقيق د/ مفيد قمحه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص١١١.

(٣) يقول القلقشندى:"نار الأهبة للحرب كانوا إذا أرادوا حرباً أو توقعوا جيشاً أوقدوا ناراً علي جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم فيأتونهم". القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٤٣٤.

(٤) من ذلك أنه عندما جمع كُليب جيش ربيعة لملاقة قبيلة مذحج، قال لقائده:"إن غشيك العدو فارفع نارين". ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج١، مرجع سابق، ص٥٢١.

(٥) يقول الفرزدق:

لولا فوارس تغلـــــب ابنة وائل .. سد العدو عليك كل مكان

ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا .. نارين أشـرفتا علي النيران

(٦) يقول الألوسي:"كانوا إذا أرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً علي جبل لتجتمع إليهم عشائرهم فإذا جدوا وأعجلوا أوقدوا نارين". الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٧) كان مشايخ القبيلة يقتسمون الغنائم والأسلاب وفقاً لمقدار ما كان لكل منهم النفوذ المادي أو المعنوي وما قدمه في سبيل الحصول عليها. د/ عمر فروخ، العرب تاريخ الأدب العربي، ج١، مرجع سابق، ص٦٦.

(٨) الجاحظ، الحيوان،ج٤، مرجع سابق، ص٤٧٤؛ القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، مرجع سابق، ص٤٣٤؛ الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، مرجع سابق، ص١٦٣.

(٩) يقول الثعالبي:"كانوا إذا نزلوا منزلاً وهم جيش يريدون محاربة قوم، استكثروا من النيران، وأكثروا من الذبح، مخافة أن يجزرهم جازر بقلة ذبحهم ونيرانهم". الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مرجع سابق، ص٥٧٩.

ونري أن استخدام النار في الإعلان عن موعد الاجتماع، إنما كان أحد الوسائل التي اتبعها الأقدمون للتكيف مع الظروف البيئة والمعطيات الحضارية المتدنية، فالكتابة كانت نادرة والكتاب عددهم محدود جداً، ومحصور جغرافياً في المدن الحضارية وحدها، وفي الطبقة العليا دون غيرها، ووسائل المواصلات بدائية إذ لم يكن العالم قد توصل لوسائل النقل الآلية، بالإضافة إلي الطبيعة الجغرافية الصعبة التي تعوق سرعة الحركة، ووعورة الطرق مع عدم توافر وسائل الإنارة، لذا كانت النار وسيلة الإعلان الأكثر فعالية والأكثر توافراً في البيئة الصحراوية، وفوائدها متعددة ومختلفة، ومواد الاحتراق متوافرة في هذه البيئة، والعربي لديه حرفية في إشعالها في مختلف الأجواء، بالإضافة إلي أن الرسائل والإيحاءات التي يتم توجيهها من خلالها متعارف عليها وغير مختلف فيها.

المبحث الثالث: اختصاصات مجلس القبيلة ومهامه

مجلس القبيلة كان بمثابة السلطة السيادة والإدارة الحكومية في المجتمع البدائي التنظيم، إذ جمع بين السلطة السياسية والتنفيذية، فقد أنيط بهذا المجلس مناقشة جميع المسائل التي تمس القبيلة، سواء ما تعلق منها بالشأن الداخلي أو الخارجي، طالما كانت علي درجة من الأهمية، فكل ما يتصل بالمصلحة العامة أو يرتب آثار جماعية مدنية أو سياسية، كان لمجلس القبيلة الإدلاء برأيهم فيه(١).

ولما كان تحقيق المصلحة الذاتية للجماعة، هي حجر الزاوية الذي قام عليه النظام القبلي، فالنزعة الفطرية التي سادت لدي عرب الجاهلية كانت تقوم علي تفضيل الأسرة والقبيلة علي ما سواه، لذلك لم يكن باستطاعة الزعماء في كثير من الأحيان أن يقطعوا في المسائل بشكل رشيد إلا بعد الحصول علي تأييد مجلس القبيلة(٢)، فموافقته

(١) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٧٦.
(٢) يقول عبيد بن الأبرص:
إذا أنت لم تعمل برأي ولم تُطلع .. أولي الرأي لم تركن إلي أمر مُرشد
ولم تجتنب ذم العشـــيرة كلها .. وتدفع عنها باللســـــان وباليد

شرطاً ضرورياً في ممارسة الزعيم نفوذه وممارسة اختصاصاته[١]، فبدون موافقته لا يستطيع الشيخ البت في أمور السياسة الخارجية سواء إعلان الحروب[٢]، أو عقد معاهدات الهدنة أو السلم[٣]، أو توزيع الأسلاب المتحصلة من الاغارات بطريقة غير المعتاد عليها، كما لا يستطيع اتخاذ قرار الانتقال من مكان إلي آخر، أو إصدار قرار بمعاقبة علي أحد أفراد القبيلة بعقوبة الخلع، أو التسليم المعتدي عليه أو قبيلته، إذ كان يتعين عرض الجرائم التي تستحق توقيع عقوبات شديدة علي مجلس القبيلة، كضمانة لأعضاء القبيلة ضد استبداد الزعماء.

لذا كان لابد من أن يجتمع مفاتيح الحكمة ورموز العطاء، باعتبارهم أهل الحل والعقد للجماعة، لدراسة الجوانب الفنية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والدينية والثقافية لكل مسألة علي قدر من الأهمية، وكذلك لإقرار التدابير اللازمة للحفاظ علي كيان القبيلة، وسُبل تدعيم وحدتها وزيادة التماسك والاندماج بين أفرادها وأسرها وعشائرها[٤]، ومحاولة رفع مكانتها بين القبائل في ظرف السلم، وعلي الأقل تثبيت موقف إقتدار القبيلة في حالة الحرب[٥].

بالإضافة إلي التشاورية في مواجهة الظروف البيئية، وما تستتبعه من استقرار أو إرتحال في إقليم القبيلة، وتحديد المواضع الملائمة لإقامة المضارب الجديدة في الحالة الثانية، وتحديد الأسلوب الأمثل لاستغلال الموارد الاقتصادية المتاحة بما يؤدي

(١) قال عليّ بن أبي طالب:"أمران جليلان لا يصلح أحدهما إلا بالتفرد، ولا يصلح الآخر إلا بالمشاركة، وهما الملك والرأي، فكما لا يستقيم الملك بالشركة لا يستقيم الرأي بالإنفراد به". محمد بن محمد الطرطوشي، سراج الملوك، ج١، الأوائل، مصر، ١٨٧٢، ص٤٨.

(٢) أشار القرآن الكريم إلي الدور الفعال لنقباء ملأ الجماعة اليهودية، عندما رفضوا رفضاً قاطعاً قرار موسيυ، بشأن حرب عدوهم، قال تعالي:﴿ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾. سورة المائدة، الآية رقم (٢٤).

(٣) د/ عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧.

(٤) أظهر مجلس شيوخ قبيلة قريش مقدرة عل تنظيم أمور قريش، فأوجد أنماطا من التنظيم تكفل الحفاظ علي الوحدة الداخلية للقبيلة، ذلك أن قريش منذ عهد قصي ارتأت أن تتبع أسلوبا يساير طبيعة حياة الاستقرار ويضمن استمرار وحدة قريش. د/ نعمان محمود جبران، د/ روضة سحيم حمد آل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، مرجع سابق، ص١٥٥-١٥٦.

(٥) د/ علي مصطفي عشا، جدل العصبية القبلية والقيم، مرجع سابق، ص ٥١٧.

لتعظيمها، وتوجيه الموارد البشرية للقبيلة بما يحقق الأهداف العليا لها، ففي المجتمعات القبيلة علي وجه الخصوص يوجد ارتباط وثيق بين الإمكانيات البشرية والموارد الاقتصادية والمالية، إذ كانت القوة البشرية وحدها هي مصدر القوة والثروة، وخير مثال علي ذلك أن القبائل المتشاركة في مصدر الماء، يكون السبق والتقدم عند ورد مصدر الماء للجماعات التي تحظي بالقوة البشرية(١)، فتشرب الجماعات القوية وتسقي أنعاهما قبل القبائل الضعيفة، التي قد لا تجد ما يروي ظمأها أو دوابها(٢)، هذه الانتهازية فرضها الوضع البيئي وعظمتها العصبية القبلية، بالإضافة إلي عدم وجود سلطة عليا للقبائل، تنظم استغلال الموارد الاقتصادية الجماعية المتاحة بقواعد مُلزمة(٣).

كما كان مجلس القبيلة هو الذي يرسم السياسة الخارجية للقبيلة، وهو الذي يحدد شكل وطبيعة العلاقات مع القبائل الأخرى، سواء سلمية أو دموية، وذلك بإبرام المعاهدات والاتفاقيات، تسوية المشاحنات القائمة بين القبيلة ونظرائها، أو عقد الأحلاف وتكوين تجمعات قوية قادرة علي تحقق مصالح المشتركة(٤)، ووضع الخطط الحربية لمواجهة الأخطار الخارجية، بالإعداد لشن الاغارات وتأمين الدفاعات، وتحديد الوسائل التي تضمن تنفيذها بنجاح(٥).

---

(١) أشار القرآن الكريم إلي الدور الفعال للقوة البشرية في استمتاع القبائل بالموارد الطبيعية المشتركة في قصة موسيυ، قال تعالي:﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾. سورة القصص، الآية رقم (٢٣).

(٢) أشار الشاعر عمر بن كلثوم التغلبي إلي ذلك في معلقته، قائلاً.

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

(٣) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٩٠-٩١.

(٤) لتحقيق مصالح القبيلة عقد مجلس شيوخ قبيلة قريش، في واد بأسفل مكة اتفاقيات مع مجالس مجموعة من القبائل العربية أطلق عليها الأحلاف أو الأحابيش، بهدف تحقق مصالح مشتركة. د/ نعمان محمود جبران، د/ روضة سحيم حمد آل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، مرجع سابق، ص١٥٥.

(٥) رنا طعيمة حسين الصافي، الأنظمة الاجتماعية والسياسية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الكوفة، العراق، ٢٠٠٥، ص٥٩.

بالإضافة إلي التعاون في دعم الاستقرار الداخلي، وحفظ الأمن الاجتماعي، وبناء سلام دائم داخل القبيلة، وإشاعة الاطمئنان والوئام، بما يحفظ الأرواح والأعراض والأموال، من خلال بعث روح العصبية، وإذكاء الانتماء للقبيلة، وعقد مجالس الصلح القادرة علي حل الخلافات التي نشبت بين أعضاء القبيلة، بشأن المعاملات اليومية والموارد الاقتصادية والخلافات الاجتماعية، والقضاء أي مسألة من شأنها إثارة الضغائن والأحقاد، حتى لا يوجد مجال لما يعكر صفو السلم الاجتماعي(١).

إلي غير ذلك من الأمور والاقتصادية والمالية، التي كانت تروج وتزدهر حين تطيب حياتهم وتتحسن أحوالهم، بصفة خاصة في فصل الربيع حيث تنمو الحشائش وتكثر المراعي، ومن ثم تتوالد إبلهم وأغنامهم وخيولهم، وما يترتب علي ذلك من كثرة الشحم واللحم ووفرة الأصواف والأوبار، التي تزيد عن الحاجة الذاتية للقبيلة، وهو ما يستتبع تنظيم عمليات مبادلة الفوائض، واتخاذ الإجراءات المتعلقة بتسيير الرحلات التجارية شمالاً وجنوباً، لتوسعة النشاط التجاري والاقتصادي، للحصول علي السلع بأسعار تنافسية، والتوسع في الأسواق، وإبرام الاتفاقيات التجارية مع مختلف القبائل والكيانات الأخرى، بما يؤدي تنمية الثروة وزيادة الأرباح.

ولم يقتصر دور مجالس القبائل علي نظر المسائل سالفة الذكر، بل امتد نشاطها إلي السياسة الاجتماعية، باعتبارها انعكاس مباشر للنشاط الاقتصادي(٢)، فتبدأ بحصر شامل للذكور والإناث، لكل من وصل منهم سن البلوغ، بحيث تتوفر إحصائية بجميع الذكور الذين بلغوا سن المواطنة(٣)، لإلزامهم بواجبات الرجولة

(١) يقول الشاعر أوس ين حجر:

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما.. رأيت لها ناباً من الشر أعصلا

(٢) كان للخصب والازدهار والانتعاش والقحط والجفاف تأثير مباشر علي النظام الاجتماعي، وبصفة خاصة علي نظام الزواج، الذي كان يزيد مع انتشار الكلأ والمؤنة، وتفتر في سُني القحط والجفاف، فالرجل في سنة القحط لا يدوم علي امرأته ولا تدوم المرأة علي زوجها إلا قدر عشر ليال، ثم يضطره الجوع إلي دفعها للمضامدة لأنه إذا لم يفعل ذلك فسيموت جوعاً، وكان هذا النظام منتشر بين نساء القبائل الفقيرة. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص٢٦٠٦.

(٣) عندما يبلغ الشاب سن معينة تحددها كل قبيلة وفقاً لمعطيات معينة لديها، يمكنه المشاركة بفاعلية في اجتماعاتها وإبداء الرأي في الشئون العامة.

وأعبائها[١]، كذلك فتيات القبيلة اللاتي يبلغن يدخلن المجلس ليتم تدريعهن، مما يمكن معه الإعلان عن الشبان والفتيات الذين وصلوا سن الزواج[٢]، وتحديد السياسة الاجتماعية العامة، من خلال تحديد موقف القبيلة بالنسبة لسباياها وأسراها، والوصول إلي موقف سليم من السبايا اللاتي لم تدفع قبائلهن فديتهن، في ضوء الأهداف السياسية والاجتماعية المرسومة[٣]، بالإضافة إلي تحديد نظم الزواج التي تتبعها القبيلة، فقد عرف عرب الجاهلية العديد من الأنكحة، اختلفت من قبيلة إلي أخري، وفقاً للنظام الاجتماعي لكل قبيلة علي حده، ومدي حاجتها إلي القوة البشرية[٤].

علي أن الاجتماعات القبلية لم تكن جميعها تهدف إلي التدبير والتقرير فحسب، فكما هو الحال في وقتنا الحاضر، لا يقضي أهل السياسة والحكم كل أوقاتهم في تفكير وتعمق في شئون الحكم والإدارة، بل أن لدي النخبة والصفوة أيضاً اهتمام بالشئون الاجتماعية سواء العامة أو الخاصة، وهذا وما كانت عليه مجالس

(١) كان الطفل لديهم إذا بلغ صار رجلاً يفعل فعل الرجال. د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٦٥٤.

(٢) يقول الترمانيني:"جزيرة العرب من المناطق الحارة وفيها يبكر سن البلوغ، وتظهر علامته في البنت في التاسعة أو العاشرة من عمرها، وتظهر علامته في الصبي في الرابعة عشر أو الخامسة عشرة من عمره، وتزوج البنت في سن مبكرة، وقد يعقد زواجها وهي طفلة وتزف إلي زوجها إذا أدركت سن البلوغ". د/عبدالسلام الترمانيني، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٨٤، ص١١٣.

(٣) محمد بن حبيب البغدادي، المنمق في أخبار قريش، مرجع سابق، ص١٨٠.

(٤) أجملت السيدة عائشة رضي الله عنها سياسات عرب الجاهلية في الزواج قائلة:"كان النكاح في الجاهلية علي أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلي فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون علي المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطيع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون علي المرأة لا تمتنع ممن داءها، وهن البغايا كن ينصبن علي أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل علهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمدρ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم". البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم (٥١٢٧).

القبائل العربية قبل الإسلام، يعيشون ويتفاعلون مع واقعهم الاجتماعي بشكل أكثر مرونة وانسجام مما عليه الوضع في المجتمعات الحديثة.

ولما كان العرب يعيشون في بيئة صحراوية مجدبة، ويحتقرون الصناعة والحرف والمهن، ويتعيرون من يمتهنها، لذا لم يباشرها إلا الموالي والأرقاء وأبناء العجم(١)، وكانت حياتهم غاية في البساطة تسير علي وتيرة واحدة ونمط واحد(٢)، لذا كان لديهم الكثير من أوقات الفراغ، للاهتمام بشئون العامة للقبيلة(٣)، كما كان فسحة من الوقت خصصت للاهتمامات الثقافية والأدبية، لاستهلاك وقت الفراغ والترويح عن النفوس ودفع ملل الحياة ورتابتها وإثارة الحماسة ورفع الروح المعنوية لأفراد الجماعة، تمثلت في مجالس الأنس والسمر(٤)، وإنشاد الشعر(٥)، وسرد القصص عن انتصارات القبيلة، للتفاخر بمجدها أسلافهم وبطولاتهم، فهم الناشرون لشرف القبيلة الحافظون لفضائلها(٦).

فقد حظي الشاعر لدي عرب الجاهلية بمكانة عالية لا تضاهيها مكانة، فهو علي الدوام ملئ قلوبهم وعقولهم، فالشعر مرآة حياة العربي العقلية والاجتماعية(٧)، إذ

---

(١) أبو الحسن علي الندوي، السيرة النبوية، مرجع سابق، ص٩٣.
(٢) د/ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، مرجع سابق، ص٦٠٦.
(٣) لم يكن العرب هم الذين استغلوا وقت الفراغ في الشأن العام، فقد سبقهم في ذلك الإغريق، يقول سباين:"الموطنين الأثينيين كانوا يعيشون من كدحهم دون وسيلة أخري للعيش، ولهذا كان طبيعياً أن يباشر المواطن أوجه نشاطه السياسي خلال أوقات الفراغ". جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، مرجع سابق، ص٤١.
(٤) وصفها الندوي قائلاً:"بها موائد ممدودة ونواد للشرب". الندوي، السيرة النبوية، مرجع سابق، ص٩٣.
(٥) يؤكد حسان بن ثابت إنشاد الشعر في المجالس، قائلاً:
وإنما الشعر لبُ المرء يعرضه .. علي المجالس إن كيساً وإن حمقا
(٦) مدح الشاعر زهير بن أبي سلمي هذه المجالس قائلاً:
وفيهم مقامات حسان وجوهـم .. وأندية ينتابها القـول والفـعل
لي مكتريهم رزق من يعتريهم .. وعند المقلين السـماحة والبـذل
وأن جئتم الفيت حـول بيوتهم .. مجالس قد يشفي بأحلامها الجهل
(٧) عبر الرسولρ عن تمسك العرب بالشعر واستخدامه في جميع مجالات الحياة قائلاً:"لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين". العراقي وابن السبكي والزبيدي، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، ج٦، دار العاصمة للنشر،الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ، ص٤٦٥.

استخدموه في المدح والفخر والهجاء والوصف والغزل والرثاء والتعبير عن قيم الجماعة السائدة، حتى صارت أشعارهم كالكتب المقدسة، يحفظونها في أطهر الأماكن وأفضلها قدسية، فالمعلقات المذهبات عُلقت علي جدران الكعبة وفي جوفها(١)، ذلك أن أشعارهم كانت سجل تاريخهم وديوانهم الخالد، لذا دونوا فيها مآثرهم وأنماط سلوكهم وعلاقاتهم ومعالم حياتهم، لتكون مصدر معرفة الخلف بأخبار السلف.

وكان عرب البيداء يفخرون بقدم لغتهم وكمالها، مولعين بفصاحة اللسان، وصحة الكلام ووزن الشعر وتقفيته، لذا كانت القبيلة تحتفل بميلاد شاعرها احتفالاً كبيراً، وقد رسم القيرواني صورة لاهتمام القبائل العربية بالشعراء، توضح أنها تلمح في ميلاد الشاعر إيذانا بمولود جديد للقبيلة ككل، تؤكد فيه ذاتيتها وحضورها العقلي، وامتلاكها القوة الشرعية المعنوية والأخلاقية، إذ يستطيع الشاعر أن يُشكل السيرة الذاتية للقبيلة، ويلون تاريخها بلون زاهي مُشرق(٢)، بما يجعله سهل التناقل من ذاكرة إلي أخري، كما يستطيع لم شعث القبيلة ورأب صدعها، فالشعراء هم ألسنة القوم ومنابر الجماعة، وحفظة آدابها، وحماة مجدها(٣).

وقد عبر القيرواني عن مدي فرح القبيلة بشاعره، قائلاً:"لم يكن يعدل فرحة القبيلة بالشاعر سوي فرحتها بغلام يولد أو فرس تُنتج"(٤)، ومن المظاهر الدالة علي شدة فرح القبيلة بميلاد شاعر جديد فيها، إقامتها احتفلاً كبيراً تنحر فيه الذبائح وتدعو

(١) العرب كانوا أميون يعتمدون علي عقلهم الحافظ الذاكر، لذا لم يعتبرا أنفسهم في حاجة إلي علم الكتابة، ولم يؤثر عنهم تسجيل تاريخهم في كتب أو علي حجارة أو في معابد، باستثناء أحسن القصائد كتبت بحروف جميلة براقة بأحرف من الذهب علي الحرير المصري لذلك سميت بالمذهبات، وكانت تحفظ في خزائن الأمراء والملوك أو تعلق علي جدار الكعبة لذلك سميت بالمعلقات. ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٥.

(٢) د/ احمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص٦.

(٣) يقول سيديو:"ورأوا الأشعار وسيلة لانتشار فخارهم، وسبيلاً لوصول أعمالهم العجيبة ومآثرهم إلي ذراريهم، فأحبوها وعكفوا عليها". لويس سيديو، خلاصة تاريخ العرب، مرجع سابق، ص٣٨.

(٤) الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق/ محمد محي الدين، المكتبة التجارية الكبري، مصر، ط٢، ١٩٥٥، ص ١٩.

القبائل لحضوره[١]، وبرر ابن خلدون الفرح الشديد بميلاد شاعرها، تبريراً يتسق مع المزاج العربي، والنفسية القبلية المشبعة بعشق الحرب والاقتتال، التي تبذل كل غالي وثمين في سبيل تحقيق النصر، الذي يحتاج تحقيقه إلي رفع الحماسة، بأن النفس عند سماع النغم والأصوات، يدركها الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت الشخص في الوجهة التي هو فيها[٢].

فلاشك أن الشعر والشعراء كان دوراً هاماً في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية، فإبراز العصبية القبلية إثارة الوجدان، وإلهاب مشاعر الناس، وإعلاء الروح التضامنية، وتحريك روح الحماسة، وشحذ الهمم، وتزكية حمية الجاهلية، بمدح الفرسان ونعتهم بالأبطال الشجعان، والتذكير بالأمجاد والأحساب ومناقب القبيلة، والزهو بالأنساب، ورثاء الأسلاف، والمبالغة في الفخر بالآباء، وبما أظهروه من ضروب البطولة وما عرفوا به من مهارة في النزال والكر والفر[٣]، والدعوة إلي القتال وتحقيق النصر في الحرب، لا يقل عن عمل جحافل الفرسان وعظام القادة[٤].

وعلي الجانب الآخر يجوب شاعر القبيلة مخيمات الصحراء والأسواق العامة، سعياً في هجاء الأعداء وذم حالهم، وذكر مثالبهم وكل ما يحض علي كرههم واجتنابهم والتنفير من سلوكهم، والتشكيك في أحلافهم، والطعن في قدرتهم والحط من شأنهم، بإظهار نقائصهم وعيوبهم، والتذكير بذلهم وجبنهم وفرارهم والتنكيل بهم في

(١) احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج١، مرجع سابق، ص١٩.
(٢) عبدالرحمن بن محمد "أبن خلدون"، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ب. ت، ص١٣٠.
(٣) في مدح القبيلة وعلو نسبها وارتفاع شأن أبطالها يقول بن جودي السعدي:
بها من بني عدنان فتيان غارة .. ومن آل قحطان كمثل الأجادل
يقودهم ليث هزبر ضـــــبارم .. محش حروب ماجد غير خامل
(٤) من فرسان العرب في الجاهلية: ربيعة بن مُكدم، فراس بن غنم بن كنانة، عنترة الفوارس، عتيبة بن الحارث بن شهاب، أبو براء عامر بن مالك، زيد الخيل، بسطام بن قيس، الأحيمر السعدي، عامر بن الطفيل، عمرو بن عبد ود، شبيب الحروري. ابن عبدربه، العقد الفريد، ج١، مرجع سابق، ص١٠٥.

وقائعهم وأيامهم، وما نالوه من أسر وخزي ومهانة فيها، كل ذلك يقع مسئوليته علي عاتق شاعر القبيلة سواء كان ذكر أو أنثي(١).

ولاشك في ارتفاع شأن شاعر القبيلة ومنزلته، متي قام بمسئوليته وأدي واجبه علي أكمل وجه، أو جمع بين إجادة الشعر وبين الفضائل الأخرى، التي تعتبرها العرب مبعثاً للفخر ومصدراً للزهو، كالجمع بين الشعر والبطولة عند اشتراكه في الحروب(٢)، أو الجمع بينه وبين والسؤدد(٣)، يقول المقري:"وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظّ وافر "(٤).

وقد استمد العرب فنون الحرب والقتال من الأمم السابقة والمدنيات المعاصرة لهم، التي من شارات الملك فيها اتخاذ الآلة ونشر الألوية والرايات، وفي الحرب قرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون، بالإضافة إلي العبارات الرنانة الكلمة القوية، بهدف إرهاب العدو وإرباك جنده، فالفكر السائد قديماً يعتقد أن الأصوات الغريبة والصيحات الهائلة في الحروب تصيب نفس العدو بالذعر والهلع والروعة، بعكس سماع أصوات

(١) مشاركة الكلمة في الحرب مشاركة قديمة، عرفت منذ العرب البائدة، فقد ظلت عفيرة بنت عباد الجديسية تنعي علي قومها استسلامهم للظلم وهتك الحرمات وتستعديهم علي طسم حتي اشعلت حرباً طاحنة أبيدت فيها طسم وغسلت فيها جديس عار كاد يلحقا أبد الدهر قائلة:

لو أننـــا كنا رجالاً وكنتـــم .. نساء لكنا لانفرر بذا الفـــــعل
فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم .. ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل
وإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه .. فكونوا نســاء لا يعبن من الكحل

(٢) يقول محمد بن الأغلب:

أنا الملك الذي أيدت ملكـــي .. بسيفي إذا كشفت به الضـبابا
فأمضي إن سردت الجفن عنه .. فأغتصب النفوس به اغتصابا

(٣) قواد العرب في الجاهلية كان أكثرهم من الشعراء، وحظي بعضهم بشرف الرئاسة في قومهم، كامرئ القيس بن حجر الكندي، وأمية بن أبي الصلت الثقفي، الذي كان من سادة ثقيف وأشعرها، والأفوه بن عمرو بن مالك الأودي، الذي كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم. الأصفهاني، الأغاني، مرجع سابق، ص٢٣٨؛ د/ سجيع جميل الجبيلي، ديوان أمية بن أبي الصلت، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

(٤) احمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، تحقيق د/إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص١٠٢.

الأهل والعشيرة، الذي يدرك النفس الثبات والفرح والطرب، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويهون بها القتل(١).

لأجل ذلك كانت العجم تتخذ في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية، فيحدق المغنون بجانب السلطان بآلاتهم، يغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلي الاستماتة، لكن العرب وهم أهل فصاحة وبلاغة وبيان بالسجية(٢)، قدموا الشعر والشعراء في قتالهم، فالكلمة مقدمة علي ما دونها من المحفزات(٣)، والشعراء هم لسان القبيلة ومنابرها، يلقون أروع ما تجود به قرائحهم، مما يسلب الألباب ويحرك الجبال الرواسي ويلهب المشاعر(٤)، فتتأجج الهمم، وتجيش الحماسة، وتستيقظ العزائم(٥)، حتى يصير الأبطال كالجذوة المضرمة، فيسارعوا إلي خوض غمار الحرب، وينبعث كل قرن إلي قرنه وكل مكافئ إلي مكافئه(٦).

وبالرغم من أن القبائل العربية ليس لديها قانون مكتوب، إلا أنه كان لكل قبيلة أعراف مستقرة خاصة بها، انتقلت من السلف إلي الخلف، يلحق بمن يخالفها العقاب والنكال، ويكأنها قانون أو أحكام شرعية(٧)، وبموجب القانون العرفي امتلكت المجالس

---

(١) من ذلك قول عنترة بن شداد:

دعوني أوفي السيف في الحرب حقه .. هلا سألت الخيل يا ابنة مالك

(٢) صور البعض التزام شعراء العرب باللغة العربية السليم قائلاً:"الشاعر في أول الاقتباسات يري أنه مطبوع علي الإعراب، فلو أراد أن ينطق بما يعارضه لما استطاع إلي ذلك سبيلا، مثله في ذلك مثل الذي جبل علي أن يفرز جسمه العرق، فلو أراد أو أراده إنسان أن يفرز من مسامه عطراً ما استطاع إلي ذلك سبيلا، فالعربي يعرب لأنه يعرب لآ لأنه اكتسب لغة العرب". د/ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، بيروت، ط٤، ٢٠٠٠، ص٨٠.

(٣) برر البعض التأثير القوي للكلمة عند العرب قائلاً:"إن الكلمة لمن روح القدس، إنها تساهم إلي حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية، فهي ذات وقع في ضمير الفرد شديد، إذ تدخل سويداء قلبه، فتستقر معانيها فيه، لتحوله إلي إنسان ذي مبدأ ورسالة". مالك بن نبي، مرجع سابق، ص٢٢.

(٤) العلاقة الشديدة بين الشعر والحرب عند العرب جعلت البعض يذهب إلي أن النائرات التي بين القوم كانت السبب في ازدهار الشعر وقوته، فالقبائل التي لم يكن بينها حروب لم يزدهر فيها الشعر، مستدلاً بأن الذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم تستمر حروبهم كثيراً .

(٥) من ذلك قولهم:"وبها بني عبدالدار .. وبها حماة الديار .. ضرباً بكل بتار".

(٦) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٤٤٣.

(٧) د/ هاشم الحافظ، تاريخ القانون، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٢، ص٣٧.

القبلية صلاحيات واسعة اختصت بها، تجاه شيخ القبيلة وزعيمها، بالإضافة إلي ما كان لها تجاه شعبها، فتتشاور هذه المجالس في كل الأمور الكبير منها والصغير، وتقوم بتوجه القبيلة وزعيمها إلي الحلول الملائمة لكل ما يعترضها، إذ أخذت هذه المجالس الشورى والمداولة فيما بين أعضائها بنظر الاعتبار، مما جعل زعيم القبيلة يخضع لما ينسبه ويدعو إليه الرأي العام(١)، فلم يكن اتخاذ القرار. غالباً . ينفرد به شيخ القبيلة، علي الرغم من أنه يلقي احترام خاص من الجميع(٢)، بل أنه يعمل علي تحقيق التفاهم والانسجام الذي يفرضه المصير المشترك للقبيلة.

فالحوار وحرية الرأي أساس السعادة في حياة البادية(٣)، لذلك كان التعبير الحر عن الرأي حق مكفول لجميع أعضاء القبيلة، لذلك كان لكل عضو حق حضور اجتماعات مجلس القبيلة، والتحدث فيه بحرية تامة، وعرض ما يقابله من معضلات، وإبداء ما يعن له من اقتراحات، والدفاع عنها بكل ما يملكه من حجج وأسانيد، وتفنيد حجج الآخرين، واثبات صحة آرائه والبرهنة علي قوة حججه، فكانت حرية التعبير حرية واقعية(٤)، وصلت للسماح لغير أعضاء المجلس الإدلاء بآرائهم وتقديم مقترحاتهم في شئون القبيلة الداخلية(٥)، ذلك أن مجالس القبائل احتفظت بضوابط مثلت أعراف دستورية واجبة الاحترام، لا يسع أي فرد تركها أو إهمالها، ومن ينتهكها أو يتجاوزها،

(١) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، مرجع سابق، ص ١٨٧.
(٢) د/ إدريس عزام وآخرون، المجتمع الريفي والحضري والبدوي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، ٢٠١٠، ص٢٦.
(٣) البدوي لا يري حياة أسعد من حياة البادية، ويري الحاضرة حبساً لحريته وتنقله حيث يريد، ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شئ، وانتقاد ما يراه مخالفاً لذوقه أو لعاداته بكل صراحة. حافظ وهبة، جزيرة العرب، مرجع سابق، ص١٠.
(٤) عباس محمود العقاد، الديمقراطية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٧.
(٥) من ذلك أن مجلس قبيلة قريش اجتمع في دار الندوة للتشاور في أمر الرسولρ والتآمر عليه، وسمح لإبليس بحضور المجلس وإبداء رأيه، وتولي مهمة تقييم جميع الآراء ويفندها والاعتراض عليها، إلي أن حل الدور علي أبو جهل بن هشام في الكلام، فأعجب الشيخ النجدي برأيه واستحسنه وقال:"القول ما قال هذا الرجل، هذا الرأي ولا أري غيره"، فتبعه القوم وأجمع المجلس علي الرأي الذي استحسنه بالرغم من أنه ليس عضواً في المجلس، وليس أحد أفراد القبيلة، بل أنه أخبرهم أنه ليس مكي وأنه لا ينتمي إلي أياً من مناطق الحجاز كلها. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢،مرجع سابق، ص١٢٢؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، مرجع سابق، ص٢٩٣.

يتألب عليه شعور الجماعة، ويضع نفسه تحت طائلة الجزر والعقاب، فالحرية والعرف القبلي دعامتان متلازمتان للنظام السياسي، ذلك أن أحرار البدو لا يعرفون طغيان الملوك ولا يخضعون لسطوة الحاكمين بأمرهم(١).

ومن الأمور التي بحثها مجلس قبيلة قريش وناقشها في دار الندوة، عقد لواء الحرب ضد الأعداء، وإبرام معاهدات التحالف مع القبائل الموالية لها، دراسة النشاط الاقتصادي وشئون التجارة وتسير القوافل وما يتعلق بها من البضائع والارتحال والقدوم وتوفير الحماية(٢)، محاكمة الخارجين علي التقاليد المرعية والأعراف المستقرة، وبصفة خاصة الخروج علي ديانة القبيلة وكل ما من شأنه المساس بالآلهة والمقدسات، ومن ذلك أنه عندما أخبرهم النبيρ بأنه رسول الله إليهم، ليخرجهم من الظلمات إلي النور، ومن الكفر إلي الإيمان، خافت قريش من فقدان مكانتها الدينية وانصراف الناس عن مقدساتها، فعقد مجلسها اجتماع يوم الزحمة الذي أنتهي إلي تقرر قتل رسول اللهρ، علي أن يتم تنفيذ الحكم بطريقة مبتكرة تجعل دمه يتفرق بين أطياف المجتمع، فلا تستطيع عشيرته القصاص من قاتله، بأن يجمع من كيان فتي شاباً جليداً نسيباً وسيطاً، ويتم تسليح كل منهم بسيفاً صارماً بتاراً، فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه وتستريح منه قريش(٣).

إلا أننا لم نستطيع الوقوف علي التفصيلات الدقيقة لكل المناقشات التي كانت تجري في المجالس القبلية، لأن العرب لم يهتموا بتدوين تاريخهم وتفاصيل حضارتهم، اللهم إلا القدر اليسير الذي تضمنته بعض أشعار الجاهلية، التي تناولت مقتطفات من أخبار العرب وبعضاً من جوانب حياتهم، والتي ألقت بصيص من الضوء علي اجتماعات المجالس القبلية، وما كان يدور فيها من نظر وبحث المسائل العظيمة

(١) عباس محمود العقاد، الديمقراطية في الإسلام، المرجع السابق، ص٢٧.
(٢) احمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، ج١، مرجع سابق، ص٢٤٠.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، مرجع سابق، ص٤٠٩-٤١٠؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، تحقيق/ مصطفي عبد الواحد، شبكة المشكاة الإسلامية، ١٩٧٦، ص٢٢٩-٢٣٠؛ ابن سيد الناس، السيرة النبوية، تحقيق/ محمود الشرقاوي، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة،١٩٩٣، ص١٧٠.

والنزائل الشديدة، ومن ذلك شعر المهلهل بين ربيعة في رثاء أخيه كُليب، الذي أجمل فيه الموضوعات التي كان ينظرها مجلس القبيلة، قائلاً[١]:

نبئت أن النار بعدك أوقدت .. واستب بعدك يا كُليب المجلـس

وتكلموا في أمر كل عظيمة .. لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

ويري البعض أن مجلس الملأ لم يكن له قوة تنفيذية مباشرة، يفرض بها آراءه وينفذ بها قراراته، ولم يكن في حاجة إلي ذلك، إذ فرضت المكانة العظيمة التي حظي بها، والقوة الأدبية الكبيرة التي تمتع بها أعضاؤه، وقيامة باختيار رئيس القبيلة ـ الذي يعتبر الجهاز التنفيذي ـ علي الناس الرضاء بتوصياته والامتثال لقراراته والعمل علي تنفيذها، بالإضافة إلي الخشية الدفينة في نفوسهم من الفردية والتشتت، ويظهر هذا الدافع الذاتي في قولهم:"إذا اختلفتم تشتتت أموركم وطمع فيكم غيركم"[٢].

المبحث الرابع: اتخاذ القرارات في مجلس القبيلة

ذهب الباحثين إلي أن المجتمع ذا البنيات المميزة، لا تكون له نفس الخصائص التي توجد في مجتمع يسمي مجتمعاً بدوياً، فالمؤسسات المختلفة الموجودة في كل واحد من هذين المجتمعين لا تمارس بالضبط، نفس الوظيفة والاختصاص، فكل شئ في المجتمع البدائي مصمم بغية صيانة الجماعة من تشتت شملها، والنتيجة الطبيعية والمنطقية لهذا هي إغراق الشخص في حالة التعاوضية المستلبة[٣].

ففي المجتمع القبلي تنصهر شخصية الفرد في الكيان الأكبر الذي يطلق عليه الذات الجماعية أو قبيلته، وتتحول الأنا الفردية إلي نحن، بحيث تصبح الفردية فردية القبيلة لا فردية الفرد، حتى أن الفرد لا يشعر لنفسه بوجود خاص مستقل عن قبيلته،

(١) ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح/ طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، ب. ت، ص٤٤.
(٢) د/ عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مرجع سابق، ص١٧.
(٣) عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة/ محمد الشريف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٨، ص١٠١.

فلا يجذبه انتماء لمدينة أو لدولة بقدر ما يجذبه الارتباط بقبيلته[١]، لذا غالباً لا يتصرف الفرد إلا في حدود النطاق الجماعي، الذي يحفظ علي القبيلة مصالحها ووحدتها وتضامنها، فلا يخرج عن إجماعها، ولا يشرد عن قرارها، ويهدر في سبيل ذلك كل نزعة فردية أو روح انفصالية، وغالباً ما كان يسود القبيلة رأي أقوياء التفكير أصحاب التدبير والمنطق والحجة في المناقشات وطرح الحلول، ذلك بحكم مواهبهم وفطنطهم وقدرتهم علي الإقناع لا بحكم القانون[٢].

ويبدو أن المنهج الذي اتبعته القبائل العربية في الحياة الاجتماعية واتخاذ القرارات، بصفة خاصة في المدن التجارية كمكة، انتقل إليهم ضمن ما انتقل إليهم من الثقافة الأجنبية كالثقافة الفينيقية والإغريقية[٣]، التي تنظر إلي الفرد علي أنه ترس في آله، فالفرد ليس له ذاتية منعزلة أو حقوق منفردة، بل هو جزء من كيان اجتماعي كبير، يذوب في ثناياه بصورة تكاد تكون كاملة، فقد ذهب أفلاطون إلي أن هدف العدالة ليس لذة الفرد أو تحقيق رفاهيته شخصية، بقدر ما يكون هدفها أن يؤدي الفرد دوراً محدداً في الكيان الاجتماعي، وذهب عرب الجاهلية إلي أن المصلحة العامة للجماعة دون المصالح والحقوق الفردية[٤].

وإذا كانت المدينة في نظر الإغريق هي الوحدة المثالية والإطار المقدس للحياة الاجتماعية، فإن القبيلة لم تكن أقل من ذلك في نظر عرب البادية، لذلك جاء

---

(١) ويري البعض أن مشكلة الانتماء حُلت في الغرب بظهور المجتمع المدني، فبعد أن كان الفرد يتجاذبه انتماءان هما الأسرة والمدينة أو الدولة، انتزع المجتمع المدني الفرد من سلالته الأسرية واستقبله كشخص قائم بذاته. صالح السنوسي، إشكالية المجتمع المدني العربي العصبية والسلطة والغرب، مجلة حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، العدد (٣٣٣)، ٢٠١٣، ص١٢٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، مرجع سابق، ص١٢٢؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، مرجع سابق، ص٢٩٣؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، ج١، مرجع سابق، ص٥٦٦.

(٣) د/ عمر فروخ، العرب تاريخ الأدب العربي، ج١، مرجع سابق، ص٦٦.

(٤) يقول أفلاطون:"أننا لم نؤسس الدولة لمجرد إسعاد قسم من أهلها بل لإسعاد الجميع معاً.. فنحن جادون في الوقت الحاضر في إنشاء دولة سعيدة، لا في أن نخص أفراداً منها بالسعادة، بل أن نسعد جميع أفرادها علي السواء". أفلاطون، الجمهورية(المدينة الفاضلة)، ترجمة/ عيسي الحسن، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٩، ص١٩١-١٩٢.

اسلوب اتخاذ القرارات بشكل يُعبر عن الاندماج والالتحام والجماعية، فلا نجاة للفرد بمعزل عن الجماعة، ولا يعيش الفرد إلا بهذه الجماعة ومن أجلها، وليس له ذاتية مستقلة تمكنه من مصارعة صعوبات البادية منفرداً، بل يذوب فيها ويفني من أجلها، فالمسيطر علي الفكر القبلي أن القبيلة جماعة متكافئة متضامنة متماسكة يسودها المصلحة المشتركة ووحدة المصير.

فأبرز ظاهرة في النظام القبلي هو الروح الجماعية التضامنية، وتسخير الفرد نفسه لخدمة مصالح الجماعة، وتفضيل مصلحة القبيلة علي المصلحة الخاصة عند اصطدامهما(١)، تطبيقاً للقاعدة العربية السائدة آنذاك:"الفرد في سبيل القبيلة"(٢)، فكل فرد يُضحي من أجل القبيلة بنفسه وأهله وذويه(٣)، كما يضحي من أجلها بماله وجاهه ومنصبه، فالعقيدة المستقرة لدي القبلي تقوم علي بذل كل غالي وثمين، من دم أو مال أو جهد، من أجل العيش لها وفي إطارها والبقاء في كنف قبيلته والاستظلال برايتها، هذه العقيدة جعلت جمع أفراد القبيلة يضحون بأنفسهم من أجل الدفاع عنها، ويذلون أموالهم في سبيلها، فهي كل حياتهم ومجمع كيانه(٤)، ذلك أن القبلي يعجز عن الانفصال والعيش بفردية واستقلالية عن بيئته الاجتماعية الطبيعية(٥)، وفي مقابل هذه

---

(١) تفضيل المصلحة الجماعية علي المصلحة الذاتية للفرد، مبدأ قديم شاع عند الأثينيين، يقول بركليس:"إن المواطن الأثيني لايهمل شئون الدولة بحجة انشغاله بشئون أسرته". جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، مرجع سابق، ص٥١.

(٢) يري شوفالييه أن أعضاء المجتمع القبلي لم يتحرروا من هذا الشعور أبداً إذ بعد تفكك المجتمع القبلي أصبحوا كائنات فردية مستقلة نسبياً لكنهم في ذات الوقت أصبحوا مواطنين متحمسين لمدينتهم مستعدين للموت في سبيل حريتها. شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ج١، مرجع سابق، ص١٦.

(٣) صور الشاعر دريد بن الصمة تضحية الفرد من أجل القبيلة بالدفاع المستميت عنها والذود عن بيضتها بصدق إصرار وقوة عزيمة يصل لتقديم الروح فداءً لنصرتها، قائلاً:

دعاني أخي والخيل بيني وبينه .. فلما دعاني لم يجدني بقعـــــــدد
تنادوا فقالوا أردت الخيل فارسا .. فقلت أعبد الله ذلكـــــــــم الردي
غداة دعاني والرماح ينشـــنه .. كوقع الصياصي في النسيج الممدد
فطاعنت عنه الخيل تبـــدت .. وحتي علاني حِلك اللون الأســـود
طعان إمرئ آسي أخاه بنفسه .. ويعلم أن المرء غير مخـــــــلد

(٤) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٦١.

(٥) أشيلي مونتاغيو، البدائية، مرجع سابق، ص٢٦.

التضحيات كانت القبيلة تؤمن لأفرادها الحماية، وتذود عنهم، وتنصرهم ظالمين كانوا أو مظلومين(١)، فالحماية والأمن والتضحية علاقة تبادلية بين الفرد وقبيلته فهو يحميها وهي تحميه(٢).

لذا جاء أسلوب اتخاذ القرارات متمشياً مع المفاهيم السائد للعدل عند أغلب الأمم السابقة علي الإسلام، فالعدل لديهم ليس له مفهوم قانوني محدد علي وجه الدقة، إذ كانت حدوده متداخلة شأنه في ذلك شأن الكثير من المعاني المجردة آنذاك(٣)، ومنها بدو شبه الجزيرة العربية، التي كان للعدل لديها يحمل مفاهيم متعددة، أهمها عدم الانتقاص من حرية الفرد، باعتبارها ميزة طبيعة حصل عليها بالميلاد في البيئة الصحراوية، وهو ما انعكس علي إدارة شئون القبيلة واتخاذ القرارات فيها، بحيث وجد نظام شبه ديمقراطي، يسمح بالاختلاف وتبادل الآراء وتقييم الحلول وتفنيد الحجج وتقديم البراهين، من خلال إجراءات تُمكن من الوصول لقرار قائم علي القناعة والقبول تطبقه القبيلة(٤).

فقُبل بدء الاجتماع كان رئيس القبيلة يوجه كل شخص إلي المكان المخصص لجلوسه(٥)، كما أن كل منهم يعرف قدره ومكانته، وفقاً لمعطيات السلطة والثروة والسن والعصبية، إذ كان الجاهليون طبقيون حتى داخل القبيلة الواحدة، فلكل عضو مكان محدد في المجلس يلتزم به ولا يتجاوز(٦)، فالقوم ينتظمون في المجالس بحسب مكانتهم

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، مرجع سابق، ص١٨.
(٢) احمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص١٠.
(٣) د/ هاشم يحيي الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٧٧.
(٤) د/ صالح احمد العلي، الإدارة في العهود الإسلامية الأولي، مرجع سابق، ص٦٠.
(٥) وصفها الندوي مجالس العرب قائلاً:"لهم أرائك منصوبة وموائد ممدودة". الندوي، السيرة النبوية، مرجع سابق، ص٩٣.
(٦) يقول الأحنف بن قيس التميمي:"ما جلست مجلساً قط، أخاف أن أُقام منه لغيري". ابن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ج١، مرجع سابق، ص٤٧.

وقدرهم، عن يمين ويسار سيدهم بحيث يكون جلوسه في المنتصف[١]، ثم يجلس القوم حوله عن يمينه أشرف القوم وأنبلهم وأفضلهم مكانة، يعاونه ويحل محله عند غيابه[٢]، بينما الذي يليه في المكانة يجلس علي يسار الشيخ، وعلي ذلك الترتيب يلتزم كل فرد بموضع والمكان المحدد له في المجلس[٣]، فلا تزاحم أو تسابق علي المجالس[٤]، ومع ذلك يمكن للسيد أن يُقرب أحدهم منه ويدنوه إلي صدر المجلس مؤقتاً إذا استدعي الأمر ذلك[٥].

ومتي استوفي الاجتماع شكله ونصابه، فحضر سادة القوم وأصحاب الرأي السديد والشورى، افتتح شيخ القبيلة ـ باعتباره كبير القوم وسيدهم ـ الاجتماع بالترحيب بالحاضرين[٦]، ثم يعرض عليهم الأمور التي يلزم عرضها للمناقشة، ويطرح الأفكار التي يتعين بحثها، باعتبار أن الحوار أفضل وسيلة لإعداد المسائل العامة، والوصول لأفضل البدائل وأنسب الحلول[٧]، فرئيس القبيلة هو الذي تُستهل بكلماته الندوة، فلا يسبقه أحد أو يتجاوزه في ذلك، ثم يتجاذب الحاضرين الحوار والنقاش، وفقاً لتقاليد وأعراف القبيلة، وبصفة خاصة السن والمكانة الاجتماعية، فالجميع يراعي ضوابط

(١) وصف البعض مكان جلوس عبد المطلب بن هاشم في لقائه بجماعته، بأنه كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، وكان أهله يجلسون حول فراشه. ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، مرجع سابق، ص١٠٩.

(٢) جاء ذلك تطبيقاً لنظام الردافة الذي شاع في تنظيم مجالس ممالك الحيرة والغساسنة والقبائل العربية، فالشخص الذي يلي الحاكم في المكانة يجلس عن يمينه، يعاونه وإذا غاب الحاكم جلس الردف مكانه وخلفه فيه، فهو خليفته علي الناس وتابعه عليهم.

(٣) يقول البعيث بن حُريث الثعلبي:

وإن مكاني في الندي ومجلسي .. له الموضع الأقصى إذا لم أقرب

ولست وإن قُربت يوماً ببائـــع .. خلاقي ولا ديني ابتغاء التحـبب

(٤) د/ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، مرجع سابق، ص٥٤١.

(٥) أبو حاتم سهل بن عثمان السجستاني، المعمرون والوصايا، مرجع سابق، ص٨٧.

(٦) استخدم أهل الجاهلية في تحيتهم وترحيبهم عدة ألفاظ منها: وعم صباحاً وعم ظلاماً، انعم صباحاً وانعم مساءً، يقول زهير بن أبي سلمي:

فلما عرفت الدار قلت لربعها .. ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

(٧) يقول سباين:"أفضل الوسائل وأحسن النظم لا يمكن أن يتولد إلا عن جهد مشترك لأشخاص عديدين". جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، مرجع سابق، ص٥٦.

الحديث أثناء انعقاد مجلس القبيلة، لا يتكلم أياً منهم إلا في ترتيبه، بأن حل الدور عليه، أو تم توجيه الكلام إليه(١).

وفي نهاية التشاور والتباحث يتم استعراض نتائج كافة الآراء ـ غالباً ـ ما يُجمع المجلس علي رأي معين(٢)، بشأن المسألة المعروضة عليه، عن طريق المجادلة والإقناع بتبادل الخطب والأخذ والرد وتفنيد الحجج، وله في سبيل ذلك استعمال كل الأساليب التي يراها موصلة إلي ما يريد(٣)، وفي هذه الحالة يتعين علي جميع البطون والعشائر العمل علي تنفيذ القرار علي أفضل وجه، بكل ما لديها من طاقات وما تملكه من قوة، دون حيدة أو تباطؤ(٤)، بهدف الوصول إلي رأي توفيقي يكون نقطة التقاء، يرضي عنها الجميع ويوافقون عليها(٥).

ولقد ترك لنا مجلس قبيلة قريش دليلاً عملياً علي التشاور والنقاش بين أعضائه فيما يخص القبيلة، فقد حدد مجلس القبيلة يوم الزحمة للاجتماع، لمناقشة موضوع واحد هو القضاء علي الدعوة الإسلامية والتخلص من المبعوث بها، إذ قرر المجلس أن في انتشارها خطر علي مصالح القبيلة وتهديداً لمكانتها وإضراراً بمصالح سادتها، فتشاوروا في الأمر من أجل الإجماع علي رأي، فقال بعضهم نحبسه في الحديد ونغلق عليه باباً حتى يموت، لكن تم رفض هذا الرأي، ثم رأي آخر طرده من القبيلة ونفيه إلي خارج أراضيها، وهكذا تبادل المجلس الآراء وتفنيد الأسانيد والحجج، حتى حل الدور في الكلام علي أبو جهل بن هشام، فقال:"إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو؟ قال: أري أن نأخذ من كل قبيلة فتي شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا،

(١) د/ مجيد حميد عارف، الانثوغرافيا والأقاليم الحضارية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٤، ص١١٥.
(٢) فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي، ج١، مرجع سابق، ص٩٠.
(٣) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، مرجع سابق، ص١٢.
(٤) من القرارات التي أجمعت عليها قريش وعملت علي تنفيذها بسرعة وحزم، قرار التخلص من الرسولρ بقتله. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢، مرجع سابق، ص٢٢٩-٢٣٠؛ ابن سيد الناس، السيرة النبوية، مرجع سابق، ص١٧٠-١٧١.
(٥) يري البعض أن ضرورة الإجماع علي قرارات مجلس القبيلة يعتبر نقطة ضعف كبيرة في نظام الحكم والإدارة القبلي. د/ هاشم يحيي الملاح، الوسيط في تاريخ العرب، مرجع سابق، ص٢٧١.

ثم نعطي كل فتيً منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، ولم يقدر بنو عبدمناف علي حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، قال: الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا رأي غيره، فأستحسن القوم الرأي ولم يتفرقوا إلا بعد أن أجمعوا عليه(١).

ولما كان رجال الملأ متناظرين في مكانتهم وحقوقهم، وكان يتعين الحصول علي موافقة تجعل الجماعة تحترم القرار، إذ كانت القرارات الصادرة عامة وملزمة للجماعة بأكملها(٢)، فإن الأكثرية أحياناً كانت تستخدم عوامل الضغط الاجتماعي والاقتصادي(٣)، لفرض وجهة نظرها علي الأقلية، بحيث تصبح القرارات في النهاية جماعية لو بشكل ظاهري، فيذعن لها جميع أفراد القبيلة ولا يشذ عليها أحد(٤)، ذلك أن النفس البشرية دائماً وأبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه(٥)، كما أن الأعراف القبلية تفرض علي الجميع توقير كبار السن المُجربين واحترام قراراتهم، وعدم مخالفة شيوخ العشائر، بالإضافة إلي أن آباء الأسر ورؤساء العشائر كانوا يوصون أهلهم وذويهم بإتباع الجماعة وعدم مخالفة ما أجمعت عليه القبيلة(٦)، كما كانت الأمهات

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، مرجع سابق، ص١٢٢؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، مرجع سابق، ص٢٩٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، مرجع سابق، ص٢١٦.

(٢) Jean. William Lapierre, Essais sur le fondement du pouvoir politique, publication de la faculte:d,Aix-en-provence, Ophrys, ١٩٦٨, p٤٤.

(٣) من أبرز صور الضغط التي نفذها مجلس قبيلة قريش قرار المقاطعة التامة لبني هاشم ومحاصرتهم في شعبهم، بسبب دفاعهم عن الرسولρ وحمايته وعدم التخلية بينهم وبينه.

(٤) عندما أشرف حصن بن حذيفة الفزاري علي الموت جمع أبنائه وأوصاهم قائلاً:"اسمعوا مني ما أوصيكم به ... لا تخالفوا فيما اجتمعوا عليه، فإن الخلاف يزري بالرئيس المطاع". احمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، مرجع سابق، ص٢٩٣.

(٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص٢٨٣.

(٦) د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص٥٩.

يذكرن دوماً هذه الوصايا ويغرسن في نفوس أولادهم خشية الرجل المسن واحترامه وتقديره(١).

فإن لم يستطيع المجلس التوصل إلي رأي يحظي بتأييد الكل، ولم يتفق الجميع علي رأي واحد، ولم تفلح وسائل الضغط والمساومات في جعل القبيلة علي قلب رجل واحد، وظلت هناك آراء مناوئه ومعارضة، أتخذ القرار بأغلبية أصوات أصحاب النفوذ والثقل الاجتماعي، باعتبارها المعبرة عن رأي الجماعة والقادرة علي تنفيذ القرار، وفي المقابل يهمش رأي الأقلية ولا يتم الاستجابة له، حتى لو كان رأي الأقلية هو الرأي الصائب، بل وإن كان هو الذي يحقق للقبيلة مكاسب النصر والظفر بالغنائم(٢)، فالعصبية هي أساس المجتمع القبلي، ومتي اتجهت العصبة إلي تبني رأي معين، كان رأيها نافذ ويتعين عدم الزيغ عنه.

ولما كانت الثقافة السياسية الضعيفة نسبياً في المجتمع القبلي، تشير إلي أنه عند الانقسام لا سبيل أمام الأقلية إلا الانصياع لرأي الأغلبية والامتثال لقرارات الجماعة(٣)، فالإحساس بالطاعة والولاء والانتماء، الذي يتغلغل في وجدان الأفراد تجاه القبيلة والنظام السياسي فيها، كان له دور كبير في تقبل آراء الجماعة وتوجهاتها، حتى

(١) هـ.ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية، ج١، ترجمة/ عبدالعزيز توفيق جاويد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٣، ص١٤٣.

(٢) عبر الشاعر دريد بن الصمة عن التزام الأقلية بقرارات الأغلبية، حتى لو كانت غير حكيمة وغير صائبة، وتؤدي لهزيمة محققة وتجلب الذل والهوان للقبيلة، قائلاً:

وقلت لعارض وأصحاب عارض .. ورهط بني السوداء والقوم شُـــهدي
وقلت لهم إن الأحاليف أصبحت .. مطنبة بين الستار فتهمـــــــد
فما فتئوا حتى رأوها مُغيـــــرة .. كرجل الدبي في كل ربـــــع وفدفد
فلما رأيت الخيل قُبلا كأنهـــا .. جراد يباري وجهـــة الريح مُغتدي
أمرتهم أمري بمنعرج اللـــــوي .. فلم يستبينوا النصح إلا صحي الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أري..غوايتهم وأنني غير مهتـــــــدي

(٣) الفكر القبلي يقوم علي أن رُشد الفرد وغِيه مرتبطان بقبيلته، فإن ضلت القبيلة ضل معها وأمعن في ضلاله، وإن اهتدت القبيلة اهتدي معها وأمعن في هداه، وقد عبر الشاعر دريد بن الصمة عن مدي تبعية الفرد لأهواء قبيلته وشدة التزامه بمضمون قراراتها، قائلاً:

وما أنا إلا من غزية إن غوت .. غويت وإن ترشد غزية أرشد

لو تحملت شديد المآسي وقسوة المحن، التي قد يجرها عليها رأي الأغلبية(١)، بل يتعين عليها ـ مع ذلك ـ ممارسة الأفعال التي تنم علي الانتماء للقبيلة والاندماج فيها والاعتزاز بها، بحماية بيضتها وتحمل أعبائها، كأنها ليس لها مخرجاً ولا محيداً عنها(٢).

ولما كان الشرع البدائي يفرض علي زعيم القبيلة إقامة السلم وتحقيق التوازن الدائمين بين أفراد الجماعة(٣)، فبمجرد ظهور بوادر الخلاف والانقسام بينهم، كان شيخ القبيلة يعمل لم شملها وتوحيد كلمتها قبل حدوث تعارض بين كياناتها(٤)، حتى لو لم يتفق اتجاهها مع قناعته الشخصية، يدل علي ذلك أن أبا سفيان كان عند ظهور الدعوة أبرز شخصية في ملأ مكة، ومع ذلك هو القائل:"لست أخالف قريشاً، أنا رجل منهم ما فعلت قريش فعلت"(٥).

ولما كانت الحياة القبلية تقوم علي عشق الحرية الكاملة التي لا حد لها، وتقديس المساواة بين أفراد الجماعة، ومجادلة الحاكم في سبيل الحق(٦)، ورفض الجبر أو الخضوع كرها لسلطة الغير(٧)، وكان الرؤساء أعضاء المجلس نظراء متساوون، كان

(١) كان لقريش تطبيقات عملية في هذا الشأن من ذلك أنه عندما عزمت علي حرب المسلمين يوم أحد رأي أغلبية قريش القتال للثأر لهزيمتهم في بدر قائلين:"نحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلي دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه"، إلا أن نوفل بن معاوية الديلي رفض قتال المسلمين وقال:"يا معشر قريش هذا ليس برأي، أن تُعرضوا حُرمكم عدوكم، ولا آمن أن تكون الدائرة لهم"، فما كان من أبي سفيان إلا أن وافق رأي الأغلبية فخرج جميع قريش لحرب المسلمين في أحد. محمد بن عمر الواقدي، المغازي، ج١، تحقيق د/ مرسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ، ص٢٠٢.

(٢) برر البعض خضوع الأقلية لقرارات الأغلبية بأن الأقلية تحس بعدم قدرتها علي التأثير في النظام، فتخضع للقرارات وتعتبرها إلزامية إذ لا يمكن تحديها، ويفسر ذلك الخضوع علي أنه قبول للقرارات المختلفة دونما تحد أو محاولة لتغيرها، سواء كانت راضية أو غير راضية، ففي ثقافة الخضوع يعترف أعضاء النظام بوجوده لكنهم يظلون سلبيين تجاهه، وهم ينتظرون من جانبه أن يقدم لهم الخدمات ويخشون من عقوباته، وبالتالي لا يفكرون في أنهم يستطيعون تغيير عمليات النظام علي نحو ملموس. محسن رمضان جابر، الثقافة السياسية وأثرها علي النظام السياسي، مرجع سابق، ص٣١٤.

(٣) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٥.

(٤) ذلك أن المبدأ الثابت لديهم إذا أردت المحاجزة فقبل المناجزة. أبي هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج١، تحقيق/محمد أبو الفضل ابراهيم وآخر، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٨، ص٨٣.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٤، مؤسسة اسماعيليان، إيران، ب. ت، ص٢١٦.

(٦) حافظ وهبة، جزيرة العرب، مرجع سابق، ص١٢.

(٧) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٣.

للأقلية المتمثلة في العشائر، الحرية في رفض ما اتجه إليه رأي الأغلبية، فكل عشيرة في القبيلة هوية ذاتية، يعبر عنها مجلسها الذي يمثلها اجتماع مجلس القبيلة في مواجهة نظرائها(١)، لذا كان للعشائر الحق في الخروج علي قرارات الملأ أو معارضتها، والتمسك برأي زعيمها ومجلسها الخاص(٢)، ورفض ما انتهي إليه رأي الأغلبية(٣)، والاستظهار إما بالموالي والمصطنعين أو بالعصائب الخارجين عن نسبها(٤)، إذا ما رأي رئيسها أن ذلك الإجراء يحقق مصلحة ذاتية لها(٥)، ذلك أن لكل عشيرة رئيس هو الذي يفكر لها، وهو الذي يعيش له الجميع، وهو الذي يعرف كل شئ أحسن مما يعرفه الآخرون(٦)، لكن استعمال هذا الحق نادر الحدوث في المجتمع القبلي، إذ أن القبلي شديد الانصياع للمعايير والقواعد التي تُقرها جماعته(٧)، وأخلاقه أبعد عن الانحراف والتشرذم(٨).

ولايشترط اتخاذ القرار في نفس الجلسة المنعقدة لمناقشة الموضوع، فقد درجت الأمم القديمة علي التروي في نظر بعض الأمور(٩)، لذا قد ينتهي اجتماع مجلس القبيلة دون أن يتخذ قرار نهائي في أمر من الأمور المعروضة، بل يري تأجيل الفصل في المسألة، للتفكير فيها بروية واستيضاح كافة جوانبها وأبعادها، أو لاستطلاع رأي القبيلة ذاتها، لتفادي الزج بالقبيلة في أمور لم تكن ترضي بالدخول فيها، وبصفة خاصة إذا كانت المسألة تمس قيم سامية أو مبادئ راسخة للقبيلة، تكون من تفاعل الأفراد مع البيئة البشرية والطبيعية والثقافية والدينية، كما لو تعلق القرار بتغيير

(١) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٦٣، ٢٠٩.
(٢) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٦٢.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، مرجع سابق، ص١٧١.
(٤) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، مرجع سابق، ص ١٠٨.
(٥) د/ نعمان محمود جبران، د/ روضة سحيم حمد آل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، مرجع سابق، ص١٥٦.
(٦) د/ حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان، مرجع سابق، ص٢٧١.
(٧) د/ إدريس عزام وآخرون، المجتمع الريفي والحضري والبدوي، مرجع سابق، ص١٤.
(٨) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، مرجع سابق، ص١٩٦.
(٩) أشار القرآن الكريم إلي تأجيل اتخاذ قرارات في المسائل التي علي درجة من الأهمية، قال تعالي:﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. سورة النمل، الآية رقم (٢٧).

معتقدات القبيلة أو ديانتها، من ذلك أن الرسولρ عندما دعي مجلس قبيلة بني شيبان إلي الدخول في دين الإسلام، لم يصدر المجلس قرار فورياً وإنما كان رده علي النبيρ:"إنما الزلة مع العجلة ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر"(١).

ولما كانت السمة العامة والمميزة لأهل الجزيرة العربية الأمية(٢)، لذلك وصفهم المولي عز وجل بها، قال تعالي:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾(٣)، بل أن أشرفهم وأفضل الخلق جميعاً، لحقته نفس الصفة، قال تعالي:﴿ءَامِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٤)، فبالرغم من إدراك العرب لأهمية الكتابة ومنزلتها، إلا أنهم جهلوها من حيث الاستعمال، فهم لايحذقون الخط ولا يجيدون نظم الكتابة، اللهم إلا النذر اليسير منهم، الذي لايصاغ منه حكم علي المجموع(٥)، لذلك قال النبيρ:"نحن أمة أمية لانكتب ولانحسب"(٦)، كما وصف الحسن البصري حالة الأمية لدي العرب قائلاً:"لقد كان الرجل يأتي الحي العظيم فما يجد به كتاباً"(٧)، ولم يبدأ أهل مكة بتعلم الكتابة قبل الإسلام بزمن بعيد(٨)، لذا لم يدون

(١) السمعاني، الأنساب، مرجع سابق، ص٦٧؛ العسكري، جمهرة الأمثال، ج٢، مرجع سابق، ص٤١٧.
(٢) د/ مختار الوكيل، سفراء النبيρ وكتابه ورسائله، دار المعارف، القاهرة، ب . ت، ص ٧.
(٣) سورة الجمعة، جزء من الآية رقم (٢).
(٤) سورة الأعراف، الآية رقم (١٥٨).
(٥) من أشهر كتاب مكة في الجاهلية أبو بكر الصديق الذي كتب الذي كتب لسراقة بن مالك كتاب أمان عندما لاحق النبيρ والصديق في طريق الهجرة من مكة إلي المدينة. وكذلك عمر بن الخطاب، منصور بن عكرمة، والنضر بن الحارث، الذي كتب اتفاق وتحالف قريش علي بني هاشم وبني عبد المطلب، علي أن لاينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم. وعثمان ابن عفان، وأبو عبيدة الجراح، وطلحة ويزيد ومعاوية بن أبي سفيان، وأبو سفيان بن حرب، وأبو حذيفة بن عتبة، وحاطب بن عمرو، وأبو سلمة بن عبد الأسد. ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٣٠٢، ٤٠٦، ٤١٨. وكان في مكة بعض النساء يعرفن الكتابة منهن الشفاء بنت عبدالله، وحفصة بنت عمر، وأم كلثوم بنت عقبة، وكريمة بنت القداد. محمد محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون، مرجع سابق، ص١٢٠.
(٦) سنن أبي داود، رقم (٢٣١٩).
(٧) عبدالله محمد ابن مفلح المقدسي، الآداب الشرعية، ج ٢، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٩، ص١٥٤.
(٨) أول من تعلم الكتابة في مكة هو حرب بن أمية بن عبد شمس، تعلمها من أهل الأنبار أثناء تجارته، ثم علمها لجماعة من أهل مكة. علاء الدين علي دده السكتوري، محاضرة الأوائل، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ط١، ١٢٠٠هـ، ص٢٧.

العرب القرارات الصادرة عن اجتماعات مجالسهم، إذ لم تكن الكتابة شرطاً لصحة هذه القرارات، وأكتفي بصياغتها بعبارات قصيرة جامعة الدلالة، تحفظ في الأذهان وتلوكها الألسن.

ويعتبر اتخاذ هذه المجالس للتشاور وإبداء الرأي في الأمور العامة القبيلة، وإيجاد الحلول الملائمة لكل مسألة تعرض علي المجلس، دليلاً واضحاً علي أن هذه المجالس أخذت بنظر الاعتبار أهمية الشورى والمداولة فيما بينهم من شئون عامة، وهذا يدخل ضمن ما يُعرف في المفاهيم المعاصرة بالحقوق والحريات العامة، حرية الفكر الرأي والتعبير عنها بالأسلوب المناسب، والتي كفلتها جميع دساتير العالم المعاصر(١).

المبحث الخامس: توزيع إدارة شئون القبيلة

نظراً لانتظام العرب في قبائل مستقلة كل منها قائم بذاته، وعدم التحامهم وتكوين دولة موحدة قوية تضم بين جنباتها جميع القبائل، إذ لم تسعي هذه القبائل إلي اعتناق نظام سياسي معقد، فإن السلطة في هذه الجماعات البدائية لم توزع وفقاً للمبدأ الحديث القائم علي الفصل بين السلطات، لأن حياة البادية لم تستلزم مثل هذا النمط المعقد، بل كانت في غاية البساطة والسذاجة، تأتي وتذهب علي وتيرة واحدة ونمط واحد(٢)، فظل السائد لدي هذه القبائل مبدأ الخلط والاندماج بين السلطات، حتى بعد تكوين الدولة الإسلامية الأولي في المدينة المنورة، لم توجد حدود فاصلة واضحة بين السلطات، فكان الرسولρ رئيساً للدولة مشرعاً ومنفذاً وقاضياً وصاحب الولاية العامة(٣)، فلم يعرف مبدأ الفصل بين السلطات كنظرية إلا مع الفكر السياسي الحديث،

(١) نصت المادة (٥) من الدستور المصر لسنة ٢٠١٤ علي أن:"لكل إنسان حق التعبير عن رأيه بالقول، أو الكتابة، أو التصوير، أو غير ذلك من وسائل التعبير والنشر".
(٢) د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٦٠٦.
(٣) الشيخ / عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٠ هـ، ص٤٧؛ عمر شريف، نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٠١.

إذ ارتبط باسم الفيلسوف الفرنسي "مونتسكيو" الذي قدمه بصورة دقيقة ومعالم واضحة منضبطة(١).

فمهمة إدارة شئون القبيلة تشاركية تعاونية بين شيخ القبيلة ومجلسها ورؤساء عشائرها، فالسلطة والإدارة لا يستقل زعيم القبيلة بممارستهما وحده، إذ فرضت العصبية القبلية والقانون العرفي، والمبادئ التي قام عليها النظام القبلي، والتي من أهمها أن نفس المصير كان يلحق كل أفراد الجماعة أولهم وأخرهم(٢)، لذلك كان شيخ القبيلة لا ينفرد بقرارها ولا يستقل بتنظيم أحوالها، وألا تُطلق يده في إدارة شئونها(٣)، بل كان يتعين عليه أن يرجع إلي الشيوخ وذوي السن والخبرة(٤)، وإشراكهم في الأمر جُله وحقيره، للاستفادة من رأيهم وليضمن ولائهم وطاعتهم(٥).

والإدارة مجموعة من الممارسات التي تتخدها المؤسسة الحاكمة لتأمين السيطرة وضمان الأمن والاستقرار، والحفاظ علي الكفاءة في العمل وزيادة الإنتاج، ويتوقف كفاءتها وفعاليتها، علي مدي نجاحها في تنفيذ البرامج والخطط الموضوعة، وقدرتها علي تحقيق الأهداف المرسومة، ولما كان لخبرات وحكمة القائمين بالإدارة ومكانتهم الاجتماعية دور كبير في تسيير شئون الإدارة، كان مشايخ العشائر و رؤساء البطون معنيون بذلك بجانب زعيم القبيلة، فقد فرض الواقع الاجتماعي والتكوين التنظيمي ضرورة مساهمتهم أصحاب الحيثيات في إدارة الشئون العامة.

---

(١) أورد مونتسكيو تصور كامل لمبدأ الفصل بين السلطات في الفصل السادس من الجزء الحادي عشر من مؤلفه الشهير"روح القوانين" الذي صدر عام ١٧٤٨م.

(٢) أوضح ذلك حصن بن حذيفة في وصيته لبنيه قائلاً:"لا يتكل آخركم علي أولكم، فإنما يدرك الآخر ما أدركه الأول". احمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، مرجع سابق، ص٢٩٣؛ الموسوي، أمالي المرتضي، ج١، مرجع سابق، ص٥٣١.

(٣) د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، مرجع سابق، ص٣١.

(٤) يقول فروخ:"كان شيخ القبيلة يحكمها بالشورى". د/عمر فروخ، العرب تاريخ الأدب العربي، ج١، مرجع سابق، ص٦٦.

(٥) د/ احمد الخشاب، الاجتماع الديني مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٩٤، ص٢٠٤.

فقد انعكس التمزق السياسي علي نظمهم القانونية، فلم توجد سلطة تشريعية عليا مهمتها سن التشريعات، ولا قواعد قانونية مكتوبة موحدة، تحكم المجتمع القبلي بأسره وتنظم مجمل حركته[١]، بل تركوا أنفسهم علي سجيتها، تتحكم فيهم موروثات الأسلاف، فالأصل أنه ليس علي الجاهلي إلا الخضوع للشريعة البدائية الأصلية الصادرة عن مجتمعه نفسه[٢]، إذ لكل قبيلة تقاليدها المرعية وأعرافها الموروثة الخاصة بها[٣]، فما فتئوا علي فطرتهم وحرصهم علي ما ورثوه من العرف والعادات[٤]، التي مثلت قانونهم الذاتي، الذي يؤكد استقلال القبيلة وعدم خضوعها لكيان آخر[٥]، فشعوبهم محكومون بالعادات والتقاليد ومبادئ الحكم الفطري[٦].

فإيمان أهل البادية وتمسكهم الشديد بأعراف الجماعة وعاداتها، جعل منها مبادئ دستورية وقيم قانونية معتبرة يجب احترامها، في تنظم كل نواحي الحياة، يتمسك بها الأفراد ويحافظون عليها، ولا يخرجون عليها ولا يخالفونها، فقد جبلوا علي الخضوع لتقاليدهم وشرعهم خضوعاً صارماً[٧]، فيتعين أن تتسق تصرفات الأفراد مع الأعراف

(١) أرجع البعض عدم وضع القبائل العربية تشريعات إلي الظروف البيئية، قائلاً:"ان عرب الجاهلية لم تضطرهم بيئتهم إلي وضع تشريع لدولة كاملة". علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ، دار التضامن، بيروت، ط١، ١٩٧٥، ص٤١.

(٢) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٦.

(٣) القانون لدي القبائل لم تكن قواعده واحدة، بل متعددة وأحياناً متناقضة، إذا كان لكل قبيلة أعرافها وتقاليدها الخاصة التي قد تخالف ما للقبائل الأخرى من أعراف وتقاليد وقد تتفق معها في كثير أو قليل. د/ محمد رأفت عثمان، النظام القضائي في الفقه الإسلامي، دار البيان، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤، ص١٨.

(٤) الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج١، مرجع سابق، ص٨٣.

(٥) يقول لوبون:"تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد في أفراده بالتوارث". د/جوستاف لوبون، روح الاجتماع، ترجمة /احمد فتحي زغلول، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩.٩، ص٦.

(٦) بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٤؛ الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج١، مرجع سابق، ص٨٣.

(٧) وصف القرآن الكريم شدة تمسك عرب الجاهلية بما ورثوه عن آبائهم وأجداده، وعدم الحيدة عنه حتى كان غير ملائم لهم، في قول الله عز وجل:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَيَهْتَدُونَ﴾. سورة البقرة، الآية رقم (١٧٠).

المستقرة[١]، إذ أن المستهين بها الخارج عليها، يعرض نفسه لأشد العقوبات، فجزاؤه القتل أو الخلع أو أن يتبرأ قومه منه، فيضطر لأن يعيش طريداً أو صعلوكاً[٢].

كما لم يكن للقبائل العربية سلطة قضائية عليا يترافعون إليها في منازعاتهم، أو محاكم دائمة تفصل في المنازعات التي تثور بينهم، بل أنهم اعتادوا اللجوء إلي الحكماء المجربين[٣]، حتى ألفوا الالتجاء إلي التحكيم، فكانوا يتحاكمون إلي زعماء القبائل ومشايخ العشائر، لسمو مكانتهم أو خوفاً من سطوتهم وبطشهم، أو إلي من يتفقون علي الترافع إليه من حكماء القبائل وكهانها وعرافها[٤]، وبصفة خاصة في المشاحنات التي تنشأ بين القبائل وبعضها البعض، أو في الخصومات بين التي تثور بين سادة القبيلة أنفسهم[٥].

وإذا خرج بعض الأفراد عن شريعة القبيلة وأعرافها ومبادئها، أو ارتكب ذنباً أو فعلاً مؤثماً في شرعها، كان لشيخ القبيلة أو مجلسها أو رؤساء عشائرها، معاقبة كل

(١) يري البعض أن العرف القبلي كان أسبق من الدين في الاهتمام بالقيم والأخلاق، لذا وجب علي أفراد الجماعة الالتزام والتقيد به. يوسف سلحد، القانون في المجتمع البدوي، مرجع سابق، ص٢٣٢.
(٢) د/ جواد علي، المفصل، ج١، مرجع سابق، ص٢٧٧.
(٣) القضاء القبلي لم يكن قضاء منظم تختص به السلطة العليا بل كان في الحقيقة تحكيم، يقول كلاستر:"إنه أكثر من أن يكون قاضياً يُعاقب، إنه بالأحرى حكم يعمل علي المصالحة". بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، مرجع سابق، ص٣٣.
(٤) العريف عند العرب كان بمنزلة القاضي يحكم بما عرفه بالاختبار مما جري عليه العرب في كل زمان. الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج١، مرجع سابق، ص٨٣.
(٥) من ذلك التحكيم الذي كان بين هاشم بن عبدمناف وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس، بسبب تمكن هاشم من جمع حتى أصبح رجلاً موسراً، فأخذ يضع المال الذي جمعه من قريش مع القدر الذي يخرجه من ماله الخاص كل عام، ويخصصه لثرد الخبز واللحم للحجاج وحمل الماء لهم، وكان أمية بن عبد شمس ذا مال أيضاً، لكنه تكلف أن يفعل ما كان يفعله عمه، وعجز عن ذلك، فشمتت به قريش وعابوه فغضب ونافر عمه علي نحر خمسين ناقة سود الحدق أو الجلاء عن مكة عشر سنين، واتفقا علي تحكيم الكاهن بن حبيب بن عمرو بن القين بن رزاح الخزاعي المقيم بعسفان، الذي حكم بأن هاشم سبق أمية في المآثر، فذبح هاشم الإبل وخرج أمية إلي الشام. المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، مرجع سابق، ص٣٩.

من يستهين بقوانين القبيلة أو ينتهك حرمتها وآدابها، وتوقيع أشد العقوبات عليهم(١)، والأحكام التي يصدرها شيخ القبيلة في كل شئ نافذ غير مردود في قبيلته(٢).

كما انعكس التمزق السياسي علي النظام الإداري أيضاً، فلم يسود في الجزيرة العربية نظام إداري مركزي موحد، ولم يتمسك العرب بثقافة إدارية ثابتة، بل قامت فيها نظم انبعثت عن الحاجات والظروف والأحوال المحلية(٣)، فبالرغم من أن رئيس القبيلة هو زعيمها وممثلها والمتصرف في كافة شئون، إذ ساد مبدأ الخلط بين السلطات لدي جميع عرب الجزيرة قبل الإسلام وبعده، ولما كانت زعامة القبيلة في حقيقتها منصب شرفي غير مأجور، لذا ـ غالباً ـ ما كان يتقلد الزعامة أكبر أفرادها سناً وأكثرهم تجربة وحنكة، وكانت سلطته مقيدة غير مطلقة، ولم يكن باستطاعته تجاهل رأي شيوخها وحكمائها، ولما كان هذا المنصب مثقل بمهام عديدة وأعباء جسيمة، وفي ضوء كل هذه المعطيات لم يكن شيخ القبيلة يقوم وحده بتصريف شئونها وتدبير أمورها، فقد أشارت الكتابات إلي اشتراك كبراء القبائل في الممارسات الإدارية والتنفيذية.

فعندما قرر قصي بن كلاب تنحية جرهم عن مكة والسيطرة عليها، نظم تكوينها ورتب أمورها وخطط مستقبلها ووضع أسس نظمها، فكان أول إجراء قام به هو تجميع شتات قبيلة قريش في بطحائها، حتى صارت قريش صاحبة مكة، ثم نظم شئونها وحدد أسلوب سياستها وإدارتها، بما يخالف ما كان الوضع عليه وقت سكني خزاعة لها(٤)، فجدد بناء الكعبة ورفع جدرانها وسقفها، واحفر بئر العجول بالقرب

(١) هذا الأسلوب كان متبع في بعض المدن الإغريقية القديمة، إذ كان لمجلس الأريوباج حق معاقبة أشد العقاب كل من استهان بقوانين البلاد أو انتهك حرمة الآداب. د/ علي عباس مراد، الهندسة اجتماعية صناعة الإنسان والمواطن، مرجع سابق، ص١٣٠.

(٢) د/ عمر فروخ، العرب تاريخ الأدب العربي، ج١، مرجع سابق، ص٦٦.

(٣) د/ صالح احمد العلي، الإدارة في العهود الإسلامية الأولي، مرجع سابق، ص٥٩.

(٤) في عهد سكني قبيلة خزاعة مكة كانت جميع السلطات في يد زعيمها، الذي جمع بين يديه السلطة الزمنية والسلطة الدينية، إذ استبد عمرو بن لحيّ . شيخ قبيلة خزاعة . بأمر مكة، فكان سيد مكة وكاهنها، وبموجب الأخيرة وضع لخزاعة أسس عقيدتها وسنن دينها، فكان أول من جلب الأصنام إلي مكة، وغير دين التوحيد، فانتشرت الأصنام في أرجاء الجزيرة العربية، وصار لكل قبيلة صنم تتمسح به وتعبده وتهدي إليه، حتى جاء الإسلام، فطهرρ البيت الحرام من٣٦٠ صنماً متعددة

منها[١]، ثم وزع سكني عشائر قريش حولها، ثم بني أول دار في مكة في مواجهة الكعبة سميت "دار الندوة"[٢]، لتكون داراً للإدارة ومجلساً للمشورة ومقراً للحكم في آن واحد[٣]، فمن خلالها مارس السلطة الرئاسية، وفيها يجتمع بسادة قريش للتشاور في أمورها والبت فيما يعرض لها من مستجدات ومشكلات[٤].

وبعد أن اختص قصي نفسه برئاسة مكة، قنن ممارسة السلطة فيها بناءً علي المشاركة، إذ طبق مبدأ مفاده عدم تحكم شخص واحد في جميع الأمور، وعدم استبداد كيان واحد بالسلطة، فجعل وظائفها ومناصبها موزعة بين رؤسائها وحكمائها، الذين يجتمعوا في دار الندوة لاتخاذ القرارات المناسبة في كل ما يتعلق بشئون مكة وأمور أهلها، ولم يجعل من مبدأً نظرياً بحتاً، بل قام بتطبيقه أثناء حياته وخلال فترة حكمه، فبعد أن جعل شئون مكة كلها تحت هيمنت قريش، أختص نفسه بمناصب الرئاسة واللواء والحجابة، مما جعل القوم جميعاً يقرون له بالملك عليهم، أما باقي المناصب فقد وزعها علي البطون والعشائر[٥]، بهذا الفعل دخلت مكة طور الاستقرار والتنظيم والتحضر في شئون الحكم والاقتصاد، واستطاعت قريش أن تنقلها من حال البداوة إلي أن أصبحت زعيمة الجزيرة العربية[٦].

وعندما كبر قصي ورق وأحس بدنو أجله عمل علي تثبت الملك في عقبه والحكم في ورثته، فوزع الوظائف الرئيسية والواجبات الدينية والمدنية علي أولاده الذكور

الأشكال والحجوم ومادة الصنع، كان أكبرهم صنم قريش المسمي(هبل)، وكانت جدر الكعبة مزينة بالرسوم الوثنية، حتى فتح مكة أمر الرسولρ عليّ بن أبي طالب بإزالتها فمحاها.

(١) كانت مكة قبل قصي تعتمد في شربها علي مياه تُجلب من آبار من خارجها، وكان ذلك يجعل سكنها في حاجة دائمة إلي غيرهم لما للماء من أهمية جمة في هذا الوادي الجاف، لذلك احتفر قصي في بداية ولايته بئر"العجول" بالقرب من الكعبة، لتكون أول بئر لقريش في مكة، قال فيه الحجاج:

نروي من العجول ثم ننطلق .. إن قُضياً قد وفي وقد صدق

(٢) أبي بكر محمد بن الحسن ابن دريد، الاشتقاق، ج١، مرجع سابق، ص١٥٥.

(٣) راعي قصي في تنظيم أبنية مكة قدسية الكعبة المشرفة، فلم يسمح بإقامة بناء يعلو البيت. د/ محمد بن ردير المسعودي، الكعبة المشرفة أدبها وأحكامها، ب.ن، ب.ت، ص١٥.

(٤) محمد المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٣، مرجع سابق، ص٤٤.

(٥) أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٩٧، ص٥١.

(٦) د/ احمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، مرجع سابق، ص١١٩-١٢٠.

الأربعة[١]، بعد أن كانت جميعها في يده وحده، فخلق بذلك نوعاً جديداً من الحكم والإدارة المدنية لمكة، يقوم علي مشاركة الكيانات الاجتماعية في سياسة المدينة وتدبير أمورها، وقد وظهرت تطبيقات هذا النظام بمرور الزمن بشكل جلي، في الدور الذي لعبته دار الندوة ومجلس ملأ مكة في حكم المدينة وإدارة شئونها، الذي وصفه البعض قائلاً:"حياة البلد كانت تحت طبقة من المتنفذين الأكفاء، رجال لم يؤمنوا بالعنف، واعتمدوا علي حل كل المشاكل بالطرق السلمية"[٢].

وقد صار التنظيم الذي وضعه قصي لسياسة مكة وإدارة شئونها، سنة متبعة لايعمل بغيرها[٣]، إذ تيمنت به العرب حتى كان أمره وسُننه عندهم كالدين المتبع[٤]، ذلك أن العرب نظروا إلي قصي نظرة سمو وإكبار وإعجاب، حتى أنهم جميعاً اتفقوا علي أنه لا أحد أحكم ولا أعقل ولا أحسن إدارة للمُلك منه[٥]، وبعده دعي العرب بعضهم بعضا إلي تأمل نظم قريش وإدارتها وإتباعها، قائلين أنظروا قريشاً فخذوا من قولهم، فإنهم ذو الرأي المصيب والحدس الذي لا يخطئ ولا يخيب[٦].

والتغيير هو سمة ملازمة للسلوك البشري، لذا لا يوجد تجمع سكاني ثبتت أوضاعه ونظمه علي ما كانت عليه طوال تاريخه، فكل المجتمعات الإنسانية تغيرت عما كانت عليه في عصورها الماضية، لكن معدلات التغيير تتفاوت سرعة وبطئاً بحسب الثقافة والظروف البيئية والتجارب الاجتماعية ومدي الاستجابة للتأثر بالثقافات الأخرى، فلايحق أن نعتبر أي كيان بشري من المتحجرات، ذلك أن كل المجتمعات الإنسانية لحقها التغيير، لكن لاشك أن معدلات التغيير تتفاوت في بطئها وشدتها، ألا

(١) عقب قصي بن كلاب أربعة ذكور هم: عبدالدار، وعبد مناف، وعبد العزي، وعبد بن قصي، بالإضافة إلي بنت اختلف المؤرخين في اسمها.
(٢) د/ احمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، مرجع سابق، ص١٠٥.
(٣) سليمان بن موسي بن سالم الحميري، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء،ج١، تحقيق د/ محمد كمال الدين دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ص٦٩.
(٤) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ص٤٦.
(٥) د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٥٦.
(٦) محمد المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٣، مرجع سابق، ص٤٤.

أن التغيير لابد حاصل[١]، سواء في المجال السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي أو حتى الديني.

وقد عاشت قريش في منطقة ذات طابع ديني في المقام الأول، جذب إليها الكثير من الثقافات المتباينة، كما فرض عليها الاشتغال بالتجارة الاحتكاك بحضارات مختلفة، وهو ما أدي إلي اتساع الأفق الفكري لسكان مكة، وانعكس ذلك بشكل واضح في التفكير السياسي لقصي بن كلاب ـ الذي كان بيده وحده جميع مناصب الحكم والإدارة ـ عند قيامه بإنشاء حكومة مدنية لإدارة شئون المدينة، فلم يتبني نظاماً دينياً يسيطر فيه رجال الدين علي مظاهر السلطة، ولم يتبني نظاماً استبدادياً ينفرد فيه فرد بالسيطرة علي الحكم، فقد راعي في التنظيم السياسي ألا تكون الحكومة فردية، بأن تكون في أيدي جمهور من العرب[٢]، بحيث تسيطر الأقلية الأرستقراطية علي سلطة الحكم والإدارة[٣]، فوزع المناصب السياسية والمدنية والدينية التي بلغت ست عشرة وظيفة[٤]، بين الفروع القرشية والكيانات الاجتماعية، وعمل علي إرضاء أبنائه فقسم بينهم الوظائف المتصلة بالبيت، بحيث لا ينفرد فصيل منهم بالسلطة، بل جعل لكل بطن من البطون وكل ابن من أبنائه، نصيب في تسيير الشئون العامة لمكة، بأن أورث كل ابن من أبنائه الأربعة أحد الشئون العامة، يتولاها وتنتقل لورثته من بعده.

فولي عبدالدار لواء الحرب ورفع راية قريش، والإشراف علي دار الندوة، وحجابة الكعبة وحمل مفاتيحها والقيام علي خدمتها، وكان عبدالدار بكره وأكبر أولاده سناً، فقال له:"أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك، فلايدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت فاتحها"[٥]، وقد برر المؤرخون حصول عبدالدار علي هذه الامتيازات، بالتمكين له وتقوية مركزه، إذ أن بنيانه الجسدي كان به ضعيف، كما أن

(١) أشيلي مونتاغيو، البدائية، مرجع سابق، ص١٥.
(٢) لويس سيديو، خلاصة تاريخ العرب، مرجع سابق، ص٣٦.
(٣) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الرابع، ج٢، مرجع سابق، ص١٩.
(٤) د/ احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، مرجع سابق، ص١٢٥.
(٥) الحميري، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء،ج١، مرجع سابق، ص٧٠.

شقيقه عبد مناف قد ساد في حياة أبيه وكثر ماله وذهب كل مذهب[١]، وتوارث بني عبد الدار وظائف أبائهم، حتى انتهت يوم فتح مكة إلي عثمان بن طلحة سليل بني عبد الدار فخلدها النبيρ فيهم[٢]، مما جعل البعض يقارب بين بني عبدالدار وبين الأسر التي كانت تتولي تنظيم الشئون الدينية والأعياد في بلاد الإغريق[٣].

وتولي بنو عبد مناف(هاشم وعبد شمس)، الرئاسة، والسقاية التي من أنشطتها توفير المياه للحجيج والإشراف علي مصادرها وأهمها الآبار والعيون، واقترع بنو عبد مناف عليهما فصارتا إلي هاشم، وبقيت الرئاسة في أبنه عبدالمطلب[٤]، الذي حفر بئر زمزم وهيأها للحجيج، وتولي بعده أبناؤه الأشراف عليها حتى وصلت لأبي طالب الذي تنازل عن الرفادة والسقاية لأخيه العباس[٥]، وتولي بنو أمية بن عبد شمس حفظ الأمن والنظام عقاب المعتدين ورعاية الآداب وتحقيق الوقار في الأماكن التي يقصدها الحجيج[٦].

وتولي عبدالعزي الرفادة وهي عبارة عن جمع بعض الأموال ـ كان يحصلها قبلهم عمرو بن لحي ـ في شكل عشور يتم تحصلها من القوافل التجارية المارة بمكة، لصرفها علي الفقراء وتجهيز الطعام لحجاج البيت الحرام، بالإضافة إلي سعي قصي لتشجيع العرب علي القدوم لمكة وإقبال الحجيج إليها، ففرض علي أبناء قريش تقديم

(١) د/ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، مرجع سابق، ص٥٩.

(٢) يوم فتح مكة أغلق عثمان بن طلحة باب الكعبة وصعد علي سطحها وأبي أن يدفع المفاتيح إلي الرسولρ فلوي عليّ بن أبي طالب يده وأخذها منه وفتحها للنبيρ فصلي ركعتين فيها، فلما خرج فسأله العباس بن عبدالمطلب أن يجمع له الحجابة مع السقاية . لما في حجابة الكعبة من وجاهة وكسب . فانزل الله تعالي:"ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلي أهلها"، فقالρ قد أمضيتهما علي ما كانتا عليه في الجاهلية ودعي عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبدالعزي بن عثمان بن عبدالدار ودفع إليه مفاتيح الكعبة وقال خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة لا ينزعها من أيدكم إلا ظالم، ومازالت الوظيفتان في أولادهما حتي اليوم. ألأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ص٤٦.

(٣) أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، مرجع سابق، ص٥٥.

(٤) احمد بن علي القلقشندى، صبح الأعشى،ج٤، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤، ص٢٦٤.

(٥) يري البعض أن أبي طالب تنازل عن الرفادة والسقاية في مقابل عشرة آلاف درهم كان قد استدانها من أخيه العباس ولم يتمكن من ردها له. د/ جواد علي، المفصل، ج٤، مرجع سابق، ص٦١.

(٦) ذلك أنهم اتصفوا بالشدة والقهر والبعد عن اللين والحلم، وأنهم لا يتركون الأمر مهما بلغت صعوبته ومنعته حتى ينالوه. احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، ج٣، مرجع سابق، ص٢٦٩.

جزء من أموالهم لإطعام الحجيج قائلاً:"إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وأن الحجاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج"(١).

وتولي عبد بن قصي حافة الوادي وأطرافه، إذ لم يكن لمكة أسوار ولا أبواب مبنية(٢)، لأن مكة تقع في وادٍ ضيق عميق يتجه شمالاً مع ميل إلي الشرق، تحيط به الجبال والمرتفعات إحاطة كاملة، وفرت لها حماية طبيعية وأغنت سكانها عن بناء أسوار لحمايتها(٣)، لذلك أسند إليه وظيفة الإشراف علي حدود مكة وتأمين هضابها ومراقبة مرتفعاتها، بالإضافة إلي رعاية الطرق المؤدية إليها وتمهيدها، وتأمين حركة القوافل التجارية القادمة والمغادرة(٤)، واستطلاع المخاطر الخارجية والاعتداءات الأجنبية، إذ كان له العديد من الولد منهم وهب ومنهب وبجير، ولم يتداول المؤرخون هذا الفرع بالتفصيل، إذ أن ولده جميعاً قد انقرضوا في فترة مبكرة، ولم يبق من نسله أحداً خالد الذكر(٥).

أما الوظائف الأخرى فكانت من نصيب العشائر والبطون، فاختص بنو سهم بالحكومة والقضاء في الخصومات والمنازعات وإحلال الوفاق والوئام، ليس كموظفين معينين بل بشكل اختياري كمحكمين، إذ لم يكن في مكة منظمات قضائية ولا وجود لمنصب القاضي(٦)، بالإضافة إلي إدارة الأموال المحجوزة ، واختص بنو تميم بالأشناق وجمع الأموال الخاصة بالديات والمغارم سواء قبضها أو دفعها، واختص بنو عدي بالسفارة ومفاوضات الصلح وتنظيم المنافرات والمفاخرات، واختص بنو جمح بالايسار

(١) ابن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، ج١، مرجع سابق، ص٨٤.
(٢) المسعودي، الكعبة المشرفة أدبها وأحكامها، مرجع سابق، ص١٥.
(٣) حافظ وهبة، جزيرة العرب، مرجع سابق، ص٩.
(٤) ذلك أن بعض القبائل احترفت قطع الطرق واعتراض القوافل التجارية، وهي حرفة لم يكن بها بأس في عرف ذلك الزمان. د/عبدالحميد العبادي، صور من التاريخ الإسلامي"العصر العربي"، مرجع سابق، ص١١١.
(٥) أبي عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري، نسب قريش، تصحيح/ ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ب.ت، ص٢٥٦-٢٥٧.
(٦) د/ صالح احمد العلي، الإدارة في العهود الإسلامية الأولي، مرجع سابق، ص٧٠.

والأزلام واستطلاع رأي الآلهة بواسطة ضرب السهام، وتولي بنو مخزوم القبة وهي الخيمة التي يجمع فيها الأسلحة اللازمة للحرب بالإضافة إلي الأعنة المتمثلة في حراسة مؤن الجيش وقيادة خيوله ورعايتها، بينما تولي بنو أسد إعطاء المشورة والرأي لمن يطلبهم بالإضافة إلي تنظيم الأمور والمسائل قبل عرضها علي مجلس الملأ أثناء انعقاده بدار الندوة.

وظلت هذه الوظائف تتوارثها البطون والعشائر حتى فتح مكة، علي أن يسند أمرها إلي أكفأ رجالها وأقدرهم، حتى قام الرسولρ بعد فتح مكة بإلغاء وظائف العصر الجاهلي، ونظم وظائف بديلة تقوم بهذه المهام تحت إشراف السلطة الحاكمة في الدولة الإسلامية، باستثناء وظيفتي السقاية والحجابة، فعندما فتح الرسولε مكة قبض مفاتيح الكعبة ودخلها، ثم خرج قائلاً كل دم أو مال أو مأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة الكعبة فإني أمضيتهما لأهلهما علي ما كانت عليه في الجاهلية(١).

وبالرغم من أن القبائل العربية كانت مستقلة سياسياً، إلا أنها كانت تنظر إلي قبيلة قريش نظرة إعجاب وإكبار، تشيد بسبقها وفضلها وتعظم قدرها(٢)، وتعتبرها صاحبة الرئاسة والحظوة والشرف فيهم، وتلقي إليها السمع والبصر(٣)، إذ أنها تزعمت شبه الجزيرة العربية، حتى أن العرب كانوا يرون أن قريش وسادتها فوق آل جفنة الغساسنة، بل وفوق كسري وآل كسري أنفسهم(٤).

ولما كانت قبيلة قريش أكثر القبائل العربية تنظيماً وأفضلها سياسة وأكثرها خبرة بمسائل الحكم والإدارة، وكان العرب ينظرون إلي مكة بأنها موطن لكل العرب، إذ

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣، ص٥٧٠؛ ألأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ص١١٠؛ عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي،ج١، تحقيق/عادل احمد عبد الموجود وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ص٢١٥.
(٢) د/ احمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، مرجع سابق، ص١٢٢.
(٣) السمعاني، الأنساب، مرجع سابق، ص٦٥.
(٤) أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، مرجع سابق، ص٥٣.

كانت سياستها تجاههم سلمية طيبة، وكانت الظاهرة العامة في بلاد العرب قبل الإسلام التواصل المستمر بين البادية والحضر، واستعانة أهل الحضر بأهل البادية في الكثيرة من شئونهم الخاصة والعامة، كإعداد النشء وتهيئته، والحفاظ علي قواعد اللغة(١)، وأكثرها ما تعلق بالمصالح الاقتصادية، وما يتصل بها من تأمين الأسواق ومنع الاعتداء علي القوافل التجارية(٢)، لذا لم تكن القبائل البدوية منعزلة تماماً ولم قابعة في صحاريها منغلقة علي نفسها، بل كانت علي صلة مستمرة بحلفائها وجيرانها(٣)، وقد عبر البعض عن الاتصال الدائم بين البدو والحضر قائلاً:"البدو لا ينقطعون عن مخالطة الحضر"(٤).

لذا حاولت القبائل العربية تقليدها والاحتذاء بها، وبصفة خاصة في ممارسة أمور حكمها وإدارة الشئون العامة، باعتبار أن نظامها السياسي والإداري أكثر الأنظمة العربية في هذا الوقت تطوراً، وأكثرها آخذاً بأهداب الحضارة والتقدم، فقسمت القبائل الأدوار والوظائف بين سادتها، ليشارك زعيمها في الشئون العامة عدد من أكابر القوم ووجوههم، يختلف عددهم ومهامهم من قبيلة لأخرى، فلم تصل القبائل إلي وضع منهجاً ثابتاً أو أسلوبا حديثاً للإدارة، وإن كانت هناك مجموعة من التطبيقات العملية والممارسات الفعلية، ثبتت مع تقدم الزمن حتى أصبحت من التقاليد التي لا تستطيع القبيلة الانفكاك منها أو الخروج عنها، مما دفع البعض إلي القول بأنهم كانوا غارقين في التقاليد والقديمة(٥).

(١) كانت قريش تؤثر إرسال أطفالها إلي قبائل البادية القريبة من مكة، وبصفة خاصة ما اشتهر منها بصفاء اللسان ونقاء اللغة، وممن أرسل إلي البادية النبيρ حملته حليمة السعدية معها إلي بني سعد من قبيلة هوزان، عن النبيρ أنه قال:"أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر". محمد المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٣، مرجع سابق، ص٤٤.
(٢) د/ هاشم يحيي الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ص٢٧٧.
(٣) د/ احمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، مرجع سابق، ص ١٠٧.
(٤) الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج١، مرجع سابق، ص٨٣.
(٥) هـ.ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية، ج١، مرجع سابق، ص١٤٢.

علي سبيل المثال قبيلة بني شيبان بن ثعلبة[١]، التي زاد عدد أفرادها وتكاثرت فروعها، وزعت إدارة شئونها بين شيوخها ورؤساء عشائرها، وفقاً لملكاتهم وقدراتهم، وبما يحقق التوازن الداخلي بين وحدات القبيلة، فتولي هانئ بن قبيصة الشيباني رئاسة القبيلة والإشراف علي شئون العبادة والقيام بطقوس الديانة[٢]، والتقرب لآلهتها وتقديم القرابين لها[٣]، بالإضافة إلي رعاية عادات القبيلة والحفاظ علي تقاليدها وأعرافها، وتولي مفروق بن عمرو الشيباني التحدث باسم القبيلة، وتمثيلها في مواجهة الجماعات الأخرى، لما اتصف به من رجاحة العقل وفصاحة اللسان وجمال الهندام[٤]، وتولي المثني بن حارثة الشيباني لواء الحرب وشئون القتال وحفظ النظام[٥]، وتأمين القبيلة داخلياً وخارجياً وضع الخطط العسكرية الدفاعية والهجومية[٦]، إذ كان فارس مغوار حقق لقبلته ـ قبل الإسلام ـ النصر والظفر علي قبيلة تغلب.

(١) شيبان بن ثعلبة من قبائل بكر بن وائل من العدنانية، كانت تسكن شرقي نهر دجلة من جهة الموصل، من القبائل كثرة العدد في صدر الإسلام، لها فروع عديدة منتشرة في الجزيرة الفراتية، كبنو محلم وبنو الحارث وبنو أبي ربيعة وبنو مرة وبنو ثعلبة. عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٩٩٧، ص٦٢٢.

(٢) كانت قبائل بكر بن وائل قبل الإسلام تدين بدين النصرانية.

(٣) عندما ذهب الرسولρ إلي قبيلة بني شيبان لدعوتها إلي الإسلام، استقبله مجلس شيوخها وسمعوا منه، ولما علموا بدعوته إلي دين جديد يخالف دين القبيلة، تركوا الحديث لهانئ بين قبيصة، الذي قام للنبيρ:"قد سمعت مقالتك يا أخا العرب وإني أري إن تركنا ديننا واتبعناك علي دينك لمجلس جلسته إلينا أول وآخر، أنه زلل في الرأي وقلة نظر في العاقبة، إنما تكون الزلة مع العجلة ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر". السمعاني، الأنساب، مرجع سابق، ص٦٧، وكانت قبيلة بني شيبان تعظم العُزي وشيوخها يقومون علي سدنتها وخدمتها. هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، مرجع سابق، ص٢٢.

(٤) ابن الأثير، أسد الغابة، ج٥، مرجع سابق، ص٢٦٤.

(٥) كان المثني بن حارثة فارساً مغوار في الجاهلية، قاد قبيلة شيبان في الإغارة علي قبيلة تغلب فظفر بهم فقتل منهم وأخذ أموالهم وقسمها علي أصحابه، اسلم سنة تسع من الهجرة، قائد قبيلته أثناء مشاركتها مع جيوش المسلمين في غزو بلاد فارس.

(٦) السمعاني، الأنساب، مرجع سابق، ص٦٥-٦٧.

الخاتمة

المجتمع العربي القديم عرف العديد من أشكال التنظيم الاجتماعي، بداية من الكيان الاجتماعي البسيط الذي يتكون من زوج وزوجة أو أكثر وأبناء، والذي خضع لسُنة التطور التلقائي، فبمرور الزمن زاد عدد الأفراد واتسعت الرقعة الجغرافية، وظهرت تكوينات اجتماعية أكبر متمثلة في العشائر والفصائل والأفخاذ والبطون وصولاً إلي القبائل، وقد تناول الفكر العربي هذه التجمعات وأضاف كيان الشعب باعتباره أكبر تنظيم اجتماعي وسياسي يمكنه أن تنضوي تحت لوائه كل هذه المجتمعات، إلا أن التطبيق العملي يشير إلي أن عرب الجاهلية لم يصلوا إلي أبدا الشكل السياسي الأخير، بل أن نظمهم توقفت عند القبيلة كأكبر كيان اجتماعي بشري، ولم تظهر الدولة في هذا المجتمع إلا في العصر الأول للإسلام.

وكل كيان بشري مهما كان حجمه ومهما بلغت درجة تطوره لابد له من رابطة تجمع الأفراد المنتمين إليه، هذا الرابطة تكون واضحة جلية محسوسة كلما ضاقت الروابط الاجتماعية، ففي الأسرة والعائلة تكون حلقات العلاقات الاجتماعية قليلة العدد، بين الزوج والزوجة وبين الأب والأم والآباء وأزواجهم بالإضافة إلي الأحفاد، وهي علاقة وثيقة تقوم علي علاقة قرابة قوية متمثله في النسب والمصاهرة، وكلما اتسع الكيان الاجتماعي أفراداً أو ديارًا، بعدت هذه الرابطة وكثرت حلقاتها وأصابها شئ من الوهن، لذا حاولت هذه الكيانات الحفاظ علي روابط الصلة بين أفرادها، لتوحيد جهود جميع المنسوبين لها بما يحقق مصلحة الجماعة ككل.

فكانت العصبية القبيلة القائمة علي القرابة والرحم بالانتماء إلي أصل واحد أو مجرد الاعتقاد بذلك، رابطة مقدسة عند العرب أعظم من تقديس الشعائر الدينية، كافية وحدها لتحقيق التلاحم والتعاضد والمؤازرة بين أفراد الجماعة، ساعد علي ذلك الظروف البيئية الصعبة والمعيشة التي واجهت هذا المجتمع، بالإضافة إلي المبادئ والقيم السائدة والتي ولا يمكن التخلي عنها أو التسامح فيها، مما جعل العصبية القبلية محور

حياة هذه الجماعات البدائية وأساس نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فهي أساس اجتماعهم وكسب قوتهم، وفي نفس الوقت هي التي تمكن بعضهم من الوصول لمناصب الحكم والإدارة، سواء للزعامة وتولي مشيختها أو الانضمام لعضوية مجلس إدارة شئونها.

ولما كان زعيم القبيلة هو الشخصية الأولي علي المستوي الداخلي وممثلها علي المستوي الخارج، لذا استلزم أن يتوافر فيه بالإضافة إلي العصبية القبلية جملة من الخصال الطيبة والخلال الحميدة، التي من شأنها أن تعود بالخير علي جماعته في المقام الأول، وفي بعض الأحيان علي الغرباء أيضا، لكنها لم تكن واحدة في كل القبائل، إذ كان هناك العديد من المحددات التي أثرت في مدي توافر هذه الصفات، فلكل قبيلة قوانينها وقيمها وعاداتها وأعرافها الخاصة بها، بالإضافة إلي اختلاف القوة الذاتية من زعيم إلي آخر، وكذلك اختلاف الظروف الذاتية للقبيلة من وقت لآخر، كل ذلك أدي إلي أن تبوأ المشيخة في بعض الأوقات، رجال فقدوا جانب من الصفات الحسنة، بل واشتهروا بالخلال القبيحة المذمومة، بما يمكنها معه القول بأنها صفات تقديرية مرنة غير وجوبيه.

والقبيلة وإن كانت تنظيم اجتماعي وسياسي قائم بذاته، يتسم بضيق نطاقه ومحدودية عدد أفراده، إلا أن ذلك لم يمنعها من توقير سيدها واحترامه ووضعه في مصاف رؤساء الكيانات السياسية الكبرى، متي قام بأعمال جليلة ترفع مكانتها بين القبائل، وقد تجلي ذلك بمنحه عدد من المزايا الأدبية، أهمها حصوله علي الألقاب التي كانت من نصيب ملوك الممالك وأمراء الإمارات، والمبالغة في تبجله بمنحه درجات تدل علي تأييده وقربه من الإله، بالإضافة إلي اختصاصه بالعديد من المزايا المادية عند تقسيم غنائم الحرب وأسلابها، وذلك في مقابل الواجبات الملقاة علي عاتقه، والتي كان من شأنها الحافظ علي تفوقه الأدبي والمادي، ومساعدته في القيام بالواجبات الملقاة علي عاتقه، يمكن إجمالها في المرباع والصفايا والنشيطة والفضول.

وقد اتبعت القبائل العربية عدد من الطرق في سبيل تقليد أحد سادتها مشيختها، ولما كان سيدها من أكثر عشائرها عصبية وقوة مادية، إلا أن الطريقة الغالبة كانت توارث أبناء السيد منصبه، طالما استجمعوا شرائط الرئاسة ومقوماتها، وكانوا راغبين فيها قادرين علي القيام بها، ليس بصفتهم أبناء السيد السالف، بل لاستيفائهم السمات الذاتية والقدرات الشخصية، فإن لم يكن للسيد أبناء أو كانوا غير جديرين بها، أمكنه حال حياته أن يستخلف في المنصب أحد أقاربه المقربين، فإذا توفي دون ذلك ولم يكن للمشيخة مستحق في أسرته، انتقلت إلي أسرة نبيلة أخري من أسر القبيلة، بحيث يحتفظ بهذا المنصب الرفيع لألمع رجال القبيلة وأقدرهم، وأيا كانت طريقة الوصول للمشيخة فإن السيد يظل محتفظاً بمنصبه ما بقي علي قيد الحياة، إلا إذا فقد شرائطه أو قصر في القيام بواجبات منصبه، علي أن نظرة العرب الدونية للمرأة وقفت حائلاً منيعاً دائماً دون تقلدها هذا المنصب الرفيع، فقصر علي الذكور وحدهم دون الإناث، فلم ترتقيه المرأة مهما ملكت من مقومات أدبية وعقلية ومالية وإدارية.

ومنذ اللحظة الأولي التي يتولي فيها شخ القبيلة، فإنه يتمتع باختصاصات هذا المنصب الرفيع ويتحمل واجباته ومسئولياته، ولاشك أن العلاقات الفردية والجماعية لاتستمر الدهر كله علي وتيرة واحد، فهي دائرة بين الفرح والحزن، السعة والضيق، الهدوء والاضطراب، الطمأنينة والجزع، وعلي سيد القبيلة مواجهة جمع الظروف الأحوال سياسياً أو عسكرياً، يسوس شئون قبيلته في حالة السلم، ويقود فرسانها في حالة الحرب، إذ أن عرب الجاهلية كانوا مولعين بالحرب عاشقين لها، فحياتهم حياة حربية تقوم علي سفك الدماء، فهم دائماً قاتلون أو مقتولون، لا يفرغون من دم إلا إلي دم، للأسباب اقتصادية أو اجتماعية أو دينية أو سياسية، وتعتبر الأخير السبب لأكثر الحروب ضراوة وأطولها أمداً، فعدم وجود سلطة أعلي من مشايخ القبائل، مع الاستقلالية التامة والحرية المطلقة لكل قبيلة، وعدم وجود التحديد الدقيق لإقليم القبيلة، كان مبعث للكثير من الشقاق والخصام الذي غالباً ما أفضي إلي الاقتتال، وهو ما ألقي علي كاهل السيد أعباء حربية جسيمة، والتصرف في ضوء ما يسفر عنه النزال،

بتقسيم الغنائم والأسلاب إن كان نصراً، ودفع دية القتلى وفك الأسري والسبايا والأموال المسلوبة إذا مُنيت قبيلته بالخسران والهزيمة.

وحياة عرب الجاهلية كحياتنا المعاصرة ليس لها نمط واحد ثابت، فمما لاشك فيه أنها لم تكن دوماً دماً وثأراُ وحرباً وحسب، بل كان هناك أوقات مُحرم فيها الاقتتال والتنازع، وأشهر يُمنع فيها التشاحن والتشاجر، هذه الأزمنة يسودها السلام والوئام، وكانت فرصة سانحة لتحسن مستوي المعيشة وجودة الحياة الاجتماعية، بتحقيق أكبر قدر من المكاسب المالية والصفقات الاقتصادية والأرباح التجارية، بالإضافة إلي القيام بالمساعي الدبلوماسية الحميدة وإبرام معاهدات الصلح وعقد التحالفات للوصول للتوازن السياسي، مما يعود بالخير والنفع علي الجماعة كلها، ففي داخل القبيلة تتأكد وحدتها ويتكاتف أفرادها وتزدهر أحوالها، وتتحسن علاقات القبائل بعضها ببعض، باعتبارها كل منها كيان سياسي قائم بذاته، يسعي إلي تحقيق أمجاده والتفاخر بانجازاته.

كما اعتاد عرب الجاهلية علي استغلال فرصة نشاط الأسواق والمواسم العامة في عقد أحلافهم ومعاهداتهم، إذ كانت القبائل تحافظ علي ارتيادها باستمرار، فاعتاد المشايخ والأشراف وعظماء القوم علي حضورها، مما جعلها فرصة سانحة لإبرام العهود وأخذ المواثيق وعقد الأحلاف، وهم في سبيلهم لذلك كانوا يقومون ببعض الإجراءات الشكلية وأداء جانب من الطقوس الدينية، التي من شأنها إطفاء القدسية والمهابة والالتزام علي اتفاقاتهم، ويبعث في النفوس مخافة مخالفتها، مما يؤدي لأن يصبح أطرافه كيان واحد، لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، ومن ذلك إبرام العهد في مكان له صبغة دينية أو أمام الآلهة أو أمام النار المقدسة، وأثناء التعاهد يغمسون أيديهم في جفنة لتربط أيدهم داخلها مادة يعتبرونها بشارة خير، وهم علي هذا الوضع يتلفظون بعبارات تدل علي الوحدة والمصير المشترك خيراً كان أم غير ذلك، ثم يؤكدون ميثاقهم بالقسم المُغلظة والأيمان المغلظة، اعتقاداً منهم بأن من ينقض العهد بعد كل ذلك لن ينجوا أبداً من لعنة الآلهة فهو هالك لا محالة.

فالمبادئ التي حكمت المجتمع القبلي كالعصبية والحرية والمساواة وعدم الخضوع للغير، جعلت من الصعوبة بمكان انتشار نظام الحكم المطلق، فلم يكن سيد القبيلة السيد الأوحد المتفرد بالقرار، بل كانت مؤسسة الملأ التي تضم مشايخ القبيلة وسادتها ووجهائها وقادتها، تشاوره وتشاركه في الأمور الهامة واتخاذ القرارات المؤثرة في الشأن العام، إذ كان بيدها اختيار زعيم القبيلة نفسه، فهي التي تصطفيه من بين سادة القبيلة ووجهائها، لذا لم يكن الفطن منهم يقطع أمر أو يتخذ قراراً إلا بعد الرجوع إليهم، ومشاركتهم إياه بالرأي والمشورة، باعتبارهم الرأي العام المعبر عن طموحات القبيلة وآمالها، هذه المؤسسة لها جذور في ممالك الشرق والمجتمعات العربية القديمة المتحضرة، عرفتها قريش وأوكلت إليها أمورها منذ أن أسسها قصي، تناقلتها القبائل واحدة تلوي الأخرى حتى أصبح لكل منها مجلسها، الذي يرأسه زعيمها أثناء انعقاده للتشاور في الأمور المدنية أو السياسية، وظلت هذه المجالس تمارس نشاطها ردحاً طويلاً من الزمن، حتى شهدها المسلمون الأوائل، مما يدل علي كفاءتها وكفايتها في إدارة شئون هذه الجماعات.

ولما كان زعيم القبيلة لا يستطيع البت في الشأن العام بمفرده، بل يتعين عليه استشارة أعضاء مجلس القبيلة وأخذ رأيهم، وهو ما فرض عليه أن يهيئ لهم مجلساً مناسباً ـ سُمي المنتدي أو الندوة ـ يتفق مع سمو منصبه وعلو قدره، ومع رفعة المكانة الاجتماعية لأعضاء المجلس، وغالباً ما كان هذا المجلس يُعقد في منزل الزعيم أو خيمته أو ملحقاتهما أو في مكان آخر، يخصصه كمقر لخدمة القبيلة وسياستها وإدارة شئونها ، يعرفه الجميع ويمكنهم الوصول إليه بسرعة وسهولة، فعلي غرار التقاء عرب الجاهلية دورياً في أمكان محددة وأزمنة معينة أهمها الموسم والأسواق العامة، كان رجال القبيلة يلتقون مساء كل يوم في مجلسها لاستعراض جميع شئونها الداخلية والخارجية، وإذا أراد سيدها أن يجمعهم في غير المواعيد المتعارف عليه، كان يرسل مناديه يُعلمهم بالموعد المحدد للاجتماع، فإذا لم يتيسر المنادي أو حل الظلام، فإنه كان يوقد ناراً علي أعلي قمة جبل القبيلة، وإن كان الأمر علي درجة بالغة من

الخطورة من شأنها تهدد كيان القبيلة كهجوم جيش، فإنه كان يوقد نارين معاً، فيجتمع إليه الأحلاف والأصدقاء فوراً من حدب وصوب لإعانته ونصرته.

فمصلحة القبيلة هي حجر الزاوية في النظام القبلي، ومجلس القبيلة هو رأيها ولسانها النطاق، المُعبر عن آمالها الباحث عن منافعها وفوائدها، سواء تعلقت بعلاقاتها خارجية وما تستلزمه من عقد تحالفات أو معاهدات هدنة وسلام، أو إعلان حالة الحرب والاقتتال، وما يترتب عليها من نصر ومغانم وأسلاب، أو تحمل مغارم وديات وتعويضات، أو داخلية سياسية كانت أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو دينية أو ثقافية، فهو الذي يختار زعيم القبيلة، وهو الذي يتخذ قرارات الترحال والانتقال، ويحدد منازلها ومراعيها ومساقيها، ويشرف علي تجهيز القوافل التجارية ويسيرها إلي الأسواق الكبرى والمدن العظمي، ويوجه الموارد البشرية لما يعظم إمكاناتها وثرواتها، ويعمل علي دعم وحدة القبيلة وتماسكها، وضمان الاستقرار والسكينة فيها، ويوقع العقوبات علي كل من تسول له نفسه العبث بأمنها وسلامتها، دون نظر إلي موقعه أو مركزه الاجتماعي، بالإضافة إلي الحفاظ علي المقدسات والشعائر الدينية، وتنمية الهوية الثقافية لذا حظي الشعر باهتمامهم بالغ ومكانة مقدسة، وكان الشاعر من المقربين في هذه المجالس، تفرح بقدومه وتهتم بشأنه وترفع قدره ويشرف بمشاركتهم ملئهم.

فقد لعب مجلس القبيلة الدور الأساسي في كل شئون حياتها، في ضوء المبادئ العامة الحاكمة للنظام القبلي وأهمها المساواة بين أبناء القبيلة، والتكافؤ بين أعضاء مجلسها، وحرية التعبير وإبداء الرأي، وأن الفرد مهما كانت منزلته وماله وأهله في سبيل جماعته، فالذاتية ليست ذاتية فردية وإنما ذاتية القبيلة، والمصلحة هي تحقيق النفع للجماعة ككل، وهو ما انعكس بصورة جلية علي تصرفات أفراد القبيلة، واتخاذ القرارات داخل مجلسها، فلكل عضو الحق في أبداء رأيه وتقديم مقترحاته وتبادل الأفكار مع غيره، في جميع الأمور المعروضة للمناقشة، وطرح الحلول المؤيدة بالبراهين والأسانيد، وتفنيد ودحض آراء الآخرين والاعتراض عليها، في سبيل الوصول إلي رأي يجمع عليه المجلس ويلزم القبيلة بأسرها، لكن في المقابل تضمن هذه المبادئ

أيضاً حق الاعتراض والرفض، أو التأجيل لمزيد من البحث والتشاور، فإذا استمر الاختلاف لا يكون أمام الأغلبية المؤيدة إلا استخدام مواهبها وفطنتها، وهي في سبيل ذلك قد تلجأ إلي استعمال وسائل الضغط المادي والأدبي لإقناع المعارضين بقبول القرار، وغالباً ما يتم الوصول إلي رأي توافقي يرضي الجميع أو علي الأقل الأغلبية الساحقة، فلا يكون أمام الأقلية إلا الانصياع له وتحمل التبعات التي يجرها، أو اتخاذ ما تراه محققاً لمصلحتها الذاتية حتى لو أدي إلي تركها القبيلة والانفصال عنها، وهذا كله يُشير إلي معرفة عرب الجاهلية ثقافة الشورى في إدارة الشأن العام.

لكن ذلك لا يعني معرفة عرب الجاهلية بنظام الحكم القائم علي نظرية الفصل بين السلطات، فلم تجد هذه النظرية تطبيقاً لها إلا حديثاً بعد أن رسم الفيلسوف الفرنسي "مونتسكيو" الملامح الواضحة لها، فقد وضع قصي بن كلاب نظام الحكم والإدارة لمكة يمكنه من الاستحواذ علي جميع وظائف المدينة، ثم قام بتطويره بما يسمح باشتراك ذوي المكانة والخبرة والرأي في القيام بالشأن العام وممارسة سلطة الحكم والإدارة، وقد أدي اتصال قريش بالمجتمعات المتحضرة إلي سبقها القبائل العربية في تطوير نظمها الحكومية والإدارية، إضافة إلي شرف نسبها وحظوة مكانتها الجغرافية الدينية والاقتصادية، التي كانت سبباً رئيساً في اتصال دائم بينها وبين القبائل بها البدوية، واعتراف الأخيرة لها بعظمة فضلها وقوة تدبيرها، ومن إتباع نظمها ووسائل تدبيرها، مما أوجود حكومات قبلية ارستقراطية غير استبدادية، تشترك فيها كيانات القبيلة ممارسة وظائف الحكم والإدارة، بحيث لا يتم إبعاد أيا منها كلية عن السلطة، بل ساهم كل منها بصيب في الشئون العامة، إلا أنه بالرغم من اتسام نظامهم السياسي بالروح الديمقراطي فإنه لم يتخطي هذا القدر من التطور، حتى نشأة الدولة الإسلامية وتشكيل حكومة متميزة ترتكن إلي مبادئ الشريعة.

الملخص

انتظم عرب شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي في كيانات اجتماعية متباينة الحجم والعدد والتطور، لكن الشكل الذي تمسكوا به وساد لديهم هو القبيلة، فهي كيان اقتصادي واجتماعي وسياسي مستقل، فقد ساهمت البيئة الصحراوية بما تميزت بوعورة تضاريسها وندرة مواردها وصعوبة تحصيل متطلبات الحياة فيها، إلي ضرورة وجود إطار منظم للتعاون تتضافر فيه الجهود، بحيث يمكنهم التغلب علي مصاعب الحياة البدوية وقسوة البيئة البدائية، وفي ظل هذه المعطيات لم يكن الفرد يأمن العيش في هذه البيئة المحفوفة بالمخاطر الطبيعية والبشرية إلا مع أشخاص يركن إليهم بالفطرة ترعرع فيهم ونما بينهم، مما أوجد العصبية القبلية المبنية علي قرابة الدم، مثلاً للولاء والانتماء والاتحاد، الذي تذوب فيه الفردية وتعلوا فيه مصلحة الجماعة، فالفرد نفسه وماله وأهله في سبيل القبيلة.

ولابد لكل مجتمع بشري شكل من أشكال السلطة، يتناسب مع تكوينه وطبيعته ومبادئه ومدي تطوره، والقبيلة العربية كتنظيم اجتماعي وسياسي مستقلة، كان لها سلطة عليا تدبير كافة أمورها وتدير جميع شئونها، تمثلت في شيخ القبيلة ومجلسها، فالثاني يختار الأول من بين أكابر القبيلة الأصلاء، ومشايخها ورجالها وقادتها، ممن يتمتع بقدر كبير من المزايا والخصال الحميدة، دون الالتزام المطلق بمبدأ وراثة الحكم، ومنح اختصاصات واسعة سواء علي المستوي الداخلي أو الخارجي، مكنت النشطاء منهم من الحصول علي مزايا الملوك والأمراء، إلا أن الزعماء الفطناء والمشايخ الأذكياء، لم يجنحوا إلي الاستبداد بالسلطة والإنفراد بالشأن العام، بل كانوا يعرضون علي مجلس الملأ الذي ضم الكبراء أصحاب الرأي والمشورة، كل ما يتعلق بشئون القبيلة للتشاور واتخاذ قرار توافقي فيها، باعتبارهم الرأي العام للقبيلة المعبر عن آمالها وتطلعاتها، الأمر الذي أدي إلي اشتراك كيانات القبيلة المختلفة في الحكم والإدارة.

Summary

In the pre-Islamic era, the Arabs of the Arabian Peninsula were organized into social entities of varying size, number, and development, but the form they adhered to and prevailed among them was the tribe, as it was an independent economic, social, and political entity, The desert environment, characterized by its rugged terrain, scarcity of resources, and difficulty in obtaining life's necessities, has contributed to the necessity of an organized framework for cooperation in which the efforts of individuals are combined, so that they can overcome the difficulties of Bedouin life and the harshness of the primitive environment. In light of these facts, the individual was not safe. Living in this environment, which is always fraught with natural and human dangers, except with people whom he naturally trusts, who grew up among them and grew up among them, Which created tribal fanaticism based on blood kinship, as an example of loyalty, affiliation, and union, in which individualism dissolves and the group's interest is elevated, so the individual himself, his money, and his family are for the sake of the tribe.

Every human society must have a form of authority, commensurate with its composition, nature, principles, and extent of development. The Arab tribe, as an independent social and political organization, had a supreme authority to manage all its affairs and manage all its affairs, represented by the tribe's sheikh and its council. The second chooses the first from among the greatest. The original tribe, its sheikhs, men, and leaders, who enjoy a great deal of advantages and good qualities, without absolute commitment to the principle of inheritance of rule, He granted broad powers, whether at the internal or external level, which enabled the activists among them to obtain many of the advantages of kings and princes. However, the prudent leaders and intelligent sheikhs did not tend toward tyranny with authority and monopoly on public affairs. Rather, they were presented to the public council, which included the elders. The chiefs, the people of opinion and advice, everything related to the affairs of the tribe, to consult and make a consensus decision regarding it, as they are the general opinion of the tribe that expresses its hopes and aspirations, which led to the participation of the various entities of the tribe in governance and administration.

قائمة أهم المراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانياً: التفاسير.

- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم ، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
- جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٣٠هـ.
- سميح عاطف الزين، تفسير ألفاظ القرآن، الدار الإفريقية العربية، لبنان، ط٤، ٢٠٠١.
- محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران، ط٢، ١٤٣١ هـ.
- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة،٢٠١٢.

ثالثاً: السنة النبوية.

- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، تحقيق/ طاهر احمد الزوي وآخر، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ب . ت.
- صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، سنن الترميذي، مسند الإمام احمد، سنن ابن ماجة، المستدرك علي الصحيحين.
- العراقي وابن السبكي والزبيدي، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، ج٦، دار العاصمة للنشر،الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.
- محمد محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية، ١٤٠٤هـ.
- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ٢٠٠٢.

رابعاً: السيرة.

- ابراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٩٩٥.
- أبو الحسن علي الندوي، السيرة النبوية، دار الشروق، مكة، ط٨، ١٤١٠هـ.
- أبو الفداء إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق/ مصطفي عبد الواحد، شبكة المشكاة الإسلامية، ١٩٧٦.

- احمد بن علي بن محمد المقريزي، إمتاع الأسماع بما للنبي صلي الله عليه من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق/ محمد عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١، ١٩٩٥.
- عبدالرحمن عبدالله السهيلي، الروض الأنف، دار الكتب العلمية، بيروت، ب.ت.
- محمد بن عبدالله بن يحيي (ابن سيد الناس)، السيرة النبوية، تحقيق/ محمود الشرقاوي، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٣.
- محمد محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩١.

خامساً: مراجع الفقه الإسلامي:

- أبي بكر الصديق. احمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البيجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.
- احمد ابن حجر الهيتمي، تحفة المحتاج علي شرح المنهاج، دار الفكر، بيروت، ب.ت.
- احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، تحقيق/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز وآخر، دار الفكر، بيروت، ب. ت.
- احمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨.
- جمال الدين الأفغاني، العروة الوثقي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٥.
- سليمان بن احمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق/ حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- عبدالرؤف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبري، القاهرة، ط١، ١٣٥٦هـ.
- عبدالله بن احمد بن محمد بن قدامة، المغني، تحقيق د/ طه محمد الزيني، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٦٩.
- عبدالله محمد ابن مفلح المقدسي، الآداب الشرعية، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٩.
- عثمان بن علي الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٣١٣هـ.

- علي بن سلطان محمد القاري، مرقاة المفاتيح، تحقيق جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق د/ احمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، ط١، ١٩٨٩.
- عمر احمد الراوي، مرجع الطلاب في المواريث علي المذهب المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠١٦.
- محمد بن أبي بكر الزرعي "ابن قيم الجوزية"، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٨هـ.
- منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، كشاف القناع، وزارة العدل، الرياض، ١٤٣٠هـ.
- يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد الجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.

سادساً: معاجم اللغة العربية:

- أبو الحسين احمد بن فارس زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج ٤، تحقيق/ عبدالسلام محمد، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.
- جبران مسعود، الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٩٢.
- جمال الدين أبو الفضل بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ب.ت.
- د/ احمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
- مرتضي الحسيني الزبيدي، تاج العروس، ج٣، تحقيق/ عبدالستار احمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٥.

سابعاً: مراجع اللغة والأدب:

- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق/ محمد أبو الفضل ابراهيم، مؤسسة اسماعيليان، إيران، ب. ت.
- أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٠.

- أبي بكر محمد بن الحسن ابن دريد، الاشتقاق، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- أبي منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق/ السقا والابياري وشلبي، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٣٨.
- احمد بن عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د/ مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- احمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ١٩٢٣.
- الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق/ محمد محي الدين، المكتبة التجارية الكبري، مصر، ط٢، ١٩٥٥.
- د/ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، بيروت، ط٤، ٢٠٠٠.
- د/ سجيع جميل الجبيلي، ديوان أمية بن أبي الصلت، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- د/ عمر فروخ، العرب تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١.
- د/ محمد التونجي، ديوان الأفوه الأودي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- د/ يوسف خليف، الشعراء والصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ب . ت.
- **د/عمر فروخ، العرب تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨١.**
- عبدالقادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانكي، القاهرة، ب. ت.
- عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعاني الكبير في أبيات المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٤.
- عبدالله عبدالجبار ومحمد عبدالمنعم خفاجي، قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٠.
- عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ب.ت.

- علاء الدين علي دده السكتوري، محاضرة الأوائل، المطبعة الميرية ببولاق، القاهرة، ط١، ١٢٠٠هـ.
- محمد بن الحسن بن دريد، الاشتقاق، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهلية، دار المعارف، القاهرة، ب.ت.
- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق/ محمود شاكر، دار المدني، جدة، ب. ت.
- محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق د/ محمد احمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٧.
- محمد علي طه الدرة، فتح الكبير المتعال في إعراب المعلقات العشر الطوال، مكتبة السوادي، جدة، ط٢، ١٤٠٩.
- هشام بن محمد السائب الكلبي، ديوان لقيط بن يعمر الأيادي، تحقيق/ خليل ابراهيم، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، بغداد، ١٩٧٠.

ثامناً: مراجع العلوم والحضارة والتاريخ والقانون:

- ابراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- ابراهيم شمس الدين، مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ٢٠٠٢.
- **ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق د/ حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.**
- أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، بيت الأفكار الدولية، عمان، ب. ت.
- أبو نصر الفارابي، كتاب السياسة المدنية "مبادئ الموجودات"، تحقيق د/ فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١، ١٩٦٤.
- أبي العباس احمد القلقشندى، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة ، ١٩١٤.
- أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق/عبدالأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي ، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨.

- أبي عبدالله ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق د/ علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.
- أبي عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري، نسب قريش، تصحيح/ ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ب.ت.
- أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ب. ت.
- أبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، مكتبة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٦.
- أبي علي ابن سينا، الحكمة العروضية، تحقيق د/ محسن صالح، دار الهادي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص٣٣.
- أبي هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق/محمد أبو الفضل ابراهيم ولآخر، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٨.
- احمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١٠، ١٩٦٩.
- احمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ.
- احمد بن علي القلقشندى، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤.
- احمد بن علي القلقشندى، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق/ ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.
- احمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨.
- احمد بن محمد بن عبدربه، العقد الفريد، تحقيق د/ عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- احمد بن يحيي البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق د/ محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ب . ت.
- إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق/ علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٩٧.
- بوزياني الدارجي، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط١، ٢٠٠٣.

- تقي الدين المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، الهدف للإعلام والنشر، ب. ت.
- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٠٢.
- **حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، دار الأفاق العربية، الطائف، ١٣٤٣هـ.**
- د/ ابراهيم أبو الغار، علم الاجتماع القانوني والضبط الاجتماعي، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ب. ت.
- د/ ابراهيم أبو الغار، علم الاجتماع القانوني والضبط الاجتماعي، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٥.
- د/ ابراهيم درويش، النظام السياسي دراسة فلسفية تحليلية، ج١، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩.
- د/ ابراهيم سلامة، خُلق ودين "دراسات اجتماعية أخلاقية"، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٥٤.
- د/ ابراهيم محمد العناني، الوجيز في القانون الدولي العام، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠١٥.
- د/ احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، بيروت، ب. ت.
- د/ احمد أمين سليم، جوانب من تاريخ وحضارة الجزيرة العربية في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٩.
- د/ إدريس عزام وآخرون، المجتمع الريفي والحضري والبدوي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، ٢٠١٠.
- د/ السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت، ب. ت.
- د/ إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥.
- د/ بسيوني محمد الخولي، العلاقات الدولية في الإسلام، ب. ن، ٢٠٢٠.
- د/ توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٩٦.
- د/ جبور عبدالنور، نظرات في فلسفة العرب، دار المكشوف، بيروت، ١٩٤٥.
- د/ جلال شمس الدين، الفضائل والقيم لدي الشعوب القديمة ذوات الأديان الإنسانية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط٢، ٢٠٠٥.

- د/ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣.
- د/ حافظ احمد عجاج، الإدارة في عصر الرسولρ، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٧.
- د/ حسن شحاته سعفان، علم الإنسان، مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٦٦.
- د/ خالد العسلي، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكرة، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ٢٠٠٨.
- د/ خالد بن عبدالرحمن الجريسي، العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، مؤسسة الجريس، الرياض، ب. ت.
- **د/ ديزيره سقال، العرب في العصر الجاهلي، دار الصداقة العربية، بيروت، ١٩٩٥.**
- د/ شكران خربوطلي، سطور منسية في تاريخ الحجاز، الحياة الاجتماعية في الحجاز قبيل ظهور الإسلام، دار مؤسسة رسلان للطباعة، دمشق، ٢٠١١.
- د/ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط ١١، ب . ت.
- د/ صالح احمد العلي، الإدارة في العهود الإسلامية الأولي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- د/ صالح احمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨١.
- د/ طارق الصادق عبدالسلام، النظرية الاجتماعية وأسسها وتوظيفها في البحث العلمي، الدار العالمية، القاهرة، ٢٠٠٨.
- د/ عبدالحميد العبادي، صور من التاريخ الإسلامي"العصر العربي"، مكتبة الآداب للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٤٨.
- د/ عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط٢، ١٩٦٨.
- د/ عبداللطيف الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، دار الأندلس، بيروت، ب. ت.
- د/ عطية القوصي، تاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٦.
- د/ علي عباس مراد، الهندسة اجتماعية صناعة الإنسان والمواطن، دار الروافد الثقافية، بيروت، ط١، ٢٠١٧.

- د/ علي يوسف الشكري، الوسيط في الأنظمة السياسية المقارنة، مؤسسة دار الصادق الثقافية، الكوفة، ب. ت.
- د/ عمر فروخ، العرب تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤.
- د/ مجيد حميد عارف، الانثوغرافيا والأقاليم الحضارية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٤.
- د/ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط١، ١٩٨٢.
- د/ محمد بن ردير المسعودي، الكعبة المشرفة أدبها وأحكامها، ب.ن، ب.ت.
- د/ محمد رأفت عثمان، النظام القضائي في الفقه الإسلامي، دار البيان، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤.
- **د/ محمد شحرور، الدولة والمجتمع، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ب .ت.**
- د/ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون "العصبية والدولة"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦، ١٩٩٤.
- د/ محمد عبدالهادي دكلة وآخرون، المجتمع الريفي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مطابع جامعة الموصل، ١٩٧٩.
- د/ محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨.
- د/ محمد مبروك نافع، تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام، مطبعة السعادة، مصر، ط٢، ١٩٥٢.
- د/ محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ب . ت.
- د/ مصطفي الخشاب، دراسات في الاجتماع العائلي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٨.
- **د/ نعمان محمود جبران، د/ روضة سحيم حمد آل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، مؤسسة حمادة للخدمات الجامعية، أربد، الأردن، ١٩٩٨.**
- د/ هاشم الحافظ، تاريخ القانون، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٢.
- د/ هاشم يحيي الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

- د/زهير حطب، تطور بني الأسرة العربية والجذور التاريخية والاجتماعية لقضاياها المعاصرة، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٧٦.
- رياض رحيم حسين الصفراني، هاشم بن عبد مناف، العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء، ط١، ١٩٥٧.
- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٣٧.
- سليمان بن موسي بن سالم الحميري، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق د/ محمد كمال الدين دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
- السيد محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩.
- **عباس محمود العقاد، الديمقراطية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ب. ت.**
- **عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، تحقيق/عادل احمد عبد الموجود وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.**
- عبدالرحمن بن محمد الاشبيلي "أبن خلدون"، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ب. ت.
- عبدالرحمن بن محمد الاشبيلي "بن خلدون"، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبدالله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٤.
- عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، الأنساب، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ب.ت.
- عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، تحقيق/ منذر محمد سعيد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- عبدالله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج١، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، ط٢، ١٩٣٢.
- عبدالمتعال الصعيدي، تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة العلوم، القاهرة، ١٩٣٣.
- علي بن احمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ب . ت.

- علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني(ابن الأثير)، أسد الغابة، تحقيق/ عادل احمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١، ١٩٩٦.
- علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ، دار التضامن، بيروت، ط١، ١٩٧٥.
- عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٩٩٧.
- عمر شريف، نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٤١١هـ.
- لويس شيخو اليسوعي، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٩.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة/عبدالصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦.
- محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، المكتبة التجارية، القاهرة، ط٤، ١٣٥٤هـ.
- محمد النجيرمي، أيمان العرب في الجاهلية، تحقيق/ محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة،١٣٤٣هـ.
- محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، الفروسية المحمدية، تحقيق/ زائد بن احمد النشيري، دار عالم الفوائد، جدة، ب . ت.
- محمد بن أبي بكر بن عبدالله الأنصاري، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، تحقيق د/ محمد التونجي، دار الرفاعي، الرياض، ط١، ١٩٨٣.
- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨١.
- **محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.**
- محمد بن حبيب البغدادي، المنمق في أخبار قريش، تصحيح/ خورشيد احمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، الطبقات الكبري، دار صادر، بيروت، ب.ت.
- محمد بن عبدالله ألأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، عبدالمقصود محمد سعيد خوجه، جده، ط١، ١٣٥٢هـ.
- محمد بن عبدالله بن يحيي (ابن سيد الناس)، عيون الأثر، تحقيق د/ محمد العيد الخطراوي وآخر، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ب.ت.

- محمد بن عمر الواقدي، المغازي، تحقيق د/ مرسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.
- محمد بن عمران بن موسي المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق/ عبدالستار احمد فراج، جامعة نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٨.
- **محمد جاد المولي، أيام العرب في الجاهلية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٢.**
- المرتضي علي بن الحسين الموسوي، أمالي المرتضي، تحقيق/ محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، دمشق، ط١، ١٩٥٤.
- منذر معاليقي، صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥.
- نور الدين علي بن عبدالله السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفي، تحقيق د/ قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان، ط١، ١٤٢٢هـ.
- هاشم بن محمد الكلبي، افتراق ولد معد، تحقيق/ احمد محمد عبيد، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٠.
- هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، تحقيق/ احمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٥.
- يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، تحقيق/ محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت.
- يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق/ علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

تاسعاً: الدوريات:

- أغراس سليم حياوي، الزعامة السياسية، مجلة الكلية الإسلامية بالنجف، مجلد(١٠)، عدد(٣٦)، ٢٠١٥.
- بيار كلاستر، أثريات العنف أو الحرب في المجتمعات البدائية، مجلة الفكر العربي، مجلد(٥)، عدد(٣٣)، ١٩٨٣.
- د/ العياشي عسر، الأسرة في الوطن العربي، مجلة عالم الفكر، مجلد (٣٦)، عدد (٣)، مارس ٢٠٠٨،
- د/ جورج حنا، من آفاتنا الاجتماعية العصبية الأسرية، مجلة الآداب، سنة (١)، عدد (١٢)، ١٩٥٣.

- د/ شاكر محمود إسماعيل، الأعياد والأفراح عند العرب قبل الإسلام، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية، العدد (٩١)، ٢٠٢٢.
- د/ طاهر لبيب، الأسرة العربية، مجلة المستقبل العربي، مجلد (٢٧)، عدد (٣٠٨)، ٢٠٠٤.
- د/ عثمان جمعة ضميرية، تعريف الملأ في الفكر الإسلامي، مجلة البيان، عدد (٤)، جمادي الآخر ١٤٠٧هـ.
- د/ علي مصطفي عشا، جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد (٨٢)،٢٠١٣.
- د/ محمود عبده نور الدين، أسس النظام السياسي في الإسلام، مجلة كلية الآداب جامعة قنا، العدد(٣٨)، ٢٠١٢.
- د/سهيلة مرعي مرزوق، لمحة عن المرأة في المجتمع العربي القديم، ج١، مجلة كلية التربية جامعة بابل، العدد(١٢)، ٢٠١٣.
- سيد نظير الحسن الجيلاني، العصبية في نظر الإسلام، مجلة ندوة الطالب، جامعة أم القري، مكة المكرمة، العدد(١٢)، ١٩٩٣.
- صالح السنوسي، إشكالية المجتمع المدني العربي العصبية والسلطة والغرب، مجلة حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، العدد (٣٣٣)، ٢٠١٣.
- عبد الحكيم بن يوسف الخليفي، الاجتماع الإنساني بين نظريتي العناية الإلهية والعصبية: دراسة مقارنة لآراء ابن سينا وابن خلدون، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد(٥٩)، ابريل٢٠١١.
- عطاالله بن ضيف الله، لمحات عن حمي الربذة موضعاً وحدوداً، مجلة الدارة، مجلد (٤٦)، عدد(١)، يناير ٢٠٢٠.
- علي حسين حطيم، التنظيم الاجتماعي لنظم القبيلة البدوية، جامعة النهرين، مجلة الأدب، العدد(١١١)، ٢٠١٥.
- محسن رمضان جابر، الثقافة السياسية وأثرها علي النظام السياسي، مجلة العلوم الاقتصادية والسياسية، العدد(٧)، يونيو ٢٠١٦.
- محمد الخطيب، النظام القبلي عند العرب في الجاهلية، مجلد (٤١) العدد(٢) .
- يوسف سلحد، القانون في المجتمع البدوي، مجلة الاجتهاد، مجلد(٤)، عدد(١٧)، ١٩٩٢.

عاشراً: الكتب المترجمـة:

- أ. أكرم، سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة/صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤.
- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، ب . ت.
- أشيلي مونتاغيو، البدائية، ترجمة د/محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٢.
- اغناطيوس غويدي، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة/ ابراهيم السامرائي، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- أفلاطون، الجمهورية(المدينة الفاضلة)، ترجمة/ عيسي الحسن، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٩.
- بيار كلاستر، مجتمع اللادولة، ترجمة د/محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٩١.
- جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ج١، ترجمة/ محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك١، ترجمة/ حسن جلال العروسي الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ب. ت.
- د/جوستاف لوبون، روح الاجتماع، ترجمة /احمد فتحي زغلول، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩.٩.
- روبرت أ. دال، التحليل السياسي الحديث، ترجمة د/ علا أبو زيد، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- روبرت م. ماكيفر، تكوين الدولة، ترجمة د/ حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٦.
- روزا لوكسومبرغ، المجتمع البدائي وانحلاله، ترجمة/ ابراهيم العريس، ب.ت.
- عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة/ محمد الشريف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٨.
- غاستون بوتول، ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية، ترجمة/ عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥.
- فرانسيس فوكوياما، أصول النظام السياسي من عصور ما قبل الإنسان إلي الثورة الفرنسية، ترجمة/ مجاب الإمام وآخر، منتدي العلاقات العربية والدولية، الدوحة، ط١، ٢٠١٦.

- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، ترجمة/ نبيه أمين وآخر، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٦٨.
- لويس سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ترجمة /محمد أحمد عبد الرازق، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ب.ت.
- موريس ديفرجيه، الأحزاب السياسية، ترجمة علي مقلد وآخر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١١.
- هـ.ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة/ عبدالعزيز توفيق جاويد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٣.
- ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة/ محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ب.ت.

حادي عشر: المراجع الأجنبية:

- Arnold Toynbee, A study of History, V١١١- Oxford University Press, London, ١٩٤٨.
- Edward Adamson Hoebel: The Law of Primitive man,Harvard University Press, ١٩٥٤.
- Jean William Lapierre, Essais sur le fondement du pouvoir politique, publication de la faculte:d,Aix-en-provence, Ophrys, ١٩٦٨.
- Josef Sumpf et Michel Hugues: Dictionnaire de Sociologie, Librairie, Larousse, Paris , ١٩٧٣.
- Lewis Henry Morgan, Ancient Society, New York: H. Holt and Company, ١٨٧٧, P. ١٠٦.
- Richard Thurnwald: Economics in Primitive Communities, Oxford University Press, ١٩٣٢.